محمد المشد

أحببتُ لاجئة

رواية

"مستوحاة من أحداث حقيقية"

دار دوّن

محمد المشد

أحببتُ لاجئة

تصميم الغلاف: كريم آدم

رواية

دوّن

أحببتُ لاجئة

كل الأشياء ستبقى، كل ذلك الحب، كل ذلك السفر .. وكل ذلك البُعد!

يحلم "نوح" بوطن مثالي كالذي نسمع عنه في الحكايات، أو نتخيله في الجنة، يحاول نوح بناء هذا العالم الجميل المسالم والراقي والمطابق لشكل أحلامه، يبدأ مشروع جديد سرعان ما ينجح ويبدأ في تحقيق أول خطوات الحلم، يصادف أن يتقابل مع فتاة سورية لاجئة تغير تفاصيل حياته وتجدد شكل علاقته بالأيام، غير أن كل الأمور التى خطط لها تتغير، الخطة بالكامل تنقلب، ومصير نوح وحبيبته أيضاً يتغير بتغير الخطة، والعالم الذي رسم له تفاصيله الجميلة يتبدل، تبقى التفاصيل وينتهي العالم ذاته، هل تبقى كل الأشياء الجميلة؟ هل يقاوم الحب كل ما يحدث من خراب ؟ وهل تبقى تفاصيل القصة الملهمة على السطح أم تغوص في الأعماق ؟

محمد المشد

مؤلف ومقدم برامج تلفزيونية تخرج في كلية الآداب قسم صحافة، حصل على المركز الأول في كتابة القصة من جامعة عين شمس عام 2012 ، صدرت روايته الأولى « عرفت الله بحبك » 2017 .. كتب وقدم برامج الأطفال مثل (عيد - حبات اللؤلؤ - بيحبنا وبنحبه)، كتب حلقات الأطفال لبرنامج الإعلامي / شريف مدكور، كما أعد وقدم البرنامج الوثائقي « بلاد الكنانة »

دوّن

محمد المشد

أحببتُ لاجئة

رواية

"مستوحاة من أحداث حقيقية"

دار دوِّن

محمـد المشـد: أحبَـبْتُ لاجِئَـة، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٣٦٥٤ - الترقيم الدولي: 978-977-806-091-1
جَميـع حُـقــوق الطبْـع والنَّشر محْـــفُوظة للناشر
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.
© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

محمـــد المشـــد

أحبَبْتُ لاجِئَة

مقتبسة عن أحداث حقيقية

دَوِّنْ
للنشر و التوزيع

إهـــــداء

إلى كل شخص بيده قرار
قد يتحكم في مصير إنسان
ولو بمجرد ختم.

(قبل الحكاية)

يا أيها الغارقون في أحلامهم والحالمون في غرقهم وأمواج حياتنا تبكي على ما فعلته بنا، وأمواج بحارنا تنتحر في صدورنا حد الفتك بقصباتنا الهوائية، والأسماك تبكي علينا وهي تسمع مساعد القبطان يقول «المركب بتغرق يا قبطان».

أثناء غرق عبارة الموت المسماة «عبارة السلام ٩٨»، التي غرق بها أكثر من ألف مصري في ليلة شتوية أثناء عودتها إلى مصر من شاطئ المملكة العربية السعودية في الثاني من فبراير لعام ٢٠٠٦، ولم ينج بقوارب النجاة سوي طاقم البحارة، أما الركاب الناجون ظلوا في المياه حتى انتشلوا في اليوم التالي.

الآن أدرك حقيقة الأشياء دون زيادة أو نقصان، وأرى الأحداث من جميع زواياها، حتى الزوايا التي لم أقتنع بها يوما أراها الآن بمبدأ إنكار الذات دون تكبرٍ على الصواب.

وعندما قال مساعد القبطان «المركب بتغرق يا قبطان»، كان الدخان يملأ أروقة العبارة في هولٍ وتخبطٍ للركاب المتسارعين والمتصارعين إلى سطح السفينة هربًا من الموت بالحريق إلى الموت بالغرق، وصرخات استنجاد الركاب تتعالى «لا إله إلا الله»، دقائق وبدأت العبارة تتأرجح بين ظلمتين، ظلمة الليل وظلمة رعب البحر ثم انطفأت أنوارها لتضاف ظلمة جديدة، وبدأت العبارة تميل فتساقط الركاب إلى الماء في صريخ شق السماء فجيعته في ظلماتٍ ثلاث.

وفي تلك اللحظة، كان رئيس مصر محمد حسني مبارك وزوجته وأبناؤه ورؤوس نظامه يحتفلون أمام الشعب بفوز الفريق المصري

لكرة القدم على فريق الكونغو في كأس الأمم الإفريقية بالقاهرة.

وكانت أمي قد انتهت من ترتيب شقتنا بحي حدائق الزيتون بمحافظة القاهرة، بمساعدة أخي الكبير في تعليق الزينة استعدادًا لاستقبال أبي العائد من سفره على متن العبارة، ولم نتخيل أن أبانا يصارع الغرق ويتمني أن تزداد حياته يومًا ليرى زوجته «صفية»، وولديه «أحمد» و«نوح» بعد غيابه سنين طلبًا للرزق في الغربة.

وفي نفس اللحظة كانت «فيروز» تخبئ وجهها بين الحائط ويديها وهي تلعب الغميضة مع ابن جيران جدتها «سندس» القاطنة في مدينة حلب بسوريا.

أما جارنا الصول «محمد فرغلي» الذي خدم في الجيش تحت إمرة البطل محمد نجيب، كان يطير فرحًا وهو متجه لميناء سفاجا ليستقبل أبي، وابنه العائد من السفر بعبارة الموت، ولكن الماء تمكن من رئة ابنه فخرجت روحه لخالقها.

وفي محل ملابس بمحافظة الإسماعيلية في مصر كانت «أمنية» تختار مقاسها من البناطيل الجينز غصبًا وعيناها معلقة بفستانٍ ملئ بالورد، لكن أباها نهرها لتسرع اختيار مقاس البنطال.

وكان أمين شرطة المباحث «كمال حمودة»، يشاهد الاحتفال في تليفزيون المقهى المقابل لموقف ميكروباصات حي حلمية الزيتون، وينتظر جمع الإتاوة من السائقين بواسطة «سرحان صبحي» وهو أحد بلطجية الموقف وملقب بـ «النجس».

أما أنا فكنتُ عائدًا من درس مادة الفيزياء مع صديقي محمد عبدالناصر، ربما ننجوا من الغرق في الصف الثالث الثانوي.

وبعد مرور ساعاتٍ قليلة على جملة «المركب بتغرق يا قبطان»..

اتجهت جموع أهالي الضحايا إلى الميناء لاستقبال جثث أبنائهم،

وبات معظم الأهالي عدة أيام على الشاطئ في انتظار انتشال الجثث وتبدلت احتفالات الاستقبال إلى نواحٍ وعويل، وبكل جبروتٍ دفنت الحكومة تسعة وخمسين جثة في مقبرةٍ جماعية في منطقة بين محافظة قنا والغردقة، بحجة أنهم جثث مجهولة دون محاولة تحليل DNA للجثث وللأهالي المنتظرين، فهل هناك مجهولون على متن عبارة لا يركبها إلا من يدفع قيمة التذكرة ومختوم على جواز سفره تأشيرة السفر..!! أم أن عامة الشعب مجهولون في نظر المسئولين..!!

أما في بيتنا تضاعفت فرحتنا بنجاة أبي من الغرق، واستقبلناه استقبال العائد من السفر والهارب من الموت، وعادت فيروز مع أخيها لبيتهم بعد أن تسكعوا في شوارع حلب، وانتهى الحال بأمنية بكاءً في سريرها كعادتها في كل مرة يشتري لها أبوها ملابس صبياني ويحرمها من الفساتين، أما الصول فرغلي فلم يتحمل صدمة رؤية جثة ابنه منتفخة من الغرق وظل يردد جملة «المركب بتغرق يا قبطان، دي آخرة خدمتي لبلدي.!! ده جزاء بطولاتي في الحروب يا مصر.!» وعندما صدر الحكم الأولي من محكمة الغردقة ببراءة رجل الأعمال عضو مجلس الشوري «ممدوح إسماعيل» صاحب العبارة والذي هرب إلى لندن فور غرقها وركب الطائرة من صالة كبار الزوار، فلم يتحمل الصول فرغلي صدمة الحكم وأضحى مريضًا عقليًا ثم جرفته الأيام ليصبح أحد مجاذيب حي حدائق الزيتون، فلم يدرك ما آلت إليه قضية العبارة للحكم غيابيًا على ممدوح إسماعيل بالسجن سبع سنوات، ولكنه بقي في لندن.

كل تلك الأحداث في لحظة واحدة لأماكن مختلفة، متناقضة المشاعر، وقتها أدركتُ أن الحياة لن تقف لي أو لغيري مهما حدث لنا، فعلينا أن نكمل المسير ولا نتوقف، وأكملت المسير. ومن هنا بداية الحكي..

(١)

علمونا في المدارس أن التاريخ يُكتب بفترات الحكام، لكن الشارع علمني أن لكل منا مفاتيح خاصة يرى التاريخ من خلالها، ومن يوم عملي في موقف الميكروباصات صار التاريخ محكومًا بالإجابة على سؤالين، السؤال الأول يأتي من الركاب «الأجرة بكام يا أسطى؟»، والسؤال الثاني من السائقين إلى البلطجية «الكارتة بكام يا باشا؟».

ولا أنسى أول مرة سُئلتُ فيها عن سعر الأجرة، في أول يوم لي بموقف الميكروباصات وبالتحديد في أول تحميلة للركاب في مارس ٢٠١٠ وأنا في الصف الثاني لكلية التجارة، وقتها أجبتُ على الراكب قائلًا «الأجرة ٧٥ قرشًا» وأثناء انطلاقي من الموقف لم يستوقفني «النجس» ولم يأخذ الكارتة وهو يخبط بيده على باب ميكروباصي قائلًا «سكتك سالكة» وفي نهاية اليوم فهمت معني كلمة البلطجي المسئول عن جمع الإتاوة المسماة (كارتة)، لصالح المسئول عن الموقف «كمال حمودة» عندما وجدت معظم السائقين يدفعون يوميًا إتاوة تزيد على خمسين جنيهًا وقد تزيد، على حسب عدد مرات تحميل الركاب، تعجبت حتى آلمني عقلي متسائلًا: كيف يخضع السائقون لدفع إتاوات تزيد عما يفيض لهم..!! لكن الإجابة أتت سريعة بصراخ أحد السائقين وهو يقفز عدة قفزاتٍ ويصرخ لنزيف فخذه إثر تلقيه ضربة من صبحي النجس بالمطواة، ولم يجرؤ أحد على إنقاذ السائق حتى بعد أن وقع أرضًا وظل يزحف على مؤخرته ابتعادًا عن النجس

وهو يقترب له أكثر قائلًا «عشان عديتهالك المرة إللي فاتت وخدت الكارتة ناقصة تيجي المرادي مش عايز تدفع خالص» فأجابه السائق وهو يرفع يده الملطخة بدمائه قائلًا «أقسم بالله أمي تعبت ووديتها المستشفى فدفعت كل اللي معايا، ده حتى استلفت عشان أحط بنزين»، فازداد غضب النجس وركل السائق في كتفه قائلًا «خلي أمك تنفعك، وحياة أمك ما هحلك غير لما تدفع، يا إما هسيب دمك يتصفى»، كل هذا وجموع السائقين يشاهدون في صمتٍ ولم يُهَمْهِمْ إلا بعض الركاب فكادت دمائي تفور من أنفي لشدة الغيظ فهمست لسائقٍ يقف جانبي «ده هيموته بجد..!!» وكانت إجابة السائق أكثر صدمة مما يحدث فقد قال «يستاهل.. مهو مش عايز يدفع..!!» ثم التفتُ لسائقٍ آخر يمسك سبحة يسبح عليها برعشة أصابع فاقتربت منه وجدته يتمتم «اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا» فسألته «هتدعي وإيدك متكتفه؟»، فنظر لي شزرًا وقال «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها»، لم أتمالك نفسي وتقدمت إليهما وكان السائق يصرخ قائلًا «والمصحف بكره هدفع الضِعف بس سيبني اشتغل النهارده» فركله النجس في جنبه قائلًا «أنت كمان هتحدد تدفع أمتى وكام..!!» لكني قاطعتهم مندفعًا قائلًا «يا كبير الواد هيموت»، فالتفت وهو يسحب شخيرًا عاليًا من أنفه قائلًا «مين الشبح اللي قلبه طاوعه ينطق..؟» وعندما استدار ووجدني المتكلم، قبض يده على المطواة أغلقها وجزَّ بغلٍ على أسنانه قائلًا «إدفن لسانك في بؤك، ولو اتكلمت كلمة هتصل بكبيرك وأعرفه إني هربيك، طالما من أول يوم مش هتحترم كبارات الموقف»، فمددت له يدي بخمسين جنيهًا وقلت «حقك عليا يا معلم»، فأخذ النقود أحرقها بولاعته ثم ضرب كفًا بكفٍ قائلًا «هرقدك جمبه لو نطقت كلمة تاني» ثم استدار لباقي السائقين منذرًا بأعلى صوته..

«الكارتة تتلم حالًا، كاملة، حتى اللي لسه ما اشتغلوش، ده لو عايزين أسيبه يكمل شغل» وقبل أن يهدأ لسانه من الجعير تحركت أيادي السائقين لجيوبهم ودفعوا الإتاوة كاملة، فتركهم النجس وعبر الطريق ليكمل تدخين الشيشة على المقهى، وأنا أرجمه بعيني، وبعد أن جلس وضع قدمًا على قدم ثم أشار لي بيده فتصنعت عدم رؤيته وخطوت إلى السائق المجروح فسمعت صوت النجس عاليًا يقول «يا أسطا نوح» فالتفتُ إليه فقال «تعلالي، عايزك» فأجبته بجعيرٍ أعلى «هروح المستشفى مع المعلم نخيط رجله، وبعدها أشوفك»، فأجابني «ما اسمهوش معلم، اسمه مره»، ولم أهتم برد فعله ثم قدتُ للسائق سيارته حتى المستشفى وطوال الطريق أسُب وألعن في النجس، فقال السائق «شكلك ليك ضهر تقيل أوي عشان كده النجس سابك..!! ده اللي أنت عملته كفيل يخليه يدبحك»، وقتها فهمت مكانة «أسامة بلدوزر» وهو البلطجي الذي أدخلني الموقف، وعندما وصلنا المقبرة الجماعية السابحة وسط مياه الصرف الصحي المسماة مستشفى المطرية جلست في الاستقبال جانب التليفزيون ودخل السائق للطوارئ، وكان المذيع في نشرة الأخبار يقول «ها قد وصل رئيسنا الحبيب محمد حسني مبارك، بعد رحلة علاجٍ في ألمانيا، وها هو الآن يهبط من الطائرة مع زوجته وأبنائه، سيداتي وسادتي إنها اللحظة التي تتشوق إليها الأعين، بوصول سيادة الرئيس بكامل القوى والعافية لأرض الوطن وجميع الوزراء في استقباله مع شيخ الأزهر وبابا الإسكندرية، والكل يعلم أن هناك الملايين الذين كانوا يرغبون في هذا الاستقبال، لكن الرئيس حسني مبارك لم يرض بأن يكون له أي استقبال شعبي، ولكن بالتأكيد تصل لسيادته مشاعركم بالحب والبهجة»، سألتُ نفسي وقتها: لماذا لا يتعالج الرئيس في المستشفيات الشعبية..!! وهل

حقًا هناك الملايين يتمنون استقبال الرئيس، ويتمنون له العافية..!!

وأثناء عودتنا شكرني السائق كثيرًا، وتعارفنا، ولم يتعجب كوني طالبًا جامعيًا لأنه حاصل على شهادة دبلوم صنايع ويعمل فني تكييف، ولزيادة الدخل يعمل وردية على الميكروباص، الذي دفع مقدمته واشتراه كالمعتاد بالتقسيط، ومن يومها بدأت صداقتي مع (خالد أبو شنب)، سألته «ساكن فين عشان أوصلك؟»، فأجابني «هروح الموقف اشتغل شوية»، فقلت له «يا عمنا روح ارتاح الشغل مش هيطير»، فضحك قائلًا «بس البيت هيجوع».. سَكَتُّ لحظات ثم سألته «إزاي سايبين النجس ياخد إتاوة كبيرة كده.!؟».

– حكم القوي

– بس السواقين أكتر من البلطجية

– عارف

– ولما عارف، ليه ما تتجمعوش ضدهم وتخرجوهم من الموقف..!!

– عشان إللي وراهم كمال حمودة

– مين.؟

– أمين الشرطة، إللي ماسك نقطة المرور إللي بعد الموقف

– يعني لما تبطلوا تدفعوا إتاوة للبطجية، أمين الشرطة هيعمل إي..!!

– هيمشيها ميري، ويبيعنا هدومنا، وهياخد مننا أضعاف إللي بندفعه كارتة، بالمناسبة اسمها كارتة مش إتاوة

– كارتة ولا إتاوة، المهم، ما يمشيها ميري، طالما رخصي سليمة يبقى أخاف من إيه؟

– متأكد إن رخصك سليمة..!!

- طبعًا

- بص يا سيدي،عربيات الموقف دي كلها مترخصة (رحلات)، ولا عربية مترخصة أجرة ولا أنت مرخص أجرة؟

- طبعا رحلات، ليه مجنون أنا عشان أشتري نمر عربية أجرة أغلي من تمن العربية..!!

- أديك قولت أهو، وبما إن الموقف كله مرخصها رحلات، يبقى أول تصبيحة بالميري إن يتعمل محضر «تحميل بأجر»، تاني محضر هيتعمل «موقف عشوائي».

ولا إنت ما تعرفش إن الموقف مش مترخص من المرور..!!

- مش فاهمها دي؟

- الحي والمرور محددين مكان للموقف ومرخصينه، بس إحنا مش بنحمل منه

- يعني قانونا إحنا واقفين في مكان غلط نحمل منه.!!

- شفت إزاي بقى؟

- ياعمنا بسيطة، نحمل من المكان إللي الحكومة محدداه وندب صباعنا في عين التخين

- مهو وقتها كمال زفت حمودة، هيمشيها ميري، لأنه المسئول عن الموقف القانوني

- يا دين النبي..!! يعني أجيلك يمين تجيلي شمال..!!

- معلش بقى أنت جديد وبكره تفهم وتتعود تسكت، عشان اللعبة مش صغيرة دي دولة لأن مرور القاهرة من زمان محدد عدد العربيات الأجرة في المحافظة، مثلا محدد ١٠ آلاف ميكروباص وقفلوا ترخيص الأجرة من زمان، وعدد السكان بيزيد فبقيت القاهرة أصلًا محتاجة مثلا ٤٠ ألف ميكروباص، تقوم الحكومة مخلية

الناس يرخصوا ميكروباصات رحلات ونقل عمال وده قانونًا ما ينفعش يحمل ركاب من الشارع،يا دوب يوصل موظفين للشركات أو طلبة فلما تلاقي ٣/ ٤ الميكروباصات اللي بتحمل من الشارع مترخصة رحلات يبقى تدفع كارتة وأنت ساكت، وما تتحمقش وتقولي أدب صباعي في عين التخين، لإنهم أجبروك تمشي غير قانوني عشان يسيطروا عليك بالقانون والبلطجة.

– بحاول أستوعب كلامك..!!

– مش مهم تستوعب، المهم تنفذ وإياك تفتكر إن آخر الخيط كمال حمودة، ده حتة أمين شرطة وشغال صبي لمعلمينه إللي بيخلوه يدفعنا الكارتة الحكومية بتاعة الموقف الرسمي، وعليها الكارتة العادية.

– بندفع للموقف الرسمي، عشان نحمل من الموقف العشوائي.

– المهم، حاول ما تقفش مع البلطجية كتير عشان لو قالوا لكمال عليك هيهريك مخالفات وكله بالقانون يا بتاع القانون، ويلا دوس بنزين وشد على الطريق يا أسطا، وصلنا بسرعة

وكانت هذه بداية دخولي الحلبة، وكان هذا بداية الصراع، فعندما عدت الموقف جاءني اتصال من «بلدوز «أمرني ألا أعترض على أي شيء بالموقف معللًا «خليك في حالك، ولا إنت مستسهل إنك بتدفع كارتة للحكومة بس، ومش بتدفع شلن لمعلمين الموقف؟». ومن وقتها لم أعترض على بلطجية الموقف ولم أتدخل فيما لا يخصني ولم يكن اعتراضي على خنوع السائقين وإنما على تبريرهم ما يحدث حتى أنهم لم ينكروا بقلوبهم بلطجية الإتاوة،وكانوا يبررون كل ما يحدث ليرضوا، فكان أقصى مقاومة إنكاري داخلي لكل ما يحدث وأنني لم أسمح يومًا للنجس أو لأي من رجاله بأن يتطاولوا عليَّ، وكان السبب الوحيد أنني في حماية بلطجي آخر.

ظللت أفكر كثيرًا في كلام بلدوزر بعد انتهاء مكالمتي معه حتى قطع تفكيري صراخ الصول فرغلي وهو يهرش ويحمل أكياسًا كثيرة ويقول «ادخل بيتك يا مواطن منك له، الإنجليز وصلوا وفي اشتباكات على أول الطريق، الجيش بس إللي يواجه، عاش جيش مصر العظيم" ثم جلس على الرصيف وهدأ انفعاله، ثم مدد جسده دقائق قليلة وقام منتفضًا يُوَلْوِلُ قائلًا «المركب بتغرق يا قبطان، يا قبطان عيالنا في المركب، الحق لازم يرجع إحنا مش حِمل لعنة الدم».

وتابعته حتى رن هاتفي لأجد أمي تطلب شراء بعض الأشياء وقت عودتي. ومن يومها تعلمت الدرس الأول..

في موقفنا لكي تحظى بالاحترام يجب أن تكون في حمى أحد البلطجية.

وفي نهاية اليوم ذهبت لصديق طفولتي «محمد عبدالناصر «وجلسنا أمام الصيدلية التي يعمل بها عامل توصيل طلبات، حكيت له عما دار اليوم وكنت مرهقًا من التفكير في كيفية الاستمرار في الموقف وسط البلطجية والسائقين الخانعين لقبضة بلطجة القانون وصديقي منصتٌ لي وهو يغسل الموتوسيكل ثم جاء رده «يا نوح حذرتك من الدخول في كار مش كارنا، مالها الشركة اللي كنت شغال فيها باحترامك ومواعيدك ثابتة وموظفين ثابتين بتوصلهم وبقوا أصحابك ومرتبك ثابت، تسيب كل ده وتروح وسط أحقر ناس في البلد، الشمامين والسرسجية..!! لما ده حالك أول يوم في الموقف أمال قدام هتعمل إي..!!»، فأجبته «استحالة أقبل نفسي موظف بمرتب ثابت، لو أنت زيي عندك طموح، وقتها هتفهم يعني إي مغامرة عشان تبقى رجل أعمال كبير عندك ملايين في البنك»، ضحك صديقي وعصر ماء الإسفنجة على يدي قائلا" فوق يا حبي، إنت

صاحي ولا بتحلم؟، يا نوح أنا مش بحبطك بس إنت مش شايف نفسك وإنت مشغل أغاني أجنبي أو فيروز وعمرو دياب وحاططلي كتاب على التابلوه، إنت كده بتقول لأولاد كارك إنك عيل توتو، يا إما تبقى من توبهم ولونهم يا إما تعيش الجو بتاعك في شركة خاصة».

فأجبته «بكرة تعرفوا إن عندي حق، لما تشوفوا شركة نوح للشحن الدولي، ويبقى عندي سفن شحن، بكرة تفهموا».

الشخص الوحيد الذي رأيت بعينيه بهجة رغم سواد الليل وأكدت لي أنني أنجزتُ شيئًا كبيرًا، هي جارتنا ريم، وجدتها أثناء عودتي ليلًا واقفة في شباك بيتها المقابل لبيتنا، سألتني «أخبار أول يوم في الموقف إي؟»،فأجبتها «اكتشفت إن الموقف بحر مليان قروش، وبإذن الله هبقى من أكبر المعلمين فيه»، ففرحت وكأني أعمل لحسابها.

وكان منطقيًا أن أخفي ما حدث اليوم على أسرتي، فأبي وأمي أشد المعارضين لدخولي الموقف وأخي يرى الحياة من منظور كلية الهندسة التي يدرس بها، ويطمح للتوظيف في شركة مستقرةٍ يطالع الدنيا من خلف مكتب.

خبأتُ آمالي وآلامي، فلن يصدقني أحدٌ إلا بعد تحقيق أحلامي، وقتها سيؤمنون بقدراتي.

(٢)

ومرت فترة قليلة، تغيرت فيها إجابتي على الركاب عندما سألتني إحداهن «بكام الأجرة؟ «فأجبتها «بجنيه»، فلاحقتني الفتاة «أنا لسه ركباها إمبارح بـ ٧٥ قرشًا «وهاج الركاب كلٌ يرمي تعليقًا وكأني المسئول عن غلاء الأسعار، وغلاء البنزين والسولار، وانفعلت على الركاب الذين وضعوني موضع المساءلة وكأنهم يرون فساد المسئولين متجسدًا فيَّ، فقلت لهم «الكلام ده تقولوه للحكومة، ومن غير كلام كتير إللي مش عاجبه الأجرة يتفضل ينزل «ثم أوقفتُ ميكروباصي بهدوءٍ على جانب الطريق ولم يتردد شابان من الركاب ونزلا، فناديت على ركابٍ غيرهما ثم بدأت الرحلة.

دون أن أسمح لشيء أن يعكر مزاجي أو يمنعني من أغنية «عاشقة الورد»، وعندما أتتني الأجرة من الركاب وضعتها أسفل الكتاب الذي أبهرتني مقدمته «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

وطوال الطريق أتأمل الإمبراطورية التي بدأت أفهمها وأتأملها، إنها إمبراطورية الموقف فهي ليست مجرد ساحة في ميدان حلمية الزيتون تقف فيها الميكروباصات لتحمل الركاب وتنقلهم لأماكن مختلفة.

إنها إمبراطورية عميقة تنقسم لعدة طبقات، طبقة المعلمين وهم أصحاب الميكروباصات إنهم السبب الرئيسي للأموال وهم رجالٌ يظهرون ساعاتٍ قليلة ليقبضوا الإيراد اليومي من السائقين ويثبتوا تواجدهم كي لا تنساهم أعين الطبقة المهروسة.

ثم تأتي طبقة الكرتجية وهم المسجلون خطر وأقل واحدٍ منهم في جسدة آثار جرحين لشجارٍ بسلاحٍ أبيض ووظيفتهم الظاهرية تنظيم

الموقف وتحميل الركاب لكن وظيفتهم الحقيقية هي جمع الإتاوة من الميكروباصات لصالح كبيرهم وهو النجس، وبيع المخدرات وتعاطيها.

ثم تأتي طبقة المطحونين الأميين وهم السائقون الذي يقبضون يوميتهم من المعلمين وهم عشوائيون في كلامهم وتفكيرهم وفي قيادتهم للعربات وحتى في أغانيهم فتجدهم يسمعون مالا يفهمه الناس الطبيعية، أغانيهم تعتمد على الإزعاج غير المفهوم وسكرانٍ لا يفهم ما يقوله سموه مطربًا، لكن قلوبهم صافية ولهم في الشهامة باعٌ كبير وهذا ما يجعل خضوعهم سهل لأي متحدثٍ لبق أو متحدثٍ شرس، أو من يملك قوت يومهم.

والطبقة الأخيرة جديدة على الموقف وظهرت في بداية الألفينات وهي طبقة المتعلمين الذين اشتروا ميكروباصات بالتقسيط ويعملون عليها لأنهم لم يجدوا وظيفة بشهادتهم، فليسوا معلمين ولا سائقين إنها طبقة مهجنة ومعظمها من جيلي، يكدون طوال اليوم ليسددوا أقساط سياراتهم ويدفعون الإتاوة ثم يأخذون فتات ثمار جهدهم ليبقوا على قيد الحياة، ومشكلتهم الأساسية في تناقض حياتهم فبعد أن تعلموا في المدارس والمعاهد والجامعات نزلوا ساحة ليست بساحتهم وتخالطوا مع أشخاصٍ ما كان لهم أن يخالطوهم، فلا هم احتفظوا بتعليمهم وثقافتهم ولا هم انخرطوا في عشوائية الموقف حتى أن السائقين والكرتجية يرونهم «عيال طرية «وفي نفس اللحظة تراهم عائلاتهم ومعارفهم منحطين لدخولهم كار ليس من مستواهم، ويبقى التناقض والانفصام هما المسيطران على هذا الطبقة المظلومة.

وللموقف قوة خفية تسيطر عليه دون أن تُرى، ونتجنب استحضارها كي لا تزيد الخراب خرابًا، إنه كمال حمودة، أمين الشرطة المسئول عن الموقف والذي تؤول إليه الإتاوات بعد جمعها فيعطي للنجس نصيبه ونصيب رجاله.

(٣)

وفي الجامعة لم أكن مستوعبًا همس الشباب باحتمالية قيام ثورة في القريب العاجل، كانت حلمًا، وأخيرًا، تحقق، وفي الثامن والعشرين من يناير ٢٠١١ قبل صلاة الجمعة وبينما الموقف خالٍ من الركاب، وعلى غير العادة لم يظهر منذ الصباح أمين الشرطة كمال حمودة، وجميع السائقين مجتمعون في انتظار الرزق. تجسد الحلم آتيًا من بعيدٍ فخرج جميع السائقين والمعلمين والبلطجية أمام الموقف لمشاهدة جموع الثائرين يهتفون، «الشعب يريد إسقاط النظام»، فانتفض المجذوب من نومه مهللًا رافعًا قبضتيه فكان أكثرنا فرحًا وحيوية حد القفز والرقص،وانطلق مع الثائرين يهتف بأعلى صوته ويصرخ «يسقط خنفس الخائن»، «يسقط الإنجليز»، «المركب بتغرق يا قبطان». ووقف البلطجية درعًا أمام الموقف لحماية السيارات، وكانت ملامحنا تتراوح بين الفرح والدهشة لكني لم أفهم الحزن على ملامح الشيخ عسران فاقتربتُ منه سألته «مالك يا شيخنا؟» فأجاب بوخمٍ «لا يصح الخروج على الحاكم، والدين ضد الثورات لأنها فتنة»، فأجبته:

– على فكرة قادة أعظم ثورات الدنيا، هم الأنبياء

– هذا فهم خاطئ للدين

– ربنا أرسل الأنبياء لتحرير الناس من الظلم، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد..

ثم تركته واندفعتُ مع بعض السائقين نهتف «الشعب يريد إسقاط

النظام «حتى وصلنا ميدان التحرير، فكانت جمعة الغضب،وعندما قررت العودة للبيت ليلًا حاولت اصطحاب المجذوب معي فأبي، وقال «عمري ما أرجع من الجبهة، أخيرًا رجعنا نحارب الاحتلال من تاني «فعدت وحدي، وأنا أحلم بحبيبتي مصر دولة عظمي بلا فسادٍ وبلا محسوبية وبلا ظلمٍ للفقراء، واتسع صدري وتنفستُ حرية، وعندما انتشرت الثورة في ربوع معشوقتي مصر وبات الشعب لا يهاب الموت في سبيل الحرية، انطلقتُ للموقف ووقفت أهتف وحدي عاليًا «يسقط البلطجية»، «من النهاردة ما فيش كارتة «ولم تمضِ لحظات وتجمع السائقون حولي يهتفون فاختفي البلطجية، وبقينا نهتف حتى اتفقنا أننا لن ندفع إتاوات بعد اليوم، لن ندفع إلا حق وطننا علينا وهي الضرائب الرسمية المتمثلة في «كارتة التحميل بأجر».

واقترح خالد أبو شنب أن نذهب لتاجر السيارات نطلب منه إيقاف دفع الأقساط إلى أن تتحسن أحوال البلد دون أن يرفع دعاوى قضائية ضدنا في البنك، وسكت الآخرون فقطع السكوت هتاف الشيخ عسران قائلًا «الله أكبر، إن الله معنا»، فضاق صدري رغم حلاوة هتافاته، والتف الناس حوله حملوه على الأكتاف فازداد هتافًا حتى احمر وجهه وهو يقبض على السبحة في يده، وانطلق بمظاهرة حول الموقف، ثم توجهوا لتاجر السيارات تحت قيادة الشيخ عسران،وعلت الشعارات الدينية، وبقي الشيخ عسران من يومها على الأكتاف.

ومن يومها تعلمتُ أن أقصى درجات الحماقة، هي اتباع من يصبغ كلامه بالدين دون استشارة عقولنا، لقد عاصرتُ أقوامًا إن قيل لهم «قال الله احرقوا أنفسكم «لأحرقوها ضاحكين راضين.

وأشرقت مصر بصدق ثوارها، ونزلنا الشوارع ننظفها ونطلي الأرصفة على حسابنا الشخصي، قد كنا نقف في منتصف الطرقات نجمع جنيهًا من المارة لنشتري أدوات النظافة والطلاء، وبعض اللمبات لإنارة الشوارع الصغيرة، وتضاعفت طاقتنا حتى ابتسمت الشوارع.

وبعد أيامٍ افتقد أبي المجذوب فطلب مني أن نذهب لنأتي به ورافقنا أخي وعندما وصلنا التحرير بحثنا عنه حتى وجدناه يطوف بين الخيام باسمًا يقول (أيها الشعب، لا تنسوا أنه في عام ١٩٥٣ بعد نجاح ثورة يوليو، ذهب الرئيس محمد نجيب لأداء فريضة الحج، فلم يستقبله ملك السعودية، الملك عبدالعزيز آل سعود، وتحجج أنه مريض، فذهب نجيب إلى قصره وقال له «أعرف أن صلتك قوية بالملك فاروق، لكننا قمنا بثورة الجيش لنزيل الفساد من مصر، وليس من هدفي تصدير الثورة إليكم كما قيل أو إلى أي بلدٍ عربي، إننا نحترم كل النظم العربية، ونؤمن أن ما ينفع لبلدٍ لا ينفع بلدًا آخر «وقتها ابتسم الملك وتحسنت علاقتهما) فقال أخي مازحًا «يعني ما حبكتش تجيب غير سيرة السعودية..!! حرام عليك ده أنا هسافرها آكل عيش» فضحكنا جميعًا، فلطم المجذوب وجه أخي وظل يصرخ قائلًا «ابني غرق وهو راجع من السعودية، بعد ما كنا بنبعتلهم كسوة الكعبة أيام الملك فاروق ونعمل تكية للحجاج، بقينا نشحت ونبعت ولادنا يشتغلوا هناك، وكله بسبب حكم العسكر، يسقط يسقط حكم العسكر».

وقضينا يومًا ممتعًا بميدان التحرير، ميدان الثورة، وعدنا بالمجذوب غصبًا عنه، وحماه أبي ليلًا بمساعدة أحد جيراننا وهذبا شعره ونظفاه وتركاه ببيته.

وما كان يحزنني أنه في الوقت الذي بعت الميكروباص السبعة

راكب واشتريت ميكروباص ١٤ راكبًا وقررت أن أخرج من طبقة السائقين إلى طبقة المعلمين،بأن أستأجر سائقًا على عربتي ليتقاسم معي اليوم، فأعمل صباحًا ويكمل هو مساءً لأفسح لنفسي وقتًا للتدريب في مكتب محاسب قانوني، لأجمع بين التعامل مع الشارع والمكاتب.

ومن أروع انتصاراتي الشخصية أن تشجع صديقي محمد عبدالناصر لدخول الموقف تحت مسئوليتي والعمل تحت إدارتي، لن أنسى قوله لي «أنا اتعلمت منك إزاي أحلم، وأكافح وأصبر وما أستناش تشجيع من حد، فخور بك يا صديقي».

من عارضوني بالأمس صاروا اليوم تابعين لي.

وعن متعة أول يوم أدخل البنك لأفتح حسابًا جاريًا تضاف فوائده يوميًا وأودع فيه الإيراد يوميًا وفي آخر الشهر أسحب مبلغًا لسداد القسط، فأكون قد استفدتُ بأموالي قبل دفعها وأخذت فوائد بدلًا من ركنها على الرف.

وعندما تكرر ذهابي يوميًا للإيداع سألني موظف البنك متعجبًا «أستاذ نوح حضرتك شغال إيه؟ فأجبته واستفضتُ شرحًا، حتى توهجت عيناه طموحًا وتفاؤلًا.

وفي هذا الوقت المفعم بآمال الشعب وطموحاته، قرر أخي السفر للعمل بالسعودية، وحاولت إقناعه بالبقاء لإعمار وطننا، لكنه كان يقول "عشان تبقى بطل لازم يبقى جيبك مليان، وأنا عايز أشتغل وأتجوز ومعنديش وقت للبطولة والثورة»، وظل يبحث عن وظيفة بالسعودية لمدة عامٍ كامل، وأخيرًا، وجد عملًا في الغربة وبدأ تجهيز أوراق السفر.

كنتُ غاضبًا من حماقة أخي في اختياره بأن تكون حياته سعيًا خلف مرتبٍ مضمون ليتزوج ويحيا حياة تقليدية كالبهائم، برغم أننا في وقت

نري ابتسامة مصر واضحة وتقول لنا أبدعوا في كل شيء وأعيدوا إلى مجدي، وكما تفخرون بأجدادكم كونوا فخرًا لأحفادكم، ونداء مصر يناغم آذاني ويزيدني طاقة وحماسة، وأحلامي لا تجعلني أنام، وكيف لنا النوم ولدينا أحلام حقيقية! إنني أحب رائحة الشوارع وقت الشروق وقد اختلطت حبات الندي بالثري فشكلوا رائحة اسميها «رائحة الرزق» حتى صارت بيني وبين الشوارع حالة عشقٍ صباحية، وكلما استنشقتُ رائحة الرزق ترنم قلبي بخواطرٍ تنعشني، قائلًا..

كبرتِ.
ولسه بشوفك بنوتة صغيرة
تفتح الشباك وتفرح.. لما الهوا يطير شعرها
ولا عمرها هتجرح.. وتغمض عيونها في ضحكها
تلغوص إديها بالمونيكير.. وفي رجلها شبشب كبير
وتقول: أنا نفسي.. أكسب لعبة من بيبسي
وتفرح أوي باليوم الجديد.. مع إن ماعندهاش مواعيد
وفي رمضان تفطر الضهر
مع إنها بتستني المسحراتي يمر
مهو كل همها.. يقول اسمها
تعرفي.
مهما تكبري بتزيد طفولتك
ومهما تبعدي، بتقربي، لأني نَفْسِك
وفي أي وقت وأي عصر
هتفضلي في قلبي مصر
هتفضلي في قلبي مصر

(٤)

«بسم الله.. الله أكبر.. بسم الله.. بسم الله، بسم الله.. أذن وكبر بسم الله».

تكبيرات الجنود وقت عبور قناة السويس في حرب أكتوبر ١٩٧٣ يتغني بها المجذوب دومًا وهو يفرش الحصرأمام المسجد قبل صلاة الجمعة، عادة أساسية في مسجد حينا منذ سنواتٍ طويلة يواظب عليها المجذوب، وبعد الصلاة يجمع الحصر ويدخلها المسجد ثم يقف أمام بابه يكرر هتاف الجنود «بسم الله.. الله أكبر».

وعن أول جمعة يخطبها الشيخ عسران، ألهب عقول المصلين بصوته الحماسي وأدائه القيادي كانت خطبته عن أهمية المساجد في حياتنا، وأنها لا تقتصر على الصلاة فقط، إنما الواجب أن تشمل جميع أمور الحياة وتبحث عن حلول لمشاكل الناس اليومية أيًا كان دينهم، وأن هجر المساجد دمار للمجتمع وهدم لبنيانه الأخلاقي، ثم إنساب كلامه لأهمية اختيار إمامٍ صالحٍ يطهر العقول من فسادها ويزيل من القلوب رانها، وأنه يجبً أن يكوًن الإمام ابنًا للثورة ليتماشى فكره مع ما نريده لحياتنا الجديدة.

ولمجرد الانتهاء من الصلاة قام أحد السائقين الذين يعملون على سيارة الشيخ عسران فأمسك الميكرفون وأشاد بخطبة شيخه وتمني أن يكون الإمام الدائم للمسجد، فقام باقي سائقي الشيخ عسران وكبروا على اقتراح صاحبهم فانتشر حماسهم بين المصلين

الذين لم يهدأوا من لهيب الخطبة، ومن يومها صار الشيخ عسران إمامًا للمسجد الذي كان إمامه رجلٌ تحايل على المعاش وأحال المصلين للنوم في جميع خطبه الماضية، لقد كان كل شيء خادمًا لعسران.

وكالعادة تجمعنا أثناء الخروج من الصلاة أنا وبعض أقاربي وأصحابي ووقفنا أسفل بيتنا، فسأل صديقي «محمد عبدالناصر «: لو حذفنا الجمل الدينية من كلام الشيخ عسران، تفتكروا هيفضل مظهره إنه حكيم وخبير بكل حاجة في الحياة.؟ ولا هو حافظ شوية تجارب وبيسمعهالنا، وبينقل اقتباسات دينية بدون وعي..!!

فاجبته «تفتكر كل الناس بيسألوا نفسهم سؤالك ده.؟»، فقطع كلامنا أحمد ابن خالتي قائلًا «افتكر إني جايبلكم خبر هيفرحكم جدا، أنا نويت أخطب زميلتي في الشغل «هللنا له فرحًا، وقال محمد عبدالناصر «قلبك بينقح عليك، ومش قادر تفضلوا زمايل.!! «وتعالت ضحكاتنا، فقال أحمد «المهم، عايزين نجمع عدد حلو ونعمل جمعية وأقبضها أول واحد عشان أتجوز في الإنجاز».

لاقت الفكرة قبولًا بيننا واتفقنا أن ميعاد القبض لكلٍ منا حسب احتياجة، فكان أحمد الدور الأول لتسهيل زواجه، وأنا الدور الثاني لأني أحلم بشراء ميكروباص آخر، ومع الجمعية سأدفع المقدمة بسهولة وأسدد الأقساط على مراحل، وفي الشهر الثالث يقبض صديقي محمد عبدالناصر، ومن بعدنا تسعة أدوار لباقي معارفنا.ثم اتسعت فصارت عددًا كبيرًا.

لكن أبي عارضني بقوةٍ قائلًا «جمعية إيه اللي تدخلها وأنت عليك كل شهر قسط قاطم وسطك؟ لما تخلص أقساط الميكروباص إبقى أدخل جمعية».

فأجبته «مهو مش هعيش كل همي لقمة عيش، صبرك يا حج

بكره تفتخر بيا وأنا عندي ملايين وتحت إيدي شركات فيها آلاف الشباب»، فنظر أبي بشفقة قائلًا «مشكلتك بتحلم بره طبقتنا، يا ابني إفهم أبوك يا دوب لبان مش وزير»، فضحكت قائلا

– أنا لو مكانك كان هيبقى أول هدف ليا إن المحل يبقى ملكي مش إيجار، بعدها يبقى عندي مصنع ألبان وأوزع لكل المحافظات، طيب والله بزعل كل ما افتكر إن محلك إيجار

– القرشين إللي حوشتهم من السعودية، كان قدامي اختيارين أشتري الشقة أو المحل، وأديني معيشكم في شقة ملك يا زبالة، ومعلمكم أحسن تعليم ومش حارمكم من حاجة.

– محدش ينكر إنك أجدع أب، بس بكلمك بيزنس بعيد عن الحنية

– بكره تفهم الحياة أكتر وتعرف تمامك، فبلاش تجازف بكل فلوسك عشان لو وقعت تتسند

– أبوياااا، أبوس إيدك شجعني وإدعيلي، بلاش إحباط

– لما تتجوز هتفهم وهتنسى أحلامك، وتتلخم في سعر البامبرز وطلبات البيت

– طظ في الجواز

وهنا خلافي الدائم مع فكر أبي التقليدي، لا يحب المغامرات ولا مضاربات التجارة، يريد الحياة روتينية وأقصى ما يسعي إليه أن يكفي بيته مصاريفه، لكني عكسه تمامًا أريد أن أمتلك الملايين ويصبح لدي مشاريع كبري، لذا لم أتناقش معه طويلًا تجنبًا للمشاجرة، ونفذت ما أريد كما فعلت من قبل حين قررت دخول الموقف، ودخلته دون علمه، بسبب معارضته أيضًا، وها هو الآن فخورٌ بتوسع رأس مالي.

وبينما الخلاف قائم بيننا طرقت الأفراح باب شقتنا ففتحتُ

لأجد جارتنا الحجة حبيبة ومعها ابنتها ريم يحملون لنا نصف تورتة وزجاجة كبيرة من المياه الغازية احتفالًا بنجاح ريم في الثانوية العامة، فرحنا بفرحتهم وحضنت أمي ريم وباركهم أبي، ثم قالت الحجة حبيبة «أنا جيالك تعقل المجنونة دي يا نوح، معقول بعد المذاكرة والدروس الخصوصية الحمد لله ربنا كرمنا ومجموعها ٩٩٪ وبدل ما تدخل كلية طب ولا صيدلة وتبقى دكتورة أد الدنيا، عايزه تدخل كلية حقوق.!! عايزاك تعقلها يا نوح، دي فقعتلي مرارتي».

فبدأت كلامي لأفقع باقي أعضاء خالتي حبيبة، لقد كنت متفقًا مع تفكير ريم ودعمتها بأن المجموع مجرد نجاح في مرحلة الثانوية ولا يتوقف عليه دخول كلية لطالما مجموعها يسع جميع الكليات، والنجاح والتميز موجود بجميع التخصصات المهم أن يحب الإنسان مجاله ويبدع فيه وطالما ريم تتمنى أن تكون محامية فهذا حقها.

لمجرد الانتهاء من كلامي قالت الحجة حبيبة «أنت خسارة فيك تاكل من التورتة» وتعالت ضحكات ريم سعادة بوقوفي في صفها، خاصة أمها تثق برأيي منذ كنت صغيرًا في الصف الخامس الابتدائي وبدأت أصحطب ريم إلى المدرسة وهي في الصف الأول.

فكنت المسئول عنها في المدرسة وفي حارتنا وفي ذهابنا دكان أبي قبل المدرسة لنأخذ منه الخبز الطازج الذي يصله من المخبز وقت الشروق، لتعد لنا أمهاتنا طعاما نأخذه المدرسة. لقد كبرتِ يا ريم وستدخلين الجامعة، سوف تصير أختي محامية كبيرة.

(٥)

انتهينا من تحزيم حقائب سفر أخي، في ديسمبر ٢٠١٢ وانطلقنا للمطار وكان الطريق مزدحمًا بنصائح الأبوين أكثر من زحام السيارات ومع أن مشاعر الآباء والأمهات متشابهة منذ بداية الخليقة خاصة في لحظة وداع أولادهم، لكن توديع أبي كان مختلفًا، كونه أبًا نجا من الغرق فهو رجلٌ يستشعر السفر والوداع جيدًا، ويدرك الاشتياق في لحظات النجاة، لذا كان آخر كلامه لأخي «ربنا ينجيك، ويكتبلك الرزق الواسع،وترجعلنا مجبور الخاطر بألف سلامة».

وفارقنا أخي لبوابة ميزان الحقائب، وعند خروجنا من المطار قطعت طريقنا ببطء سيدة عجوز يبدو عليها بقايا الثراء وحسن العائلة رغم شرودها وتوهانها في الوجوه بحثًا عن الأمان كحمامة مهاجرة ضلت طريقها بسبب بنادق الصيادين ورصاصٍ فرق دفء سربها. فتاهت وظلت ترفرف حتى تعبت فهبطت بمكانٍ توسمت فيه الخير لكثرة الماء فيه، فقاطعتنا قائلة «من فضلكم، ممكن خدمة؟»، فأجابها أبي «تحت أمرك يا أمي»، ثم دار بينهما حوار

– بدنا مطرح نبات فيه ويكون رخيص، يعني لوكاندة مش فندق

– يا أهلًا يا أهلًا، دماغنا تشيلكم قبل الأرض، وبيوتنا تشيلكم قبل الفنادق

– هاد عشمنا بالمصريين، هالحين تركنا سوريا وعارفين مصر بلدنا الثاني

– لأ مش بلدكم الثاني، ده بلدكم الأولاني، والله يا أمي أكتر شعبين بحبهم السوريين والعراقيين

– الله يكرمك يا ابني

– النهارده تنورينا في بيتنا ترتاحي، ومن بكره أي حاجة عيزاها عيوني ليكي

– الله يكرمك يا أصيل، لكن معي صبية بنت ابني، وما أحب نضيق عليكم

تدخلت أمي «صفية «بلهجة شعبية تبرز دفء الوطن قائلة «البيت يساع من الحبايب ألف، شاوريلي بس على بنوتك الحلوة، خلينا نرحب بيها».

ردت العجوز «الله يكرمكم يا أهل الكرم، هاد فيروز هناك»، وأشارت على فتاة تجلس ليس بعيدًا، تحتضن حقيبة تتوارى بها من العالم ويكأنها حصن منيع، ورأسها ملفوف بشاشٍ أبيض به بقعة دماء وينسدل شعرها البني من تحته، وترتدي بالطو له جيبان متهتكان، ورقة وجهها يُستَحرَمُ فيه الحزن لكنها حزينة.

اقتربنا لها جميعًا وهي لم تلمحنا فبصرها مرتكز في الأرض فتقدمتنا أمي في خطواتٍ سريعةٍ ثم انحنت لفيروز وأوقفتها في حضنٍ عفويٍ غير مكترثة بسقوط الحقيبة على الأرض.

جميلون البسطاء لا يعيقون حياتهم بجمود الإتيكيت، ولا يوقفون مناهل مشاعرهم حتى لو نتج عنها حركاتٍ عشوائية لأجسادهم.

في طريقنا للبيت أعجِبتُ بأبي، فكلامه أصيل لمهاجرٍ عرف معني الوطن من تذوقه قسوة الغربة، وعرف معني الحياة من تذوقه قبضة الموت، ولم يسب السفاح الذي هدم بنيان سوريا وأحرق الأخضر

وبخر الأنهار، كان كلامه منصبًا في حب السوريين وذكرياته معهم أثناء رحلة الحج، ونسب للشعب السوري مساعدة سوريا للمصريين في حرب أكتوبر ولم ينسبها للحكام والساسة، أشعرنا بكم الجمائل السورية عليه شخصيًا ولم يمهل فرصة للتفكير إلا وقد وجدت العجوز وحفيدتها طاولة العشاء ممتلئة بخيرات الله، فقد أخرجت أمي أثمن ما خزنته في الثلاجة وأشعلت الشواء والتحمير ففاح بيتنا بشهية الروائح المتناغمة مع صوت أمي بكلمات رقراقة.

وكان يشغل بالي، ما الذي يدور الآن بعقل الفتاة اللاجئة؟ إنها مسكينة وحتى الآن لم تنطق ولم تتفاعل مع الكلام وأحيانًا تتصنع شيئًا من التبسم المجروح، فما أقسى الزمن حين تدور رحاياه على أولاد العز فيحولهم لاجئين، ومهما احتفت بهم أحضان البلاد سيظل إحساسهم باللجوء شيء لا يوصف.

وبعد العشاء، أحضرت أمي الشاي وجاءت بملابسٍ للجدة «سندس» وحفيدتها «فيروز» «والله دول عبايتين جداد لسه ما لبستهمش، دي هتيجي مقاسك بالظبط يا ماما سندس، لكن أنت يا فيروز سوفيفة فهتبقي واسعة عليكي شويتين وحقك عليا، الصباح رباح وهجيبلك أحلي هدمة» هكذا قالت أمي لهم، ثم دخلت غرفتي رتبتها لهم وأدخلتهم بترحابٍ حيوي.

وكان نصيبي النوم أرضًا في غرفة أبي وأمي، «عارف يا صايع» هكذا بدأ أبي الكلام معي وهو يفرش الغطاء على أمي ثم جلس جوارها على السرير وخبطني بقدمه في قدمي، وأكمل كلامه «لو حسيت منك بنظرة زفرة للغلبانة إللي جوا دي هنفخك، إياك شيطانك يبصبصلك وتستغل ضعفها»، فضحكت عاليًا وأجبته ساخرًا «ماشي يا حج هولاكو، محسسني إني أبو لهب ليه بس.!!».

وبعد دخول أبي تحت الغطاء دفع أمي بمؤخرته قائلًا «إنزاحي شوية يا ولية، خليني أركز في تربية الصايع ابنك، بص بقى هتعمل فيها أبولهب أو أبو بكر المهم خليك فاكر كلامي عشان مافيهوش أي هزار، وحتى لو كملت معاك بفيلم هندي وحبيت تتجوزها مثلًا، وقتها مش هقبل جوازتها تبقي أقل من جوازة بنتي».

وتعالت ضحكاتنا فجلست من نومتي أسعل ثم قلت «ياحج هولاكو أنت افترضت جريمة وبتحاكمني عليها؟»، لكن أمي لم تمهل ضحكنا واستدارت فانجذبت البطانية في حركة حلزونية لملاصقتها عباءتها القطيفة، ثم مدت يدها للياقة أبي من الخلف، وضغطت على رقبته قائلة «بتقول مش هتقبل جوازتها تبقى أقل من جوازة بنتك؟ يا راجل؟ بنتك مين؟ هو أنت متجوز عليا وكمان مخلف؟ قر واعترف، ليلتك كوبيا؟»، فدفع أبي يدها عنه قائلًا «يا ولية بقول كأنها بنتي، الله يهديكي ويهدك، اتخمدي بدل ما أنيمك على الأرض جمب ابنك».

لكن أمي اقتربت لأذنه هامسة «يؤبرني هالحمش»، فانتفض أبي مسرعًا قائلًا «اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، الله يخرب بيت المسلسلات المدبلجة، أنا إللي هنام على الأرض جمب الصايع ابنك».

وبدأ الهدوء ينساب والأنفاس بدأت تسترخي، فقطع الصمت اتصال أخي طمأننا على وصوله السعودية وأنه في طريقه للفندق، وعندما أغلق اكتشفنا أننا نسيناه منذ التقينا اللاجئين، فقالت أمي «حسبي الله ونعم الوكيل في الظالم إللي دمر حياة الناس»، وقال أبي «الله يكون في عون الغلابة إللي جوه، لمجرد إني أفكر في إحساسهم، قلبي بيوجعني أوي، يا رب صبرهم وعوضهم خير».

وكان هذا أجمل ديسمبر يمر بحياتي، ومن وقتها بدأت قياس تطوراتي من خلاله، إنه ديسمبر الجميل.

(٦)

وعن أول يومٍ تحمل فيه لقب لاجئ، لم أتخيل يومًا أن تسبق اسمي كلمة لاجئة فأصبح بين الناس «اللاجئة فيروز».

أيا وطني، ما أقساك على حناجرٍ بُحَتْ بالنشيد الوطني.

أيا وطني، كيف ترمي حناجرنا برصاصٍ أسرع من صوتنا بهتاف نشيدك الوطني..!!

أين ملامح حلب..!!

أين سيارات أبي وأملاكه..!! وأين أبي أصلًا..!!

وأين الأمنيات..!! وأين أمي التي علمتني كيف تكون الأماني..!!

وأين أخي آسر.. !! أول وأصدق صديقٌ لي منذ عرفتُ الحياة.

وأين حبيبي هيثم..!! وأين وأين وأين..!!

قد اغتالت الحرب أين، حتى صارت أين تبحث عن إجابة وتقول «أين»..!!

لماذا ذهبت مع جدتي للطبيب في هذا اليوم.!؟

ليتنا لم نذهب وبقينا مع الأحبة نستقبل قذائف الأسد، ليتنا استشهدنا معهم ولم يسكن الأسي ذكرياتنا.

صبايا سوريا صرن سبايا حربٍ لكل ناعقٍ فاجر..!!

من أين ظهرت تلك الأعداد المهولة من الشبيحة..!! أين خبأهم الوطن طيلة هذا العمر..!!

أين النوم..!! متي يأتي..!!

كيف يفكر فيَّ ذلك الشاب المصري القابع خلف الجدران..!! هل بداخله شبيح يريد أن ينقض عليَّ..!! هل حقًا طيبٌ كما يبدو..!!

ولمجرد أن خطر ببالي وجود الشاب وأبوه خلف الجدران، قمتُ تجاه باب الغرفة الموصد بالمفتاح، وبما تبقى لي من قوة دفعتُ المكتب خلف الباب ليقوي غلقه، ثم استدرت للفراش واستلقيت جوار جدتي الغارقة في النوم، وعندما سكن جسدي بدأ رأسي يؤلمني حتى سحبني النوم لقيعانه.

وفي نومي، داهمني عقلي الباطن بما رآه في سوريا على هيئة كوابيس

قذائف تمطرها علينا طائرات حماة الديار، أطفال تركض، صراخ، عواجيز تلهث من الدخان صراخ، يدٌ تحاول الإمساك بأي شيء ثابت، صراخ، الشبيحة يسحلون البنات من أرجلهم، غبار يتساقط فوق النائمين فيستيقظوا شهداء القصف، صراخ، حجر في يد مليئة بالدماء، صراخ، صراخ، صراخ.

ولم أشعر بنفسي إلا عندما طرقت الحجة صفية باب الغرفة من الخارج، فانتبهت لأجدني في حجر جدتي سندس، ثم انتبهت للحديث القائم بين الحجة صفية وجدتي

- ماما سندس طمنيني مالكم؟
- هلا فيروز اتفزعت من الكوابيس، راح تكون بخير وتهدأ
- افتحوا أساعدكم
- مو قادرة أقوم، دقايق وكل شيء يبقى تمام، كملي نوم يا حبيبتي

وأحكمت جدتي حضنها ومسحت عرقي، وظلت تقرأ آياتٍ من القرآن حتى هدأت ونمت، ولم أستيقظ إلا عندما سمعت صوتًا

أعرف لحنه، فتركتُ بصري يتجول بالغرفة فوجدت ضوءًا بسيطًا يتسرب من الشباك المغلق، ثم دققت أكثر في الصوت فوجدته بائع الخضروات ينادي «حمرا وجامدة يا أوطة، بصل الخزين يا بصل، للتحمير يا بطاطس».

قمت إلى الشباك فتحته واستقبلت ضوء النهار، فوجدت البائع يسحب حمارًا يجر عربة الخضروات.

وبدأتُ أستكشفُ وطني الجديد، المتلخص في حارة شعبية بها بقايا زينة رمضان، وسيدة عجوز تشرب الشاي وتجلس أمام بيتها المكتوب عليه «حج مبرور وذنب مغفور»، ويعلو الكلام رسمة طائرة تقشر جناحاها.

وعلى ناصية الحارة المتفرعة من شارع واسع، مكتوب «ارفع راسك فوق أنت مصري»، تمعنتُ في الجملة وسألتُ نفسي:

(هل يحقُ لي أن أرفع رأسي بينكم..!! أم وئِدَتْ كرامتي بلا رجعة..!!)

فقطع تركيزي مرور البائع بيني وبين الكلام، فتراجعت داخل الغرفة، وجلست جوار جدتي النائمة، وانتظرتها تستيقظ بعض الوقت، ثم أمسكت كتفها أيقظتها لتدخلني الحمام لأن بطني يؤلمني، فاستيقظت جدتي وسبقتها للباب أزحت المكتب من خلفه ثم تركتها تتقدمني في الخروج ولاصقت كتفها أرى العالم من خلفه كآخر حصنٍ تبقى لي، فنادت جدتي «يا أهل البيت، يا حجة صفية»، فلاحقنا صوت الحجة صفية قائلة «اتفضلي يا ماما».

ولمجرد خروجنا من الغرفة إلى الصالة وجدنا الحجة صفية جالسة على الأريكة تقطع خضروات في إناء بحجرها، رأتنا فتهلل وجهها قائلة «يا صباح الورد والفيروز».

هززت رأسي من خلف كتف جدتي، وردت جدتي «يسعد صباحك يا طيبة»، فلم أمهل جدتي إتمام كلماتها وغمزتها في ظهرها، فأكملت جدتي «هستأذنك يا أم نوح، فيروز تدخل الحمام»، فأجابتها الحجة صفية وهي تقف واضعة الخضار على المنضدة «بيتكم ومطرحكم، والله أزعل لو قولتي استأذنك تاني، ماحدش بيستأذن في ملكه».

فأجابتها جدتي «الله يكرمك»، ثم تحركنا للحمام، فقامت الحجة صفية إلى المطبخ، كنتُ خائفة من خلع ملابسي بالكامل مع أني أريد الاستحمام بشكلٍ ضروري، فطمأنتني جدتي وشجعتني على الاستحمام.

وعندما خرجنا إلى الصالة وجدنا الحجة صفية قد وضعت على المنضدة إفطارًا مصريًا أصيلًا متعدد الأصناف من فول وفلافل وبيض مقلي وجبن وسلطة وبطاطا محمرة وشاي.

جلسنا نأكل وتبادلت جدتي مع صفية حوارًا لكني لم أكن منتبهة لهما، في بادئ الأمر كنت أفكر في ضيق الشقة ومتى نستقل بحالنا في شقة خاصة بعد أن اكتشفت ضيق شقتهم فهي مكونة من غرفتين صغيرتين وصالة صغيرة أيضًا بالإضافة للحمام والمطبخ، وطلاء جدرانهم منحول بتيار السنين، يبدو أنهم أسرة متوسطة أو أقل.

ثم سافرت رأسي لأنقاض سوريا، ولن أنتبه إلا وجدتي تمسك يدي قائلة «ردي على خالتك «فإنتبهت لهم «نعم؟»، فكررت الجدة «خالتك بتكلمك».

– آسفة يا خالة، ما انتبهت

– ولا يهمك يا حبيبتي، المهم بقى تحبي تاكلي إيه على الغداء، أكلة سمك، ولا خضار ولحمة

– كل شيء من إيدك حلو يا خالة

– والله أنت إللي حلوة وتتاكلي أصلًا، بس اختاري

وقعت عيني على إناء الخضار جوار الخالة صفية فهممت أن أتكلم فلاحقتني قائلة «السمك في التلاجة وكده كده بقطع خضار أسويه نص سوا وأخزنة، فاهمة عنيكي».

تبسمت لها كأول ابتسامة صادقة لي بمصر، بسبب طريقة كلام الخالة الشعبية ملتوية اللسان ومتوجة ببعض غمزات عينها، فقلت لها «نجرب السمك من إيدك الحلوة».

وأكملت جدتي «طالما قولتي إننا أهل، لازم أقف معاكي في المطبخ».

ثم قامت جدتي مع الخالة صفية يحملان أطباق الإفطار إلى المطبخ، وبدأ الإعداد للغداء.

وبقيت جالسة على الأريكة المجاورة لباب الشقة، ضامة يدي على صدري ملقية رأسي على الحائط متأملة السقف، لا أشعر بالوقت، ولا أعرف كم مضى على حالي هذا، وسكوني. حتى قطع وجومي صوت خطواتٍ تقترب من الباب فاستيقظت هواجسي السمعية فجأة لتحيطني أصوات صريخ، وقذائف، والخطوات تقترب فتزيدني انقباضًا، وعيناي تتسعان في متاهة، وخطوات الشبيحة تقترب أكثر فأكثر.

ولا أعرف أين أختبئ حتى سمعت احتكاك حديدٍ بحديدْ، فضممت نفسي بيداي وبلعت ريقي محاولة أن أصرخ. لكن هواجسي السمعية أقوى وأبشع وألجم من مقاومتي.

وبدأت أسمع صوت استدارة وشخللة حديد، وفجأة، فتح الباب أحد الشبيحة، فانتفضت قبل أن يلمحني، وانطلقت راكضة مسرعة، فتعرقلت قدمي بطرف السجادة فوقعت أرضًا.

(٧)

كنتُ عائدًا من الموقف متعبًا ولمجرد أن فتحتُ الباب وجدت فيروز تقع فهرولت إليها لأسندها ومددت لها يدي، فضربتني بقدمها في أنفي ففقدت توازني وأسندت يداي على الحائط، فقد صارت رؤيتي للأشياء مهزوزة متداخلة، وأذناي تسمعان طنينًا منبعثًا من انفجار صراخ فيروز.

وهرولت أمي والجدة من المطبخ إلينا، وفيروز ما زالت تصرخ وقد تكورت في الأرض متلاصقة بالمنضدة التي عليها التلفاز، فجلست الجدة احتضنتها وربتت على ظهرها، وأحضرت أمي زجاجة مياه تبخ على وجه فيروز لتفيقها من نوبتها.

فأنزلت يدي من على أنفي فوجدتها مخضبة بالدماء وسالت دموعي من الضربة.

أهذه أول ملامسةٍ بيننا يا فيروز..!!

لم تدركِ وأنتِ تفرين مني أنني سأكون وطنكِ الأمين يومًا ما.

ثم دخلتُ الحمام أطالعُ في المرآة وجهي الذي تورم، ومازالت الدماء تسيل من أنفي، وجميع خلايا جسدي تصرخ: تبًا لحكامٍ خانوا أمانة الله في شعوبهم.

وساندت أمي مع الجدة فيروز لغرفتها وهي ترتعش وتسعل وأنفاسها تصارعها وقد تلون وجهها للأحمر الباهت تمامًا مثل سوريا.

وبعد وقتٍ بدأت تهدأ في غروبٍ لعينيها وبطء لأنفاسها وقوعًا

في نوم مؤلم، فخرجت أمي وتركت الجدة محتضنة فيروز، وأغلقت باب الغرفة ببطء خوفًا أن تقلق نومها فلم تجدني في الصالة فدخلت إلى الغرفة الأخرى لتجدني مستلقيًا على السرير فقالت «حصل إيه يا ابني؟»

– ما فيش بفتح الباب لقيتها وقعت، مديت لها إيدي راحت ضرباني برجلها في مناخيري

– مسكينة، شكل نفسيتها متدمرة أوي

– الله يسامحها، دوختني جامد

فاقتربت أمي جلست جواري قائلة «سلامتك يا حبيبي البت لخمتني عنك».

– حصل خير

– الله..!! أنت إيه جابك بدري كده.؟

– نسيت فلوس القسط فجيت آخدها عشان أوديها المعرض، بس بعد اللي حصل هنام.

– نوم الهنا، بس من دلوقتي إياك تفتح الباب بالمفتاح، خبط وإحنا اللي نفتحلك.

– تمام، إطفي النور وإنتي خارجة، وماحدش يصحيني خالص.

و خرجت أمي إلى المطبخ تكمل طهي الطعام، وبعد دقائق تبعتها الجدة قائلة

«حقك عليا من إللي حصل، بس إنتي مش متخيلة الظروف إللي مرت بيها فيروز». التفتت أمي تصد كلامًا أوجعها قائلة «بالله عليكي يا ماما، ما تقوليش كلام كده، والله فيروز زي بنتي والله يكون في عونها، ويعدي الفترة دي على خير، وتتأقلم مع الحياة الجديدة».

– يارب، فيروز دي شاطرة وذكية وقلبها طيب

– خليكي جمبها عشان ما تتفزعش

– بصي يا بنتي وإياكِ تفهميني غلط، إنتوا أهل كرم وبيتكم حساه بيتي، لكن ضروري نشوف سكن وحدينا أنا وفيروز، عشان حالتها

– فهماكِ، بإذن الله نوح وأبوه هيدوروا على سكن وكلها كام يوم ويلاقوا

– للأسف مش هينفع فيروز تبات من النهاردة في بيت فيه حد غيري، لحد ما تتحسن

– نوح كان طالب مني قهوة هعملهاله يشربها وينزل يلف على السماسرة.

بس بشرط، يكون سكنكم قريب من هنا، إحنا أهل ولازم نفضل جيران.

(٨)

يا أيها الشهم الصلد الحنون، لا ولن أنسى لكَ هذا اليوم، حين استسلمت لإيقاظ أمك لك، وشربت القهوة التي لم تطلبها، لأجلي، ونزلتُ تتوكأ في الشوارع بحثًا عن سماسرة الحي حتى وجدت أفضل وأقرب سكن لي ولجدتي، وعدت منتصف الليل بوجهٍ زاد تورمًا.

وطرقت الباب عدة طرقات فانتعش قلبي وقام أبوك لفتح الباب، وفي أول وهلةٍ من دخولك رأيتك أخي آسر ثم تلاشى طيفه فرأيتك أنت يا نوح، فاستقبلتك عيني وتعلقتُ بك من لحظتها، وتأسفتْ روحي لك كثيرًا، وعانقتكُ حتى التأمت جراحي.

ويا لعظمة رجولة عينيك التي لم تلتفت ناحيتي خوفًا من أن تحمل لي لومًا يوجعني، وحملت حقائبنا ونزلت السلالم بخطواتٍ متعبة، وقبل أن تضع الحقائب في سيارتك، استوقفتك الأصالة الدمشقية في صوت جدتي قائلة:

«الله يحميك لشبابك يا حبيبي، وما يتعبك أبدًا، لكن والله العظيم مش هتحرك من الشارع قبل ما تقولي بكم إيجار السكن؟».

التفتَ إلينا يا نوح بنظرةٍ أبويه تستنكر على أولادك رفضهم مصروف الصباح وقلت «والله عيب يا حجة»، فأكملت جدتي «يا بني الحمد لله معايا فلوس وكمان معي إسورتان ذهب ومش هتحرك من الشارع إلا لو قلت بكام السكن وكمان تاخد تمنه، ولا يرضيك نبات على الرصيف..!!؟».

أتعرف يا نوحي، وددتُ لحظتها تقبيل رأسك، فقط، لعمق نظراتك الأبوية، ولأنك أصيلٌ، فهمت كرامة جدتي وعزة أنفس السوريين، فأخبرتها بالمبلغ بكل وضوح وقَبِلْتَهُ منها بنظراتٍ لا تُهين، بل زادت جدتي فخرًا وزادتني تعلقًا بك رغم ما أنا فيه، وفي لحظتها تجسد فيكَ أخي، فاطمأن قلبي أكثر، وتمنيتُ الغوص بحضنك وإخبارك بكل ما حدث.

ولمجرد أن أدرتَ محرك السيارة، خِفتُ أن توصلنا مكان بعيد عن بيتك، خِفْتُ من خسارة وطني مرة أخري، لكن خوفي زال بعد أقل من خمس دقائق.

حين أوصلتنا بيتنا الجديد الذي يبعد عن بيتك بشارعٍ واحد.

وحين صعدنا وجدت أنني أستطيع رؤية بيتك من الشرفة فارتاح قلبي رغم هواجسي وما أنا فيه ارتحت لأني وجدت أخًا جديدًا، وأبًا شهمًا، وأسرة فيها الأمان فريضة.

(٩)

«بسم الله.. الله أكبر.. بسم الله.. بسم الله، بسم الله.. أذن وكبر بسم الله».

تهليلات المجذوب بداية يوم جمعة جديدة، فبدأ الشيخ عسران خطبة الجمعة بجملةٍ جذبتني كَلي إليه حيث قال «سنتحدث اليوم عن مهلكات الأمة، وهي بدعٌ صغيرةٌ الحجم كبيرةٌ التأثير، كإطالة الثياب، وحلق اللحية، ولعب الطاولة، ومصافحة النساء والعياذ بالله».

فقدتُ سماع الخطيب بسبب تفكيري في تفاهة تفكيره، لو أن ما قاله صحيح، ومهلكات الأمة أسبابها التي قالها، فمن الواضح أننا أمة كرتونية كأفلام الأطفال.

وبعد الصلاة سألته «يا شيخنا، تفتكر الأهم نكلم الناس عن أمور بسيطة، ولا نحثهم على العمل وتعمير بلدهم، ونديهم حلول لمشاكلهم اليومية بأسلوب يفهمونه؟».

وكانت إجابته صادمة أكثر من خطبته حيث قال «كلامك متفق مع خطبة النهاردة». فسألته «يعني لو الناس قصرت هدومها وبطلت تلعب طاولة، هنبقى دولة عظمى وقتها..!!» فأجابني مستخفًا بي «من تكلم في غير فنه أتي بالعجائب».

وهذا حال الشيخ عسران، يحفظ كلامًا دسمًا ويلقيه في غير موضعه، والمحزن أن له أتباعًا يرونه المخلص لطريق النجاة، ويكأنه نبي هذا الزمان.

وعندما عدتُ البيت وجدت أمي لم تطبخ غداءً فسألتها «ما عملتيش أكل ليه؟»، فأجابتني «أبوك لقاني مصدعة فقال لي ما أطبخش»، فغمزتُ لها بعيني مدللًا قائلًا «يا سيدي ع الحب، بس أنا جعان يا بشر»، وفي لحظتها خرج أبي من غرفته مقاطعًا «انزل زي الحلوين اشتري أكل جاهز وعلى حسابك كمان».

إنني أحب حب أبي لأمي، حبٌ صافٍ لا شوائب فيه، حبٌ تلقائي لا تكلف فيه، وأعلم أني سأكون مثله في بيتي فالحب بالتعلم كأي مهارة.

(١٠)

الوقت لا يمر وكل شيء مر، إن كانت تلك حالة من حالات الحياة فكيف الموت..!!

أن يتخدر إدراكك فلا تشعر بمرور النهار وانسدال الليل، أن تنسى الطعام والشراب، وعيناك تلتهمان الفراغ ويكأنهما ينظران عالمًا آخر.

وبين الحين والحين تنتابك هلاوسٌ سمعية وبصرية من شظايا العقل الباطن المقذوف بدمار سوريا، فتصرخ ثم تنهار ولا تهدأ إلا في حضن جدتك التي من المفترض أنها مسئولة منك. لذا.. كتب لي الطبيب على مهدئات وأخبرني أنها مسألة وقت وسأتعافى من صدمات الدمار. وبقيت على حالي شهرين.

يااااه يا جدتي، بالأمس القريب كنت أمدك بحيوية الشباب والآن تمدينني بالحياة، لم أنس كلماتك التي تشربتها روحي وجسدي وأنا في حضنك، ويكأن مسامات جسدي كاملة تحولت آذان صاغية لكلماتك حين قلتِ: «هاد قدرنا، ولا أحن علينا من الله، هو أدرى بحكمته من إللي صار وإللي هيصير، لو فهمنا أننا مجرد بذور وضعها الله في أرضه،لنثمر في أي مكان وتحت أي ظروف، حتى لو اقتلعتنا رياح الظلم وطاحت بنا في آخر الأرض، لنثمر أينما غرسنا الله، ولازم نضل نقاوم بشار لحد آخر نفس، استسلامك للمصايب هو الهدف الوحيد لبشار وأمثاله، والقرار بيدك يا فيروز».

ألهمتني جدتي التعافي مما أنا فيه، وكلماتها المتكررة لها تأثير يفوق

المدافع، وأخي البطل نوح، الذي ما تأخر علينا حين تهاتفه جدتي لأخذنا للطبيب، وخالتي صفية التي ما فوتت يومًا إلا وجاءت إلينا باكرًا تأخذنا للتسوق وشراء الخضروات من سوق شعبي قريب.

مرت أسابيع، وبدأت أفيق، وأتعلق أكثر بأخي نوح الذي أناديه داخلي «نوحي».

تعودت على مواعيده، حيث يستقبل الطريق في السادسة صباحًا بوجه يفيض حماسًا وكفاحًا، يمشي الشارع الممتد بين بيتنا وبيته فيمر أمام بيتي ثم يقطع الطريق العمومي إلى سيارته المركونة ويقودها، ثم يعود الساعة الثالثة عصرًا دون السيارة، فإن كانت جدتي طلبت منه شيئًا مر علينا وإن لم تطلب يكمل إلى بيته، وفي تمام الساعة الرابعة والنصف يظهر في الشارع كأبهى ما يجب أن يكون عليه موظفو البنوك، ببدلة راقية وفي يده حقيبة تزيده أهمية فيمشي حتى الشارع العمومي ويقف منتظرًا مرور أتوبيس النقل العام.

ومع كل يوم يزيد تعلقي به، إن له طلة أقوى من صدماتي التي تجعلني أنهار نفسيًا، وابتسامته أقوى من ذكرياتي تحت القصف، أنتظر مروره لأشعر بالأمان، حتى بقيت أخاف النظر من الشرفة في غير مواعيد مروره.

إنني أرى جميع الناس حولي شبيحة تريد نهشي ما دمت لست بينهم، أيا نوحي، أنت الوطن. وددت لو كنت سوريًا وأحببتك بهيام المراهقات، أو أكون مصرية تروق لك، أو حتى نبقى كما نحن أنا سورية وأنت مصري لكن نلتقي قبل الدمار وأحبك وأتشبث بك تحت القصف.

لكني مهما أحببتك الآن سنبقى أخوة، فخانة الحب والزواج محروقة بقلبي ومدمرة بكل أنواع القذائف، انهارت كل الرجال بعين

قلبي وكرهت الزواج، ولن أبحث عنه، فقط سأبحث عن قضية أقوى وهدف أسمى أحققه للإنسانية لمقاومة الظلم، لمقاومة بشار.

أتراني أنسى جثث أبي وأمي وأخي..!! أتراني أنسى دُميتي المخضبة بدماء أبي..!!

أتراني أنسى حيوانية هيثم..!! وأي الناس هيثم..!! حتى لو نسيته، فقد حرق خانة الحب بقلبي.

يا نوحي، يكفيني تعلقًا بكَ كأبٍ وأخٍ وسندٍ أتقوي به.

ولن أنسى يوم عدت تتفقد حالنا فأخبرتك جدتي أنني تعافيت كثيرًا لكني لا زلت أبكي في المساء وكان اقتراحك أن نذهب لشاطئ نقيم أيامًا للاسترخاء، فقاطعتك جدتي قائلة «علاجها مو استرخاء، علاجها العمل وإن طاقتها تخلص وتتمني النوم، بدي شغلة لفيروز يا نوح»، لم يمهلها نوحي ووقف مطلقًا صوته المبهج «فيروز حالًا تلبسي وتيجي»، كنت بالغرفة أسترق السمع، ففرحت باسمي من صوته، وتوترت في ارتداء ملابسي، كنت منصاعة لنغمة صوته الأجش، وخرجت بعد دقائق، فأخذني لدكان أبيه. ففرح أبوه جدًا، وأخذ يعطيني المهام، ومن لحظتها بدأت العمل في دكان ألبان الإخلاص.

مر شهر أستيقظ باكرًا لأطمئن بمرور نوحي، ثم أعد الإفطار لجدتي وأنزل للعمل مع أطيب من قابلت وأكثر الناس فكاهة وبساطة رغم عمق عقله، علمني الحج محمد صناعة الزبادي وبعض الحلوي المصرية.

وبدأت أتعافى أكثر وقل بكائي ليلًا، قَلَتْ هواجسي بكثرة الصلاة وذكر الله بالقلب والعقل قبل اللسان، فصار نومي هادئًا.

أربعة أشهر تتلخص مصر لي في أسرة نوح، دفء الوطن فيهم كان مداد حياتي.

أزهرتني نظرات نوح لأني لم أجد فيها معنى لجوئي، لم ينظر

بشفقة أو طمع، كانت نظراته كنظرات أهلي بسوريا قبل القصف، كانت نظراته لي تماثل نظراته للمصريين، لذا استقامت نفسي في عيونه واستمددت كرامتي منها، لقد أحسست منه كمالي.

لكن نوح سافر أسبوعًا في رحلة عمل، وأنا الآن أفتقده جدًا، كنت أتمنى أن يخبرني بالتفاصيل قبل سفره، كنت أتمنى أن يعود لي يوميًا يقص ما دار في يومه، ويحاكيني أحلامه التي تملأ عينيه، ويقصص عليَّ ألاعيب طموحاته، وخططه.

أفتقدك جدًا، فهل تفكر بي.؟ هل افتقدتَ عبورَكَ أسفل شرفتي متظاهرًا أنك لا تبالي بوجودي؟ مدعيًا كذبًا يملأ عينيك بأنك لا تعرف وجودي يوميًا للقياكَ بعيني؟؟

وذات يوم بعد عودتي من العمل أثناء سفرك، وقفت في الشرفة فخطفني صوتٌ آتٍ من بعيدٍ فنظرتُ لمصدره، فوجدتُ رجلًا عجوزًا أشعثَ أغبر، جلده متشحم لفرط إتساخه، وشعره يغطي رقبته ويرتدي طربوشًا، ويحمل أكياسًا كثيرة وبيده كتابٌ وبيده الأخري صفارة يصدر صفيرًا مزعجًا ثم يقول «انتباه يا عسكري منك له.. عمَّر، شد أجزاء، اشتبك.. النصر أو الشهادة»، ثم التفت للمارة وازاد صراخًا «واقفين ليه..!! الإنجليز حواليكم خدوا ساتر.. يا مجانين المدرعات حواليكم وأنتو واقفين عادي..!! أنا خايف عليكم، أنا مسئول عن حمايتكم، يا مجانين، يا مجانين هتموتوا، المركب بتغرق يا قبطان، الناس بتموت وإحنا مش حمل لعنة الدم».

بقيت أراقب ذلك المجذوب، وتمنيت أن أنزل إليه وأعرف حكايته، من المؤكد وراءه قصص وألغاز، وفي اليوم التالي سألت الحج محمد عن المجذوب فشردت عينه ثم قال «ده مش مجنون عادي، ده الصول محمد فرغلي من سن أبويا الله يرحمه تقريبًا مواليد سنة ١٩٣٥

وخدم في الجيش فترة كبيرة وحارب الإنجليز، وشارك في ثورة ٥٢ وفي النكسة وفي حرب أكتوبر، راجل تاريخه مش سهل، ده غير إنه خدم فترة كبيرة مع محمد نجيب».

فقاطعت الحج محمد وسألته «مين محمد نجيب.؟ «فأجابني «ده أول رئيس لمصر، وليه بطولات كتير وقصته مهمة جدا في التاريخ». فسألته «أمال الصول محمد فرغلي حصله إيه؟» فحكي لي الحج محمد قصة غرق العبارة وكيف تحول الصول إلى مجذوب، وتعلقه بقصة محمد نجيب، وأن أفضل كتاب كان يحبه بعد القرآن هو كتاب «كنت رئيسًا لمصر «وهو المذكرات الشخصية لمحمد نجيب، وقد كان هذا الكتاب آخر ما قرأ الصول قبل أن يفقد عقله أثناء سفره إلى سفاجا كان يقرأ الكتاب طوال الطريق، لذا فإن كثيرًا ما يقول اقتباسات منه، ثم سألني الحج محمد: هل مرَّ الصول صباحا من أمام الدكان، فأجبته لا، فأنا أول مرة أراه كان بالأمس، فسكت الحج محمد وقال: يبقى أكيد في شقته استني هروح أجيبه نديله أي أكل،وذهب إليه وعاد به بعد ما يقرب الربع ساعة، ثم أعطاه طعامًا وصببت له الشاي فأكل على الرصيف أمام الدكان، فناديته وأنا في الدكان خائفة «يا حضرة الصول، تعرف إيه عن محمد نجيب؟» فترك الأكل ووقف انتباه ثم أدى التحية العسكرية وقال «اللواء أركان حرب محمد نجيب، من أفضل ما أنجبت مصر، تنازل عن رتبة الفريق حتى لا يكلف الدولة أموالًا كثيرة، ومن أشهر أقواله في كتاب كنت رئيسًا لمصر «أنا والديموقراطية انتهينا في لحظة واحدة»، وأهم ما قاله «حاولت إبعاد الجيش عن الحياة المدنية وعودته إلى الثكنات وترك البلد للسياسيين، لكن كان الوقت قد فات، فقد اخترق العسكريون كل المجالات، وصبغوا المصالح الحكومية باللون الكاكي».

اشتدت عصبية المجذوب وعلا صوته عندما مرَّ أحد الناس من أمامه فقال له «إزاي بتعدي يا عسكري وأنا بقول البيان الحربي، أنت عسكري غير منضبط ومذنب «ثم التقط حجرًا من الأرض وجرى خلف الشاب حتى اختفيا.

فكرتُ كثيرًا في قصة المجذوب، وأحسست بيني وبينه علاقة خفية، ربما كان من المحتمل أن أصبح مثله عندما شاهدتُ سوريا تحت القصف، وعاودتني الأفكار والكوابيس.

مرَّ الأسبوع مخيفًا، أتشبث بأبيك يا نوح وأذهب للعمل باكرًا قبل موعد نزولك وأعود بعد موعد رجوعك، وبقيت هكذا أسبوعًا، حتى علمت بعودتك، علمت وحدي.

قد كنتُ نائمة فاستيقظت وأنا واثقة أن نوح يركن سيارته وبعد دقائق سيعبر الطريق ليمر أسفل شرفتي، وقد كان، دقائقٌ ومرَّ وهو ينظر لأعلى، وكأنه أيضًا يعلم أني أنتظره.

ثم أشار بيده سلامًا فأعاد لي السلام والهدوء والسكينة، تبسمت وبقيت على حالي حتى اختفى، يا نوحي إن غيابك وضح لي ضخامة اشتياقي لك،ولكن من ذا الذي يحبُ متسولة أسماها العالم» لاجئة «ليخفف تأثير الكلمة عليها، ولكني أحبك، وكان الغد يوم إجازتي، استيقظت باكرًا أنتظر مرورك فلم تمر، كنت أتمني النزول إليك وإخبارك بكل ما غاب عنك أسبوعًا.

كيف بدأت أغار عليه.!! أريد أن أسأله كيف كانت رحلته؟ ومع من؟ وماذا أكل؟ وظللت أدور في غرفتي أقرض أظافري، أفكر، وأفكر، أريد أن أهديه شيئًا.

وبينما أفكر وأفكر، اشتقت لأكلات سوريا، فقررت أن أصنع له أكلًا مختلفًا أستعيد به روح أزقة دمشق ونواصي حلب، وانتظرت

مرور خالتي صفية علينا لنزول السوق وعندما أتت وجدتني في كامل استعدادي للنزول، وتسوقنا واشتريت لوازم خطتي وعدت أشع نشاطًا.

فصنعت مخبوزات وحلوى، وطلبت من جدتي أن تهاتف نوح ليمر علينا وقت عودته من العمل ليأخذ علبة ملأتها طعامًا دمشقيًا لأسرته، وتظاهرت بكوني لا أعرف أنه لم ينزل عمله اليوم، فهاتفت جدتي نوح، وقد كان، جاء إلينا وكنت أنتظره في الشرفة، فانطلقت خلف باب الشقة أنتظر خبطاته، وفتحت قلبي قبل الباب، استقبلته وودت لو استقبلته بحضني قبل كلماتي أشتاق لاحتضان أبي فور عودته من الخارج، وأنت أبي يا نوح.

فتحت وبقيت صامتة لا أتكلم وهو معطي الباب ظهره كما عودنا فلا يستدير إلا بعد أن نأذن له، وبقيت على حالي أنظر لمنكبيه حتى قال «هتسيبوني واقف كده ولا إيه؟».

فأجبته «ما عندنا شيء نتصدق به يا مسكين»، فضحك وأضحكني وهو يستدير مادًا يده قائلًا «حاجة لله يا محسنين»، وأدخلته وناديت جدتي ولم أمهله الجلوس فانطلقت للمطبخ أحضر علبة الطعام قدمتها له، فلم ينتظر ذهاب البيت وفتحها وتذوقها فصفق قائلا «الله الله»، فتجسد أخي آسر وهو يأكل ثم تلاشى طيفه عندما قال نوح «إزاي طول المدة دي ما دوقتينيش طبيخك؟»

فقالت جدتي «كله بأوانه يا نوح»، وضحكنا جميعًا، ثم أخبرته «لعلمك أحسن هواية بحبها هي الطبخ والحلويات، كل الأشكال والألوان»، فسكت نوح يستطعم ويبلع ثم قال: «أنت من النهاردة مش هتشتغلي مع أبويا، أنت تعملي أكل سوري وده هيتباع حلو أوي، وهيبقى موضة جديدة ومش هنلاحق على المبيعات».

كنتُ فرحة بكلامه ومتوترة حتى كدت أهرس قدمي اليسري بسبب ضغطي عليها بقدمي اليمني أريد أن أهرب لحظاتٍ من أمامه لأتنفس وأعود فقلت

– رح أطلِع أكل للبسة.

– جارتكم اسمها مسخرة

– أنه جارة؟

– بسة.

– حقيقي بتمزح، هاد مو جارة.

– أمزح مين يا حج أبو لهب، أمال مين بسة دي؟

– بسة.. بسة.. حيوان بينِو

– اااااه.. قطة يعني.؟ وكمان بتنِو، يا فرحة القطط بيكي.

من يومك يا نوح، تضحكني حتى أخر على ركبتي وأفقد أنفاسي.

أيضًا يعجبني في نوح أنه يمتلك تجارة الأفكار، ويري الأشياء من زاوية الربح والخسارة، وقد كان،طلب مني صناعة عينات من جميع الأكل السوري والحلويات، وكانت جدتي المستشارة الفنية، ثم أخذ العينات وطاف بها على محلات الحلوي والمخابز والمطاعم وأعطاهم مجانًا.

وعندما سألته لماذا لا نستأجر دكانًا نبيع فيه منتجاتنا السورية طالما تتنبأ لها بزبائن كثيرة فأجابني «لما يبقى لينا محل مش هنبيع كتير، لأن لسه الناس ما جربتناش وهناخد وقت طويل عقبال ما نربي زبون، لكن لما نوزع للمحلات ويبقى لينا في كل خرابة عفريت، هننتشر أكتر ويبقى الطلب علينا زي الرز، وقتها بقي نأجر محل»، تركته ينهي كلامه، ثم سألته «إي معني في كل خرابة عفريت؟»، فضحك حتى قهقه وقال «يبقى لينا في كل حتة زبون».

(١١)

ما كان أمامي فرصة لأفكر في غير راحتكِ يا فيروز.

لطالما تهوين صناعة الطعام والحلوي وقد لمحت بعينيك فرحة لأول مرة أراها مذ التقيتك فكان عليَّ أن أقرر فورًا امتهانك ما يرضيكِ حتى لو لم يباع منه شيء، ورغم حبي للتجارة لكني لست متأكدًا من نجاح أكلاتك السورية كما بينتُ لكِ، لكني سأحاول وسأجعله مشروعي ولن أتنازل عن نجاحه والربح منه، وربما أبدأ سوقًا جديدة تنتشر بين جميع طبقات الشعب فنحن شعب يحب الموضة، يعشق كل ما هو جديد ويجري خلفه حتى لو كان أقل من المعتاد، وتلك لعبتي، فكما ربحت الكثير من تجارة ملصقات ثورية ابتدعتها على شكل لوحات السيارات وكتبت عليها (٢٥ ي ن ا ي ر)، وأنفقت الكثير في البداية على لصقها في مختلف الشوارع المحيطة بميدان التحرير، ها أنا بدأت في توزيع أكلاتك مجانًا على المطاعم المحيطة بالموقف وفي أماكن تجمع الطلاب أمام المدارس، وكنت أعود إليك بثمنهم ثم أقتسم معكِ الربح لأرى في عينيكِ ابتسامة انتصار، وبعد فترة بدأ الطلب من المحلات، ففرحت جدًا وتمنيت لو أخبرتك الحقيقة لكني خِفت، خشيت أن تظنيني مشفقًا عليكِ وأريدُ تعويضك عما أنتِ فيه، وحاشا لله ما كان هذا دافعي، إنما رأيت فيك طفلتي المسئولة مني والواجب عليَّ مساعدتها، وعندما تنضج ستدرك أني عبرتُ لها عن حبي بأفعال الرجال لا بكلمات الصبية.

يا فيروز.. لقد نسيتُ همومي لمجرد محاولتي إخراجك من همومك، ونسيتُ الدعاء لنفسي من كثرة الدعاء لكِ، فياليت قومي يحطمون بؤسهم بصدق الابتسامة لغيرهم وتفريج همه.

يا من تبحثين عن وطن، أنتِ إنسانٌ به أوطان وقلما نجد في وطنٍ إنسان.

ولن أنسى عندما اشتريت الفرن، وجئت به إليك فاستقبلتني جدتك، وهللت فرحًا وظلت تكبر وتقول» حساكم هتنجحوا في مشروعكم وتبقوا من كبارات البلد».

وما أسعدني أكثر وقوفك في كبرياء تسألي «بكم اشتريت هاد الفرن؟»، فأجبتك «إجري إعملي لي شاي»، وآهٍ على قلبي وأنا أراكِ تضعين يدك على خصرك وترفعين حاجبيك قائلة «وريني الفاتورة الأول»، فأخرجتُ الفاتورة قائلًا «مش هفتح الكارتونة قبل ما تعملي شاي «وعندما أحضرتِ الشاي وضعتيه دون عزومة وأنت تائهة في فرحتك أثناء فتح الفرن، فسألتك «سكرتي الشاي؟»، وآهٍ على قلبي وهو يرى نظرات تعجبكِ من كلامي قائلة «كيف أسكر الشاي.!!»، فأمسكتُ السكر قائلًا «يا كتكوتة ده اسمه سكر وبنحطه في الشاي، ولما نحطه يبقى إحنا كده سكرنا الشاي»،وآهٍ وألف آهٍ على قلبي وهو يرى ضحكتك البريئة تتعالى قائلة

– اسمها.. حليت الشاي.

– لأ، حليت معناها فكيت أو خلعت، مثلًا أقول «حليت موتور العربية «يعني خلعته

– عندنا بسوريا «سكرت «معناها «أغلقت»، لما أقول سكرت الباب معناها أغلقت الباب

– اههه، أتاريكي ما استوعبتيش لما بقول سكرت الشاي اههههه

– إحنا نتفق اتفاق

- يلا بينا
- نتكلم بالفصحي
- فكرة حلوة، بس بشرط
- أشرط يا باشا
- أوبا..! المصريون علموكي تقولي يا باشا.
- البركة فيك يا باشا، إيه شرطك؟
- نتكلم بالفصحي وقت الروقان، مش أبقى مشغول وتتصلي تقوليلي «أهلًا بك أيها الرجل».
- محسسني ليه إني هذيع نشرة أخبار..!

فخورٌ بابنتي التي ترعرعت، ولا أخفيكِ سرًا زاد جمالك، الفرحة تضيئك جمالًا، وتقاسمنا ثمن الفرن، وتقاسمنا سعادتنا فتضاعفت.

يومها لم أنم من كثرة تذكري ملامحك في فراشي، لم أكن أريد اغتيال تجليك في خيالي بنومي ومرت الأيام، وزادت المبيعات، وتكاثرت الطلبات حتى قللت تواجدي على خط سيري بالميكروباص، نجحت فكرة الأكلات السورية، انتصرنا يا فيروز.

حتى أنني لم أتحمس من اتصال أحمد ابن خالتي يخبرني أنه أجل زواجه فترة ويريد أن يستثمر معي ماله الذي قبضه من الجمعية، فقد بدأت عائلتي ترى أثر نجاحي في المجال الذي عارضوني فيه وقت بدايتي، ولم أتحمس وقتها لإعطاء مزيد من الوقت للموقف بأن اشترك مع أحمد في ميكروباص جديد.

إن تعلقي بسماحتك أفقدتني حماسي للموقف، فصرت لا أحب التواجد فيه لكثرة شحناءه التي تصنع منه مستنقعًا تتخمر فيه أحقر المشاعر وأدنى الأخلاق وأسوأ الطباع، وأُضيف عليه مسحة غباء متستر بقناع الدين تحت قيادة الشيخ عسران وعصبته، قد جعلوا

للدين مظهرًا سيئًا بسوء فهمهم ومحاولة إقناع الناس برأيهم مع عدم الاهتمام برأي الآخر، وبلغ من غبائهم أنهم يمشون عصبة في كل خطوة فيأتون الموقف معًا ويأخذون أدوارهم في نفس الترتيب بمختلف اتجاهات خطوط سير الميكروباصات، وعندما تحين الصلاة يدخلون المسجد عصبة ويوقفون حركة الميكروباصات ويمنعنون باقي السائقين من تخطي دورهم، فيتكدس الموقف بالركاب المتأخرين عن مصالحهم ويبدأ التهليل والتقبيح والجميع يرجمون المسجد بنظراتهم المشمئزة، حتى صار وقت الصلاة ميعادًا ثابتًا للفوضى ولسخط السائقين والركاب.

وعندما اقترحت على الشيخ عسران أن يترك باقي السائقين يتقدمون أدوار أفراد عصبته حتى لا تحدث الفوضى الثابتة أثناء الصلاة، فوجئت برده السخيف النابع من المادة الخام لصناعة الغباء حيث اقترح أن يستعين بالنجس ورجاله في تنظيم الموقف وقت انشغاله والسيطرة على الفوضى، ولم يبال برفضي وبرفض معظم السائقين، كل ما أهمه أن عصبته وافقت قراره فنفذه، وأعاد البلطجية بعد أن نسيناهم، وتزامن عودة البلطجة مع سرقة عربات أهل المنطقة ليلًا، يستيقظ الناس فلا يجدون سياراتهم المركونة أسفل بيتهم، ثم يأتيهم اتصال تليفوني غامض يهددهم لو أبلغوا الشرطة فلن تعود سياراتهم إلى الأبد ثم يطلبون فدية مالية ضخمة مقابل إعادة السيارة بطرق العصابات، بأن يتركوا العربة في طريقٍ صحراوي بعد أن يضع صاحبها المبلغ المالي في مكانٍ تحدده العصابة.

وكان أول من سُرِقَتْ سيارته بالموقف هو (خالد أبو شنب) وطلبت منه فدية كبيرة لم يستطع تدبير نصفها، فأتى للشيخ عسران غاضبًا ناقمًا على الوضع الذي آل إليه الموقف من فوضى وسرقة فقال

«يا شيخنا، اللي بيحصل ده حلال ولا حرام»، فهز الشيخ عسران رأسه في برودٍ ونظر له بعمقٍ مصطنع محاولًا إبراز الحكمة ثم قال بهدوء «حصل إيه يا ابني؟ «فأجابه خالد بغضبٍ أعلى «مهو تبقى مصيبة أكبر لو مش عارف إللي بيحصل»، فأعاد الشيخ عسران برود صوته قائلًا «يا حبيبي، اللي بيحصل كتير، المصاعب أكبر من خيالك،حدد؟" فجلس خالد على كرسي أمامه ووضع يده على ركبة عسران وهزها قائلًا «بس أكيد ما فيش أهم من سرقة العربيات، وكله كوم وسرقة ميكروباصات الموقف إللي انت كبيره، ولا إنت الكبير في خطبة الجمعة بس..!! كبير ع المنبر بصوتك العالي..!!»، وقبل أن يرد عسران اجتمع ثلاثة من عصبته غاضبين من علو صوت خالد على إمامهم، فأشار لهم عسران بيده ليسكتهم ثم قال «أخوكم خالد أعصابه تعبانة، معذور البلاء شديد، بس لازم تحمد ربنا إن صحتك بخير، واعرف إن البلاء بيكون نداء من الله لعبده ليتقرب منه أكثر، قوم استغفر وصلي وتوب من الذنوب وادعي ربنا يعوضك خير».

فقاطع الجميع دخول النجس بجسدٍ يهتز من فرط تشبعه بالمخدرات وقال بعينٍ مقلوبة «يا شيخنا حرام تأخر الآذان عن وقته»، فقام الشيخ عسران مضاء الوجه كمن نزل عليه الوحي والبشرى وتجاهل خالد ثم ربت على كتف النجس «بارك الله فيك يا أخي».

فقام خالد منتفضًا كبركانٍ ثار قائلا" دين أبوكم اسمه إيه؟ فاهمين الدين إزاي..!! طيب احترم إني بكلمك..!! أو خليك ذكي واسحب النجس معاك يصلي..!!

كان المجذوب نائمًا على الرصيف المقابل للمشاحنة فاستيقظ وحمل أغراضه متمتمًا «حتى الرصيف ما بقيناش نعرف ننام عليه من

كتر الدوشة والخناق، أمال ننام فين مثلًا..!! في بيوتنا».

و قال رجل عجوز يهم لركوب ميكروباص وهو ينظر لخالد «آدي اللي خدناه من ثورتكم «وزاد انفعال خالد فختم كلامه بـ «يلعن دين أبوكم «هاج الناس ضده منتبهين لسب الدين، ولم ينتبهوا أن الشيخ هو السبب..!! سبب السرقة شيخ..!!

وتلاحقت الأصوات «هتكفر ولا إيه !؟»، فثار خالد أكثر «أيوه كفرت، ويلعن دين أبوكم تاني».

ترك المقهى صديقي محمد عبدالناصر وتدخل محتضنًا خالد من ظهره وسحبه تجاه جلوسي وأنا أشاهد عبث الواقع وما زالت الشتائم تتقاذف بين خالد وبعض مناصري عسران.

«واحد ليمون فريش «هكذا نادى صديقي على القهوجي طالبًا عصير لخالد بعد أن أجلسه، فقال خالد «أقوله العربية اتسرقت يقولي إصبر ولا إنت كافر..!! يا شيخنا كافر وستين كافر بس ألاقي لقمة عيش، ويلعن أي دين بيشجع أفكار عسران»، فقال صديقي «وربنا أنت صح،كلنا كافرين بالظلم، وعسران كلامه غلط ومالهوش علاقة بالدين، ده شغل دروشة».

لم يكن بيدي شيء أقدمه لخالد، كنت أرى عظمة الموقِف لقد بدأ الدين يسقط من نظر الكثير، وتزلزل الإيمان في قلوب الناس وبدأت بذور الإلحاد تنبتُ في المجتمع بسبب الفهم الخاطئ لكثيرٍ من رجال الدين، وللأسف معظم الناس يرون الدين متجسدًا في رجاله فعندما يسقط الرمز يسقط معه المنهج، وفي موقفنا لا يوجد وقتٌ لدي الناس ليبحثوا عن المنهج بسبب انشغالهم في تجميع قوت يومهم مما جعلهم يتلقون المنهج كاملًا من ممثليه، وها قد جُنَّ ممثلوه. فرحمة الله على أمةٍ لا تقرأ بسبب جوعها.

وأهلًا بالإلحاد لطالما عارض الدين مصالح الناس ووطد الظلم، وأول المظلومين هو الدين نفسه حين قُدِمَ خطأ.

ولم يصل لخالد حقه وتحول من مالك ميكروباص إلى مشردٍ بين المعلمين يأخذ فتات أوقاتهم الفائضة من سائقيهم ليعمل على ميكروباصاتهم ربما يعود آخر اليوم بما يسد جوع أهل بيته.

وبدأت أقلل تواجدي في الموقف، فقط أتابع السائقين وأسلمهم كل صباح مفتاح الميكروباص ثم أنزل الموقف لإثبات تواجدي عدة مراتٍ باليوم ثم استلم الإيراد والميكروباص في آخر اليوم كل هذا لأجل مشروعك يا فيروزتي.

واستمرت فترة عملٍ دؤوب وأنا في تخطيط لما أريده لكِ، أرتب أموري، أتفحص الناس،أستطلع الأماكن حتى أتممت خطتي، عندما قبضت دوري من الجمعية أخرتُ دفع مقدمة قسط الميكروباص لأجل أن أصنع لكِ مفاجأة تليق بكِ.

وذات يوم اصطحبتك بسيارتي لشراء احتياجاتك للعمل.

أوقفت السيارة أمام دكان وطلبت منك النزول، ثم أشرت لأحد العمال فأزاح ملاءة على لافتة المحل لتقرأي عليها (فيروزة الشام للأكلات السورية).

قرأتيها بصوتٍ عالٍ وأنتِ قابضة بكفيكِ على كفي.

لم أستوعب لكني استمتعت، ذبت عشقًا وارتويت.

(١٢)

نادرًا ما تأتينا الهدايا بحجم أحلامنا، وأنت يا نوحي، أضعاف أحلامي، فكان طبيعيًا أن تهاديني بحجم أحلامي، (فيروزة الشام) ليس مجرد دكان للأكلات السورية، ويا لصوتك المبهج وأنت تخبرني أن جميع العمال سوريون، ويا لشحنات الحرية من صوتك وأنت تخبرني قائلًا «أنا مش فاضيلك، خدي بالك من المحل وأنتم سوريون في بعضكم واللي هيكلمني هعوره، أنا مش ضامن أعيشلكم لبعد بكره»،وأجمل ما فيك أنك لا تقتل طموح امرأة ولا تستأسد عليها لكونك ذكرًا.

ولا أصدقَ من شخصٍ يمنحك الحرية في زمنٍ خُيِّرَتْ فيه الشعوب العربية بين استمرار حكم جلاديهم وبين الفوضي.

ولأن أمرك يهمني يا نوح، يهمني أكثر مما تتصور،يومها قررت أن أصارحك بمشاعري تجاهك قررت أن أخبرك بما كان وما سيكون، أخاف أن تتورط فيَّ، وأنا فتاة لا تصلح للحب، ولا تصلح للشفقة، فحبي لك يا نوح لن يمنع كرهي للرجال، وإن تبادلنا مشاعرنا سأكرهك، ولأني أخاف فقدك طلبتُ منك بعد أن ملأت عيني بكل تفاصيل المحل وحضنت أركانه بسعادتي، طلبت أن تختار مكانًا أعزمك فيه على العشاء وأكدت ألا تدفع ثمن الطعام فوافقتُ دون تردد، واصطحبتني لمطعم وجلسنا نأكل،وكنت فرحة بقبولكَ عزومتي.

لا أخفيكم سرًا..

كنت مرتاحة لرجولته فبرغم شغفه بي وتوهج إعجابه في عينيه منذ أول لقاء بيننا، إلا أنه كان رجلًا لا يترك عينه تخيف أنوثتي، لا يترك عينه تتجرأ على عيني، لم يكن مراهقًا ولا وقحًا كان رجلًا دافئ الأمان.

أكلنا في صمتٍ سعيد، قاطعته بكلمات قليلة «متي يبدأ عمل فيروزة الشام؟».

فأجابني بهدوء:

«الفترة إللي فاتت كنت بزرع في كل خرابة عفريت، وكل الزباين عارفين إن الأكل ده تحت اسم فيروزة الشام وإني مجرد مندوبك، ووزعت إعلانًا على كل المحلات إللي بتاخد مننا، دلوقتي كل القرارات بتاعتك، تظبطي مع عمالك هتبدأوا إمتي، ولو احتاجتوا مساعدة أنا موجود، وعلى فكرة كل معدات المحل بالتقسيط وإنتي إللي هتدفعي القسط وإيجار المحل».

قاطعته بسؤالي عفويًا «هتسيبني أدير العمال وحدي..!!»، فأضاء الخجل وجهه، وإني ليعجبني الرجل حين يخجل، فطأطأ رأسه وتمتم «ليه الإحراج ده..!!».

ضحكنا وأكملنا الطعام، ثم خرجنا بعد أن دفعت الحساب وطلبت منه أن نتمشى.

ولم أستطع ترتيب أفكاري واندفعت قائلة: «نوح، بدي أخبرك قصتي».

– قصة أي؟

– أقصد بدي أحكيلك عني، وعن تفاصيل كتير أنت ما تعرفهاش

– على فكرة مستني اللحظة دي من زماااااان، وكنت متأكد إنها

هتيجي هتيجي

حنين كلامه أربكني رغم صرامة صوته، فاندفعت أكثر وكأني أدفع تهمة عني قائلة:

– أول ما جيت مصر كنت مرعوبة، حاسه إني سبايا حرب، واللي حصل لي بسوريا خلاني أترعب من كلمة رجل، بخاف من صوتهم، بترعب حتى من خيالهم، ولو جت سيرة الرجالة في أي كلام جسمي بيقشعر وبحس إني بقع من مكان عالي أوي، لكن إحساسي معاك مختلف، مختلف أوي يا نوح، يا أحلى أخ وسند، أنا كتير بحبك، وكتير متعلقة فيك، وبخاف من أي يوم مش بشوفك فيه، إحساسي بيك ما بقاش مجرد أمان، لأ أنا تعبانة إني مش حكيالك أدق تفاصيل حياتي، متأكدة إني لما أحكيلك هرتاح وكوابيسي هتقل.

ابتلع نوح ريقه بحنجرة ترتعش، وأخرج زفيرًا متقطعًا قائلًا «الله لا يحرمني منك «ثم أكملت وأنا أطرد الكلام من لساني بصعوبة:

– أنا مش مجرد سورية انهدم بيتها وشافت أهلها تحت الأنقاض، وشافت كل تفاصيل حياتها مهدومة، لأ، أنا هيثم حبيبي اللي حبيته سنين، وبقينا نحلم ببيتنا وأولادنا، تخيل لما قامت الثورة في سوريا فوجئت إن حبيبي بقى المسئول في حينا عن الشبيحة اللي بتقتل الثوار عشان تحمي نظام بشار، والأفظع إن يوم ما القصف هدم بيتي وهدم أعظم رمز للرجولة في حياتي وهو أبي، يومها وأنا بصرخ ومش قادرة أستوعب لقيت هيثم جي من بعيد، جريت عليه، جريت على حبيبي، وكانت أول مرة أكتشف أنه المسئول عن الشبيحة لما لقيتهم حواليه ومسلحين وبيقتلوا في الأطفال ويخطفوا البنات، وقتها تجمدت وكان بيني وبينه خطوات وهو عمال يوجه الشبيحة ويشاور لهم هنا وهناك، تخيل صدمتي يا نوحي، قصدي نوح، جريت على جدتي وكانت

وقتها جالسة بين أنقاض بيتنا لقيت هيثم جري ورايا وهو بيقول «بينا نهرب من هنا قبل ما يقتلوكي «وقتها مسكت حجر وصرخت فيه: باعد عني، أهرب إزاي مع قائد الشبيحة..!! أنت مسئول عن قتل أبي وأمي وأخوي، أنت مشارك في الدمار»، وقتها تحول وهو بيقربلي وقال «عيزاني أقف في صف الشعب عشان اتهرس..!!»، وبعدين أهلك قدرهم يموتوا، المهم يلا يا حبيبتي نمشي من هنا عشان تبقي في أمان، حاول يمسك إيدي فدفعته ورفعت الحجر وصرخت أكتر، بااعد عني».

توقفت عن الحكي بخنقة بكاء ثم تصنعت البكاء الهستيري ربما تضمني لصدرك فلم تتحرك يا نوح وبقيت مادًا يدك بزجاجة المياه فلم آخذها فسكبتها على رأسي، وقلت «فيروز مش لازم تكملي حكي يلا نرجع للعربية «وبالفعل عدنا للسيارة وكنت هدأت قليلًا، فأجبتك..

– نوح سيبني أحكي، لازم أحكي، أنا هيثم حاول يغتصبني، فضلت أجري ما عرفتش أهرب منه وقعت راح نزل فوقي، فضلت أصرخ وأصرخ، وهو كابس على صدري وبكل حيوانية مزع هدومي، فضلت أصرخ، وأعافر، وفي الآخر قتلته بحجر.

وجريت على جدتي وإيدي مليانة دمه، تعرف يا نوحي، قصدي نوح، لسه بيجيلي كوابيس هيثم وهو بيطلع في الروح ودماغه مليانة دم، أنا كرهت الرجالة من يومها وبتعب لو فكرت لحظة إن ممكن أتجوز، اتعقدت، حقيقي اتعقدت، برغم إنه وحشني أحب وأتحب وحشتني رومانسيتي، لكن خلاص الرجالة ماتوا في عيني بعد أبي، الرجالة بقوا شياطين من بعد هيثم، واللي خلاني أسمحلك تقرب مني لإن فيك رجولة أخويا وحنية أبويا، فعشان خاطري يا نوح أنا محتاجاك جدًا في حياتي، فياريت نحافظ على علاقتنا، يا ريت ما

تخلينيش أخاف منك في يوم، يا أحلى أخ ربنا عوضني بيك.

يا نوح كنت خير منصت لي، وضاعفت ثقتي فيك وأنت تقول متصنعًا «يا فيروزتي، يووه قصدي فيروز تعرفي من صغري كنت بتغاظ عشان ما عنديش أخت بنت، ومن أول ما دخلتي بيتنا بطلت اتغاظ، وفكرة أنك فكرتي لحظة إن ممكن أحبك دي فكرة خرافية، لأني مش حاطط الزواج في خطة أحلامي، أنا مش هعيش زي البهايم أتجوز وأشتغل، عندي حلم يبقالي شركة شحن عالمية وملايين في البنك، ولما كل ده يتحقق مش عارف هبقى فاضي أحب ولا هكمل طريقي وأسيب الحب للعالم التافهة، اطمني يا أجمل أخت في الدنيا».

إنني تظاهرت التمنع كي تجذبني لحضنك، تظاهرت الكبرياء كي لا أراني لاجئة بعينيك، ذكرت جريمتي لتبرئني منها، ذكرت هيثم لتتيح لدموعي أن تبلل صدرك ويداك خلف عنقي تمنع ضجيج العالم عن رأسي، ذكرت أصوات القصف لتسمعني صوت أنفاسك ونحن متلاحمين، ذكرت رؤيتي جثث عائلتي لتمنحني رقصة ترجرج مآسي ذكرياتي وتنعشني، اتهمتك بأخي كي تصفعني على وجهي وتصرخ عاليًا بأن الأخوة لا يتزوجون، قد كنت أراني حبيبتك منذ قدومي، وعكست عينيك صورة لابني منك، لكنك دمرت كل شيء بتمنعك عن احتضاني وقت انهياري، حتى لو لم تراني مناسبة لك فكيف تبخل عليَّ بطبطبة على كتفي.!؟

يا نوح، من يريد الرحيل لا يخبرنا ويكرر استعداده للرحيل، من يريد الرحيل يختفي دون مقدمات، ولو أردتُ أن أحافظ على علاقتنا أخوة لما ذكرتُ الحب معك، وما كررت الحب مرارًا وتكرارًا، ولوضعتُ حدودًا تلجم لسانك وتضيق حريتك معي.

أهذه الدرجة تراني دون مستوى أحلامك، ربما قصدت أن

تفيقني وتخبرني أنني لاجئة لن أرتقي لأحلامك، أمعقول أن ترى الحب تفاهة يا نوح.!؟ أم تقصد تفاهة تفكيري حين تخطيت مكانتي وطمعت في حب من عطف عليّ.!؟

الآن عرفت المعني الحقيقي للجوء، هو الحرمان من الاختباء في حضن من رأيته وطنك، يا نوحي، إن تمنعك عن احتضاني أقسى من قصف سوريا على قلبي.

فالوطن ليس المباني، إنما هو مرسى الأماني، وأنت كل الأماني.

والحرمان، أن أرى على صدرك لافتة «ممنوع الاقتراب».

يا نوحي ممنوعٌ أنت.

ولاجئةٌ أنا.

(١٣)

ممنوعةٌ أنتِ.

ومحرومٌ أنا.

أن يجبرني خوفي عليك فأكذب..!

وأتخلى عن رجولتي فأسمي مشاعري تجاهك بغير اسمها..!

أن أصارع نفسي للبقاء معكِ وأنا على يقينٍ بأن مشاعري ستحترق يوميًا حتى تفني طاقة الحب داخلي تجاه أي شيء، ها أنا أتنبأ بمستقبلي بعد حديثنا اليوم.

أراني في نفقٍ مظلم وآخره يتوهج نور يعمي الأبصار لأنه نور احتراق مستقبلي، وأعرف أني سأتشبث بكِ أكثر من تعلقكِ بي، صدق من قالوا: العشق أول مراحل الجنون. نكون على يقينٍ بأننا نهلك ونستمر في إزهاق أرواحنا، نتسارع للعدم.

وقد يعذبُ الله أقوامًا بمشاعرهم فيتعلقوا بأصنامٍ يخيل لهم أنهم بشر حتى تحترق أعمارهم، وتخسف أرواحهم في قلوبهم حتى ينسوا معاني الجمال وراحة البال.

يا فيروز، كيف تريني أخوكِ.! كيف لم تؤمني بحبي.! ألم تتعافي وهدأتِ كثيرًا مما كنتِ عليه وقت قدومك.! وكنتُ أنا المهدئ، فكيف تريديني لفتاة غيرك.!

ألهذه الدرجة تدمر الحروب فطرتنا..!! ألا لعنة الله على أول قرار لدمار سوريا.

يا ليت قلوبنا تتحول بضغطة زر، فتتحول مشاعري تجاهك، ولا أراكِ أمًا لأولادي، ولا أراكِ مسكني، أنا الذي شغلتني أحلامي عن مراهقات الشباب وأغاريد الحب، وظللت أهرول خلف لقمة عيشي، وحلمي بأول مليون جنيه رصيد في البنك، ها أنا تناسيت أحلامي منذ قدومك.

كيف وأنا المعلم نوح..!!

أسيطر على أبشع طبقات المجتمع، طبقة السواقين، وصراع الموقف، وتناطح الإتاوات علينا وموزعي المخدرات، ورجال الشرطة المتكالبين لنهشنا.

كيف أسيطر على كل هذا وأضعف أمامك يا فيروز..!!

والله ما أضاعَ الرجال شيئًا أكثر من سيطرة النساء على قلوبهم.

ها أنتِ تنامين مطمئنة، وأنا أحترق، أحترق حد عجز عيني عن البكاء، وأبحلق في سقف غرفتي بعينين يحرقهما عجزهما عن البكاء، وقوة رجلٍ انتكست ضعفًا.

وبقيت على حالي حتى سمعت شقشقة الصباح فاغتالني نوم المتعبين، ومرت ساعات، فباغتتني هزات أمي ممسكة ذراعي قائلة «اصحي يا عريس ناموسيتك كحلي».

حاولت إقناعها تركي نائمًا فأخبرتني بأن صلاة الجمعة اقتربت وأنها أعدت الإفطار، فقمت. ويا ليتني ما قمت، ها أنا أسمع كلماتٍ قاتلة من أبي وأمي، كلماتٍ تسم بدني رغم فرحهم بها إلا أنها تطعن كل نقاط ضعفي، حيث استقبلني أبي ببهجة قائلًا «صباح الفيروز على فيروزة الشام، بقى كده يا واطي أعرف على الصبح من ستك سندس إنك فاجأت حبيبة القلب بالمحل؟

وأكملت أمي «خلاص يا حج، الحب يعمل أكتر من كده»،

فضحك أبي مكملًا «ما تنساش تعزمني على فرحكم، أنا بردوا في مقام أبوك يا صايع؟».

جميلة فرحة الآباء حين يكبر أولادهم وتنضج قلوبهم فتظهر عليهم علامات العشق.

لكني أجبتهم قائلًا «فيروز مجرد أخت، هو حرام أعمل مفاجأة لأختي؟».

فضحك أبي أكثر قائلًا «أختك، تصدق نكتة حلوة»، ومصمصت أمي شفتيها وضربت كفًا بكفٍ قائلة «طيب ما تعتبرني أختك وتفاجأني بمحل صفية القاهرة»، وانفجرا ضحكًا، وانفجرت انهيارًا داخليًا وبكاءً من كل خلايا جسدي ما عدا عيناي.

وأقنعتهم بأني لا ولن أفكر بالزواج منكِ يا فيروز، وأن مشاعري تجاهكِ لم تتعد الأخوة، ثم أكملت كذبي بأن أحد أصدقائي حين رآكِ معي سألني التقدم لزواجكِ وحين أخبرتكِ غضبتِ وأجبتيني بأنني إن أردت خسارتكِ يومًا ليس على إلا مفاتحتكِ في الزواج أو التلميح بأني اخترت عريسًا أو حتى ذكر الرجال في كلامي معكِ، فسخر أبي قائلًا «يعني مش عيزاك تجيبلها سيرة الرجالة في كلامك، تبقى لا مؤاخذة شيفاك أختها».

ما يهم أقنعتهم بكل الطرق وشرحت لهم عقدتكِ من الرجال بسبب فقدكِ أبيكِ وأخيك، فقالت أمي بنبرة تملؤها الحكمة «استحالة يكون ده سبب عقدتها، ده مفروض يبقى سبب حبها ليك»، لم أجرؤ إخبارهم بأي شيء من قصة «هيثم»، لم أجرؤ يا فيروزتي.

وأخذت عهدًا على نفسي بأن أعيدك أفضل مما كنتِ عليه قبل لقاء هيثم، وقبل أول قذيفة وأول رصاصة، وقبل أول قرار جائر من سفاح سوريا، الأسد ابن اللبؤة.

وانقضى اليوم،وذهبتُ إلى الموقف لا أريد الرجوع منه، ولا أطيق الشيخ عسران وعصبته، وقد حولت مشاعري لطاقة فتاكة، حولت طاقتي لعملي، وقررت أن أعود للمواظبة على وردية الصباح سائقًا لميكروباصي وضاعفت ساعات العمل، وحلمت أكثر بالملايين،وهاتفت أحمد ابن خالتي ووافقت على مشاركته في دفع مقدمة ميكروباص جديد بالتقسيط، واشتريناه، وتضاعفت مهمتي بالموقف فبعد أن كنت أدير ميكروباصًا واحدًا صارا اثنين، وصرت مسئولًا عن التحكم في عدد كبير من السائقين وكان أول من فكرت فيه خالد أبو شنب لأمانته وحفاظه على الميكروباص الذي يقوده ولا يهمل فيه.

وعاد اعتراض أبي من جديد، قائلًا «يعني ما صدقنا خلصت أقساط ميكروباص وبقى ملكك، قلت أخيرًا الواد هيبقى فلوسه في جيبه، رحت داخل جمعية بقيت أقول ربنا يستر عليك كل فلوسك في الشارع، ولما تقبض الجمعية بدل ما تحوش قرشين على جمب لوقت زنقة، أو تحطهم مقدمة في شقة والعقارات سعرها بيغلى مع الوقت، وأهو يبقى عندك شقة عشان تتجوز زي باقي خلق ربنا، بدل ما تتصرف زي الناس العاقلة، تروح تحط كل فلوسك في مقدمة ميكروباص تاني، وكمان معاك شركاء..!! أنت اتجننت..!! ولا عايز تموتني..!!

حاولت بجميع الطرق إقناع أبي ألا يخاف، وأنه لكي أتوسع في مشروعي يجب المخاطرة ولو قليلًا، وأن الفلوس المركونة على الرفوف يقل ثمنها، وحتى لو اشتريت شقة فهذا يعني أن دخلي لن يزيد، لكن أبي لم يقتنع ودارت بيننا شجارات لفترة طويلة، عندما علم أني أعطي أحمد ابن خالتي شهريًا حوالي ١٥٪ من رأس المال تزيد وتنقص على حسب الإيراد، فقال أبي «أنت بتديله ضعف فوايد

البنك يا غبي، يا بخت الواد بيك، هو قاعد بيه وأنت مسحول في الموقف وقرف السواقين وفي الآخر بتديله مرتب ما يحلمش بيه، بقولك إي، ما تفتحش بنك أحسن».

ضحكت لأبي قائلًا «والله من أحلامي يبقى عندي بنك، وبعدين أحمد مش شريكي لأ تفرق كتير، أنا بشغل فلوسه وبديله نسبة من الإيراد، ومتفق معاه رأس ماله مش هترجعله قبل سنتين وكمان شارط عليه مالهوش علاقة بالموقف، وهو وافق إن الإيراد هقبضه له كل شهر بعد ما أطلع فلوس القسط والصيانة ومصاريف الميكروباص، وده معناه إن ابنك بقى رجل أعمال يا حجوج».

فزاد أبي غضبًا، وزدت إصرارًا على ما أنا فيه، لطالما الله يبارك في إيراد الميكروباص فلماذا لا أغدق على الناس نعيمًا..!!

(١٤)

تعلقت أكثر بنوحي عندما أخبرتني جدتي بأن خالتي صفية حكت لها عما دار صباح يوم الجمعة، سألتني جدتي مستنكرة «ليه ما حكيتي لنوح عن سبب خوفك من الرجال !».

فأخبرتها بأني حكيت له تفاصيل قصتي، فتعجبت جدتي إنه لم يحك لأبويه سبب عقدتي وقتها أحسسته سترتي، أحسست غيرته عليّ، وتعلقت به أكثر وأكثر، وتأكدت أنه يراني أخته ويخاف على سمعتي حتى من أبويه، جميل إحساس الفتاة بأن الرجل يعتبرها عرضه وشرفه وأغلى ما يملك. لكني تمنيت لويراني محبوبته التي يقبلها بحالها وماضيها ويعشق أخطاءها، ولكن من ذا الذي يعشق قاتلة مُغتصبة نفسيًا، ولاجئة.

لا تكوني أنانية يا فيروز، لا تطمعي أكثر، يكفي شهامته ورجولته وجدعنته التي احتوتكِ، وأعادتكِ إنسانة طبيعية، ومن تصدق علينا بشيء لا يحق لنا أن نفرضه عليه ونلومه إن قطعه، فكيف تريدين ممن تصدق عليكِ بالأخوة أن يراكِ حبيبة وسكنًا له.!

يا أيها العقل أتدرك ما الإحساس.! الإحساس، وما أدراكَ ما الإحساس.!

لو كان اللسان قادرًا على إيصال المشاعر لما ابتدعنا البلاغة، وما تفاعلت أجسادنا وتغيرت ملامحنا وقت الكلام،وما تهتكت عقولنا لعدم احتوائها تصادم مشاعرنا مع الواقع.

فما أجمل أن تجد من يستشف مشاعرك باستبصارٍ، والأجمل أن يعي مشاعرك وإن تلعثمت وخانك التعبير عنها.

ومرت أيام، وأسابيع، وشهور.

وزادت شهرة دكاني، وتكاثرت الزبائن، وازداد عدد اللاجئين السوريين بمصر، فوجدت ما أبحث عنه وهو إنشاء رابطة للاجئين السوريين بمصر.

حاولت صناعة وطن سوري داخل مصر، وتقريب السوريين من بعضهم في غربتهم ربما يشعرون بدفء العائلة، فأخبرت نوحًا بفكرتي ففرح جدًا واستأجر باسمه شقة لأقوم بنشاطي وبدأت أبحث عن السوريين بمصر، وأتت أعداد كثيرة للرابطة، أصبحت أرشدهم لجميع الإجراءات بمصر، وبدأت تنظيم ندوات لإيجاد سوق لعملهم، ولم تعد الشقة تكفي عدد السوريين أثناء الاجتماعات، أو حتى من يقيمون أيامًا بسيطة إلى أن يستأجروا سكنًا خاصًا فهاتفت نوح وكنت مشغولة عنه كثيرًا ما بين الدكان والرابطة، وطلبت منه أن نستأجر مقرًا أكبر سواء عمارة أو فيلا فقد بدأت التبرعات تأتي لصالح اللاجئين، وبالفعل بحث نوح عن أكبر وأرخص مكان يستأجر فيه مقرًا جديدًا لنا، وانتهى البحث لمكانٍ يبعد ساعتين عن بيت نوح، منطقة تسمي السادس من أكتوبر.

وكان صعبٌ عليَّ فراق الحي الذي يقطن فيه نوح، صعبٌ ألا أراه صباحًا في طريقه لعمله، لكن للضرورة أحكام، والاهتمام بالمنكوبين الهاربين من الموت أهم من رومانسية لا تفيد.

وانتقلت للبيت الجديد لكني احتفظت بدفع إيجار شقتنا بحي الزيتون، وبجوار مقر الرابطة فتحت فرعًا جديدًا لفيروزة الشام من أجل توفير عمل للسوريين.

وعن أول مرة أطل من شباك رابطة السوريين في عصر أحد

الأيام شاهدت موقفًا عظيمًا جعلني أهيم فترة أراقبُ الأبطال وهما رجل وزوجته معهما عربة خشبية لها ثلاثة إطارات حديدية وعليها جردل مياه وكثير من ثمار التين الشوكي، كان الرجل بملابسه الريفيفة يجلس شامخًا على كرسي بلاستيك متهالك ويمد يده لزوجته التي تجلس جواره على الرصيف وتلقط الشوك من يده، في مشهد بالغ العظمة والحب والمشاعر والتكامل رغم بساطتهما.

مشهد روى مشاعري فتفتحت أزهار الهيام، وتخيلتني يا نوح أنتظر عودتك من عملك في عش زوجيتنا لالتقط منك أشواك العناء وأرطب عليك كفاح الحياة.

تأملتهم كثيرًا حتى وجدتني أتصل بك، أخبرتكَ مدى افتقادي لك، وافتقادي مرورك أسفل شرفتي، وقبل أن تهدأ أشواقي وجدتك أمامي، جئت مع الليل كما الحنين، تناولنا عشاءً مع جدتي ثم فارقتنا وتتبعتك ببطءٍ حتى باب الشقة وأنا أجاهد نفسي لعدم احتضانك من الخلف، يا نوح.. ألسنا أخوة.! لقد كان أخي آسر يظللني بحضنه إن غاب يومًا، فما بالك بغيابك أيام حتى بات ظهورك مرات معدودات في الشهر.!

وعندما أغلقت الباب خلفك هرولتُ للشرفة لأرتشف بعيني منك فيراقص الشوق كفي بسلاماتٍ عن بُعدٍ لأجسادنا وتلاحم لأرواحنا، حتى اختفيت من شارعنا فظهرت دمعتي فمحوتها بيدي، ودخلت غرفتي أطالع نفسي في المرآة لتظهر خلفي جدتي قائلة «نظراتك ليه بتثبت كدب لسانك ومهما حلفتي إنك شيفاه أخوكِ هقولك كفاية كذب».

فأجابتها دموعي والتفتُ باكية في حضنها، فربتت على ظهري وأجلستني على طرف السرير متمتمة «مالك؟ اتكلمي»، فأجبتها بكذبٍ حزين «كل ما أشوف نوح بفتكر أخويا آسر وهو تحت

القصف، أنا بقيت أكره أشوف نوح يا جِدة».

أوقفت جدتي طبطبتها وأبعدت رأسي عن كتفها راشقة عيني بعينها قائلة «أنا هقول لنوح إنك بتحبيه»، انتفضتُ واقفة مقاطعة جدتي «أقسم بالله لو فتح معايا تاني موضوع الجواز هطرده ومش هديله أي فرصة يتكلم معايا لآخر عمري، أنا.. استحالة.. أتجوز».

تأملتني جدتي بحاجبين معقودين وتكلمت بهدوء «هو فتح معاكِ موضوع الجواز أولاني ورفضتِ من غير ما تقوليلي..!!».

فزاد كذبي وأنا ألتقط من على التسريحة مشبكًا لشعري لأجمع شتاته بقبضة المشبك، قلت «أيوه رفضت وعرفته إن علاقتنا أخوة وبس، وإني مش هتجوز بعد إللي حصلي، وبعدها نوح أصلا ارتبط ببنت وهيخطبها قريب، يعني الحمد لله، هحافظ على الأخوة ما بنا، فياريت تفهميني يا جدة إني لما بشوفه بفتكر أخويا آسر، وبعيط على افتقاده هو وبابا وماما».

فتمتمت جدتي «حقك عليا يا فيروز».

مثلك يا نوح لن يفهم كيف قضيتُ ليلتي تلك، أن تمنع نفسك عمن أحببت لأنه لا يراك، أو يراك كما يرى أي شيء، ربما كما يرى الجماد، مثلك خُلق لنعشقه أما حبه لنا غير متاح.

لقد بت أراني أقل من أن تحبني، لقد زاد اقتناعي بأنك تستحق إنسانة في صفائك وليس لاجئة قاتلة.

فضاعفتُ مجهودي مع اللاجئين ربما أرمم أنقاض قلوبهم، وزاد انشغالي حتى بت أراكَ يوم الجمعة فقط، عندما تأخذني بسيارتك لشراء متطلبات محلات فيروزة الشام.

ولم أوافق على ذلك إلا بعد أن اشترطت عليك أن تأخذ أجرة سيارتك، فوافقتني، واستمر الحال سنة كاملة.

(١٥)

«أصحاب ولا بيزنس»..!!

جملة لم تعد اسمًا لأحب الأغاني لقلبي، لقد صارت سؤالًا يسأله قلبي كلما أبصركِ يا فيروز. لكن الأمل موصول لا ينقطع بأنكِ يومًا ستفهمين أنني المرسى الوحيد لقلبك، فلا تتأخري. لأن تأخرك سيزيد عتابي لكِ على السنين التي قضيناها لا نعود لبيتٍ واحدٍ نتناول العشاء تحت صورة زفافنا المعلقة وسط الصالة.

لكني أعود مناشدًا قلبي يا أيها القلب الصبور رفقًا بنفسك، وبين الحين والحين أتذكر كلمة جارتنا الحجة حبيبة وهي تقول «إياك تلعب ببنات الناس، ولا حتى بنظرة «فأجيبها إجابتي المكررة «بنات الناس مش بيدوا فرصة لحد يلعب بيهم».

يا حجة حبيبة، لم لم تخبري البنات ألا يلعبوا بأولاد الناس ولو بنظرة..!! وفي عز تجلياتكِ يا فيروزتي بعقلي،طرق باب شقتنا أحمد ابن خالتي يستأذن أن يسحب أمواله التي أستثمرها له لأن أخو خطيبته استطاع أخيرًا أن يأخذ إجازة من عمله وسوف يأتي مصر بعد شهورٍ قليلة، وأسرة خطيبته يريدون أن يستغلوا وقت إجازته في زواج ابنتهم، منطقيًا لم أكن لأوافق إعطاءه أمواله فقد مرت سنة واحدة، وقد اتفقنا أنه سيأخذ أمواله بعد سنتين،فكيف يطلب ماله قبل الميعاد بسنةٍ كاملة..!!، لكني لم أرد أن أعطل قلبين تحابا ويريدان السكن في بيتٍ واحدٍ، آملت أن بتيسيري زواجه يتيسر زواجي منك

يا فيروز، آملت بغرس الخير أن تذبل أخوتي بقلبك ويزهر حبي، فتغيري نظرتكِ لي.

وأعطيته من مالي الخاص نصيبه كاملًا غير منقوصٍ بالإضافة لنصيبه في أرباح آخر شهر له.

ولم أخبر أبي وأمي وقتها كي لا نتشاجر، أعرف أنهم على حقٍ ويريدون أن أدخر أموالًا للزواج، من حقهم أن تقر أعينهم بحفل زفاف ابنهم، لكن، ليس لدي دافع لإدخار شيء للزواج لطالما قلبك لم يلن يا فيروزتي، وأيضًا لم أخسر بإعطاء أحمد نصيبه، فقد زادت نسبة رأس مالي وبالتالي زادت أرباحي، وما زلت في طريق المليون الأول.

وفي شراكة أحمد استطعمت معني الحديث القدسي «إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ»، فقد كنت أعطيه مرتبًا شهريًا وها أنا الآن أرد له رأس ماله بالتمام والكمال، وكانت نتيجة أمانتي معه أن ذاع بين العائلة والأصدقاء تجربته معي وشكر اجتهادي في تشغيل أموال غيري تماما كحرصي على تشغيل أموالي.

وفي نفس الأسبوع الذي أعطيت أحمد أمواله، طلبني آدم ابن خالتي، وهو الأخ الأكبر لأحمد أرادني أن أستثمر له أمواله في ميكروباصٍ جديدٍ له، لكن أمواله لم تكف مقدمة الميكروباص فبحثت له عن شريكٍ أستثمر له أمواله معه فكان الشريك صديقي عبدالرحمن لكنه طلب تأجيل شراء الميكروباص حتى يكتمل معه مبلغ الشراكة.

واتفقنا أن اشتري لهما الميكروباص وحددت نسبتي في تشغيل مالهما، ثم فكرت قليلًا فوجدت أن الأفضل ألا يكون لهما عربة بعينها لأنه قد يأتي يوم ويقل الإيراد أو تتعطل السيارة فتتوقف عن العمل فكان من الأفضل أن أجعل العربات الثلاث رأس المال وأجعل

لكلٍ منهما نسبة في رأس المال بمقدار ما أعطاني وقلت لهما «فلوسكم متوزعه على الـــ ٣ عربيات، يعني تيجي تقولي فلوسي في أنه عربية بالظبط هقولك ليك كاوتش في دي، وكرسي في دي»، واتفقنا بالتراضي،وبقينا في انتظار أموال عبدالرحمن ليبدأ العمل.

وقتها ازددت ثقة في أحلامي، وأحسست اقتراب المليون الأول، وضاعفت ساعات تواجدي بالموقف تمهيدًا لمجيء الميكروباص الثالث.

(١٦)

ازدادت التبرعات من المصريين والسوريين المقيمين بأوروبا وبعض أثرياء الوطن العربي وبعض الجمعيات الخيرية.

ومازال قصف بشار مستمرًا على سوريا، ومازال اللاجئون يزدادون، فتزداد التبرعات..!!

منطقٌ عجيب، ألم يعلمونا في المدارس أن الوقاية خيرٌ من العلاج..!!

فلماذا تزداد التبرعات للاجئين بدلًا من إيجاد حل لإيقاف مذابح سوريا..!!

ما يهم، كنت أقوم بدوري في بث الأمل والعمل في أنفس أهلي، واستأجرت دكانين قريبين من مقر الرابطة وأجريت مشورة مع أهلي واستقررنا إلى تسميتهم.

(مخبوزات دمشق) و(أبناء حلب للمأكولات السورية)، وبدأ العمل وأثبت أهلي السوريون أن لطعامهم مذاقٌ رائع وأثبت أهلي المصريون حبهم لتذوق كل جديد.

أصبحت أنتقم من بشار ببث الأمل والحياة في السوريين، وما أجمل طاقة السوريين في إعمار الأرض، أثبتنا وجودنا بأم الدنيا مصر، وأحدثنا طفرة في سوق الطعام والملابس، وجميع المنتجات السورية وجدت رواجًا بين المصريين.

وكلما توسعنا بمصر زاد اشتياقي لسوريا، وكلما ناداني الشوق

لوطني هاتفتك يا نوح، أتعرف لو أن الأمر بيدي لبنيتُ لكَ عرشًا وقضيت عمري أطوف حولك كي لا أفقدني لحظة.

يا أخي.

وعندما أبكاني الشوق وهاتفتك لم أتوقع إجابتك عليَّ حين بدأت المكالمة قائلة

- اشتقتُ حلب
- أنا أيضًا أشتاق حلب
- كيف تشتاقها وأنت مصريٌ لم تزرها يومًا.؟
- وكيف لا أشتاقُ ما تشتاقينه..!!

ما أعظمك يا نوحي، لا تدعي الحكمة أو تطييب الخواطر بكلمات الصبر، إنك تقدر مشاعري وتقرها، وتلك أعظم مؤانسة وأقوى ما يدفعني لإكمال المسير.

(١٧)

رغم أنه يبيع الكذب ونادرًا ما يأتي بالسرور، لكنه يعطيني تفاؤلًا وطموحًا، ويؤكد لي بداية يوم جديد، إنه بائع الجرائد.

وفي صبيحة يوم، ذهبت كعادتي للموقف لكني تعجبت من مجيء النجس وجميع رجاله باكرًا على غير عادتهم فطبيعتهم يقسمون بعضهم لمجموعات على مدار اليوم، وكان مظهرهم يوحي الاستعداد لمهمة أتوا لأجلها، وأسلحتهم البيضاء تؤكد أنهم ما تجمعوا لخير، وقفت حائرًا لحظة دخولهم متجمعين ثم تفرقوا في جميع أنحاء الموقف وطوقوه جيدًا، فشككت أن الشيخ عسران سيغدر بأحد المعلمين وأحضر البلطجية لتلقينه درسًا، ثم سولت لي نفسي أنه يريد فرض الإتاوة من اليوم وظلت أفكاري تراودني فقطعت الشك باليقين وسألت الشيخ عسران عن سر إحضاره البلطجية بهذا الشكل المريب، فضحك متصنعًا الحكمة وقال «الموقف فيه رجاله زي الدهب، جايين يقوموا بواجبهم، من غير ما نطلب منهم، ربنا يبارك فيهم»، لم أصدقه لكني تأكدت أنه لا يكذب ولا يخفي شيئًا فسذاجته مفضوحة.

مر الوضع طبيعيًا من تحميل الركاب ومغادرة الميكروباصات الموقف، تحت ظل البلطجية حتى أذن الظهر، وهنا انقلب كل شيء وتبدلت الأوضاع، لمجرد دخول الشيخ عسران وعصبته المسجد، لم ينتظر النجس ورجاله أن يزدحم الموقف وتتعطل حركته كالمعتاد،

وأغلقوا باب المسجد بجنزير من الخارج ووقف النجس أمامه شاهرًا ساطور، فأشهر جميع رجاله أسلحتهم بجميع أنحاء الموقف، وبأعلى صوته جمع الناس حوله، ثم خطب فينا قائلًا «يا معلمين، يا أجدع أسطوات، ناس الموقف من غيرهم ما يسواش، الناس اللي بتاكل عيش بما يرضي الله، ومن كتر جدعنتهم محرجين يوقفوا الشيخ عسران ورجالته عند حدهم، بس أنا جبت أخري، وإنتوا عارفين روحي في مناخيري، وخُلقي أضيق من فتحة الكربيراتير، واللي بيحصل ده ما يرضيش ربنا، ولا يرضيني، وعشان أنتوا أهلي وناسي وحبايبي الكُمَلْ واجب أخدمكم برقبتي، وأحمي عربياتكم إللي بتأكلكم عيش، عربياتكم إللي بتتسرق وما فيش حد بيرجعهالكم، إحنا بيتعلم علينا في منطقتنا، إحنا خلاص سُمعتنا ضاعت وبقينا شنبات على نسوان، لا مؤاخذة يعني الموقف بقى ملطشة،إنتوا راضيين تعيشوا في العار ده؟؟

فأجابت الجموع بما فيهم أنا في صوتٍ واحدٍ عالٍ «لأ»، فأعاد النجس سؤاله بحماسٍ أكبر وصوتٍ أعلى قائلًا «راضيين تعيشوا في عار؟ «فزاد حماس الجموع مرددين «لأ»، فازداد النجس حماسًا قائلًا «فوضوني أخلصكم من عسران وجماعته»، فرددت الجموع وأنا معهم «فوضناك، فوضناك»..لكن الأصوات انطفأت بعقلي وسألت نفسي: هل نهرب من سيطرة الحمار إلى سيطرة الذئب..!!».

لكن سؤالي لم يكن له قيمة مع حماس الحشد اللاهث خلف لقمة العيش والناقم على عرقلة الموقف وقت كل صلاة، والناقمين على طريقة الشيخ عسران وعصبته.

فَوضَى القطيع الذئب لإسقاط سيطرة الحمار، ومن يومها تعلمت أن الناس ينسون جرائم البلطجية لمجرد أن يخرجوا عليهم

بهتافاتٍ حماسية ويعدونهم بغدٍ أفضل، ويبيعون لهم متعة المستقبل مقابل الصبر على ضيق الحاضر.

وزاد الموقف حماسًا عند محاولة الشيخ عسران فتح باب المسجد للخروج وهو ينادي ضاحكًا من الداخل «يا جدعان كفاية هزار، عايزين نشوف شغلنا»، ليثبت أن البغال لا تصدق وقوعها في الفخ، والخراف لا تصدق أن الجزار يثمنها ليذبحها.

وعندما كرر الشيخ عسران جملته «يا جدعان كفاية هزار»، ارتقي النجس الموجة وصعد بالحماس عاليًا قائلًا «طبعًا فاكرنا بنهزر، عشان أنت مدور الموقف تهريج وهزار، بتهزر في قوت يومنا ولقمة عيشنا، مهو كتر الهزار خلانا نتسرق في عز الضهر»، وتبادلت الشتائم من الحشد إلى الشيخ عسران وعصبته، وزاد النجس إشعال الموقف، ثم فتح المسجد فجأة فخرج الشيخ عسران وعصبته غاضبين متأهبين لتبادل الضرب مع الناس، فتراجع البلطجية وتركوا حشود الناس متصدرة للشيخ عسران وعصبته وفي برهة تحول السباب والشتائم إلى لكماتٍ من الطرفين ومنهم من التقط حجرًا فأدمي رأس خصمه والآخر أمسك خشبة وانهال على الخصم في ضرباتٍ عشوائية.

ورأيت بعيني النجس وبعض رجاله يشعلون زجاجات المولوتوف ويلقونها داخل المسجد والناس في غفلة من أمره لصراعهم ضد عسران ورجاله، فاشتعل الحريق بالمسجد وخرج من بابه سحابة سوداء، فانتبه الناس فحمسهم النجس «عسران حرق بيت ربنا عشان يخوفكم «فتضاعف الشجار وعندما حمي الوطيس صاح النجس لرجاله «الطيبين في حمايتكم، الطيبين في حمايتكم»، فانعكست أشعة الشمس على أسنة أسلحة البلطجية ثم انطفأت بلون دماء عسران وعصبته، وأضحى الموقف مليئًا بالجرحى،وهنا ظهر

أمين الشرطة كمال حمودة مستفهمًا عما يحدث بعد اختفاء الأسلحة، فأجاب النجس،بأن الشيخ عسران وعصبته حاولوا سرقته بالإكراه فدافع عن نفسه.

وانتهى الحال بطلب الحشد تحريرمحضر ضد الشيخ عسران وعصبته بإشعال الفوضى في الموقف، ومحاولة السرقة بالإكراه. وهنا علا صوت خالد أبو شنب موجهًا التهمة علنًا بأن عسران وعصبته سرقوا سيارته،وقيدت التهم بالجملة، وأنا لا أصدق ما يحدث، قد كانت عيني تتأمل ابتسامة انتصارٍ في وجه النجس، وتذكرت كلمة قالها المجذوب منذ زمنٍ ولم أفهمها إلا الآن، حيث قال مقتبسًا من محمد نجيب «إن الجماهير التي ترفع الحاكم إلى سابع سماء، هي التي تنزل به إلى سابع أرض.. لكن.. لا أحد يتعلم الدرس».

ثم حدث شيء مهيب خارج حدود المنطق وأبعد من التخيل، انحني خالد أبو شنب واضعًا رأسه بين ركبتي النجس ثم رفعه لأعلى على كتفه، فهتف النجس «يسقط عسران»، ورددت الجموع خلفه مراتٍ كثيرة وظل خالد يطوف الموقف حاملًا النجس حتى ارتقي فوق ميكروباص ووقف يخطب قائلًا «يا أهلي وناسي اطمنوا من النهاردة ما فيش عربيات هتتسرق والموقف هيبقى ماشي بنظام فل الفل، أنا رقبتي سدادة وأفديكم بروحي، المهم لقمة عيشكم ما تتعطلش، وأديكو شفتوا بنفسكم أول ما الحكومة جت فديتكم بروحي وقولت إن المشكلة معايا وحطيت نفسي في وش المدفع، وكل ده عشان مين..!! عشانكم طبعًا.

ويكون في علمكم إللي هيجيب سيرة عسران هشرح خلقته، أمال..!! إحنا قضينا على عسران ومش هنسمح لأي حد ما بينا يجيب سيرته أو يحاول يرجع أيامه الوسخة، بينا ع الشغل، صحيح، آدي

مائتين جنيه من جيبي عشان نجدد الجامع وعشان الموقف، نظبطه ونجيب جردلين بوهية ندهن الرصيف وننضف الدنيا حوالينا، وأي حد عايز يشارك أهلا وسهلا، كله عشان الموقف».

تشجع الجميع عندما رأوا مبادرة النجس في إخراج مال لأجل تنظيف وتجديد الموقف، فأسرع كثير من الناس بإخراج الفلوس وإعطائها النجس، وتقدم خالد يساعد في جمع النقود.

وفي اليوم التالي جدد رجال النجس المسجد ونظفوا الموقف ودهنوا الأرصفة المحيطة، وهي تكلفه تقل عن ربع المبلغ الذي جمعوه، لكنهم طافوا على الجميع يطلبون بعض المال قائلين «هات فلوس عشان الموقف ولا أنت تبع الشيخ عسران..!!»، فدفع الجميع هربًا من التهمة.

الهروب هو الخوف، نعم.. ما دفعناه بالأمسِ إحسانًا صار فرضًا يعاقبُ تاركه، ومن وقتها أصبح الموقف في قبضة النجس، وتغير مسمى الإتاوة من «كارتة «إلى «عشان الموقف».

وبمجرد مرور أسبوعين من سيطرة النجس والمواظبة على إتاوة «عشان الموقف»، بدأت الأجرة تزداد فصارت إجابتي على سؤال الزبائن «الأجرة بكام يا أسطا؟ «هي «جنيه ونصف»، وبدأ الشجار مع الزبائن بعد أن نسيناه فترة طويلة، وكنت أتمنى أن أبقي على سعر الأجرة القديمة لأني لا أدفع إتاوة «عشان الموقف «لكن الأجرة صارت موحدة لجميع السائقين ولو بقيت على الأجرة القديمة سأجلب لنفسي مشاكل أكثر من مشاكلي يوميًا مع الركاب، لكن لا يهم، الركاب يتعودون سريعًا على ارتفاع الأجرة، الركاب ينسون أو يتناسون.

ومن لحظة عزل الشيخ عسران، عاد إمام المسجد القديم، لكن المصلين لم يعودوا.

وجلستُ وحدي على المقهى، أفكر في الحال الذي وصل إليه الموقف،فرأيتُ مستقبلًا أسود، وتمنيت من يطمئنني أننا سنكون بخير وليس كما أتنبأ بخراب الموقف على يد البلطجية، تركتُ المقهى بسبب مجيء المجذوب مادًا يده قائلًا «انتباه يا عسكري، الدور عليك تجيب التعيين، يلا بالخطوة السريعة»، انصرفتُ فقادني قلبي لمقر رابطة السوريين ودخلت لاجئًا لفيروزتي متلهفًا رؤية حبيبتي.

فعلمت أنكِ في اجتماعٍ فجلست أنتظرك، حتى خرجتِ بعد أكثر من ساعة وعندما وجدتيني في انتظارك، قلتِ للأنسة السورية المسئولة «نوح ما ينتظر، ده كل شيء يقف كرمال عيونه».

ثم تناولنا الغداء واطمئننتُ عليكِ وعلى صحة الجدة سندس.

وقتها أصررتِ أنني لست بخيروكررتِ السؤال عن حالي لكني ما استطعت الحديث عني، كنتُ أريد البكاء بين ذراعيكِ وكفي، فاكتفيت بحضن عينيكِ لي، وعدتُ لخيباتي.

عدتُ وقلبي يترنم قائلا
يا فيروز، إنني..
معتقلٌ في عينيكِ، ويكررُإعدامي مرات
ومستمتعٌ كطفلٍ، يترنحُ على الفرات
أو كلصٍ هوايته، سرقة أرقِ المجوهرات
وتسليمها في اليوم التالي، للسلطات
لا تسأليني كيف أحببتكِ من سنوات
و مشاعري لا تفضحها نظرات
فأنا لصٌ في الجنة
أطلب الجحيم لأتهنا
أحاربكِ قهرًا... وأحبكِ كرهًا

وسأنفيكِ دهرًا... لأعانقكِ سرًا
فـأنـا طـفـــــــلا.. وحـبـنـــا قـــدرا
وبـعـدنا كـفرا.. ولقـاؤنا سخـطـا
أنـتِ قصـــــرا.... وأنا بحـــــــرا
كـلانـا نفـعـــا.. واجتـماعـنـا غرقـا

(١٨)

نوح.. متأكدة من كذبكَ اليوم بأنك في أفضل حال، إن فوضى مشاعرك مفضوحة في اهتزاز صوتك الذي ما تعودت ترنحه حتى في أحلك الظروف، وعينيك تخفيان طاقة مكبوتة، أوجعني منظرك حين فوجئت بانتظارك لي حتى لم تهاتفني أنك في الطريق إليَّ، وبينما أفكر وأفكر، قطعت صديقتي رهف خلوة تفكيري في شرفة الرابطة قائلة «سرحان في إيه يا قمر؟»، فأجبتها «ما فيش غير الشغل»، فضحكت وغمزت بعينها قائلة

– هاد الشاب الَّ يجنن، أكيد نوح، صح؟

– صح

– شقلب حالك أول ما شوفتيه

– طبعًا، أخي كان واحشني

– متأكدة أخوكِ.!!

– غلبانة يا صبية، ما تفهمي تركيبة علاقتنا، حاجة كده من الجنة

– لكن نظرته ليكِ مفتقد منك إشي أبعد من الأخوة، افتقاد عاشق في صمت

– نوح لا يصمت عن شيء، وهو إللي مأكد أخوتنا، ومأكد أن خطة حياته تحقيق هدفه أولًا بأن يكون عنده شركة شحن عالمية وملايين، لكن الزواج شايفه تعطيل ووقف حال.

مسكينة يا رهف، لم تستوعبي نقاء وتميز نظرة نوح لي، يا ليته

عاشق كما تقولين وقتها سيتغير كل شيء إن بيده قرار العلاقة، ولكني سأعود لنفسي قائلة،لو تحقق المستحيل وأحبني، وقتها سأرفض لأني لا أليق به، محظوظة من ستحبها يا نوح، يكفي رجولتك وبرك بأبويك لو استطعت أن أقول لكل فتاة، لا تصدقي حب رجلٍ يهمل أمه أو يشعركِ لحظة أنكِ أهمَّ منها.

ونوح، وما أدراكم ما نوح أيتها الفتيات، محظوظة من سيحبها.

وتعيسة أنا بحبه، وتعيسه بعدم ملاحظته ما أكنه له، وتعيسة أكثر إن أحبني.

(١٩)

في ذكرى مولدي نقص عمري سنة أخرى يا فيروز..ليصبح انتظاري لكِ ثلاث سنوات..

نقص عمري في انتظارك، فتبًا لقلبي حين اختارك.

وكم تبقى من العمر لأضيعه في محاولة التقرب منك كحبيبٍ فتزدادين رؤيتي أخيك..!! تعبت يا فيروز وكلما التأمتْ جراحكِ نبتت جراحي.، وكلما استوطنتِ بمصر زادت غربتي، ورغم انتقالك للعيش بعيدًا عني بمسافة ساعتين، لكن قلبي يزداد تعلقًا بكِ، وأنتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر كي أزورك في رابطة السوريين، وبدأت أكسب رهاني مع نفسي بأني سأعافيك وسَأُقَوِمْ نفسيتك. وأصبحتُ أستمد طاقتي من ثباتك، وأنهل الأمل من بسمتك.

لكن، مرت سنة، نقصت من عمري سنة، تعبت.

وليس تعبي لطول المدة إنما تعبي لتوطد علاقتنا كأخوة، وكلما لَمَحْتُ لكِ عن أي سيرة للارتباط انتابتك عصبيتك، وانقلب لسانك حادًا، وصَدَرْتِ كل ما يبرهن أنني أخوكِ.

وما بين التنازل والكرامة نقف حائرين في علاقاتنا العاطفية، وأنا كقائد في مهنتي، المعلم الذي يهابه الكبار ويعظمه الصغار تنازلتُ كثيرًا لأجلكِ، دهست كرامتي انتظارًا.

كيف تجبريني على انتظار ظهوركِ على الفيس بوك لأرسل لكِ رسالة وأفتح أي حوار بيننا..!

والأوهن حين أرسل لكِ رسالة وأنتظر أن تقرأيها متشبثًا بهاتفي ساعات..!

مع أن عقلي يناشد قلبي.. مترنمًا بخواطره..

«بَطَلْ تراقبهم.. بَطَلْ تستني يشاوروك..

لو كنت هاممهم.. قبل ما تحتاجهم هيجولك

لو كنت طريقهم.. قبل ما تمشيلهم يمشولك».

لم أكابر وتنازلت على أمل أن تليني لكنكِ ازددتِ صمودًا وإصرارًا على توطيد أخوة ما بيننا، ولأني رجلُ حر، أو كنتُ حرًا قبل أن أقع في قيود عشقكِ فلن ألوم حرية قلبك في اختياره حتى لو كان اختياره كره الرجال، فلستِ ملومة يا فيروزتي، ولن ألوم نفسي فحبك ليس اختيارًا. وأنا إنسانٌ بحاجةٍ لشريك يقاسمني انتصاراتي وأفراحي قبل هزائمي وأحزاني، وبالرغم من كونك هذا الشريك فأنتِ الشخص الذي لم أخف عليه خافية باستثناء التصريح بمشاعري التي تظهر في أفعالي فتقرأيها على هواكِ، ما يهم، قُصرُ الكلام، أحتاجُ شريكًا أبوح له وأنا بحضنه لا بكلامي فقط، وأريد الحفاظ عليكِ.

وبين زحام مشاعري تلك، نقص عمري سنة، نقص عمري عام، نقص عمري اثنا عشر شهرًا، ٣٦٥ يومًا، بكل طرق الحساب نقص عمري، وأنا رجلٌ لا أحتمل الخسارة المتكررة الثابتة، لستُ أسطوريًا لأكون أحمقًا في العشق يا عزيزتي إنما أنا رجلٌ شرقي، ولذا بدأت علاقتي الثانية مع أمنية..

في رحلة عملٍ لجامعة بورسعيد حيث أوصلت فريق أشهر مدربي التنمية البشرية لإلقاء محاضرة مزدحمة بالطلاب، جلست في ميكروباصي أشرب كوبًا من الشاي ثم تصفحت كتابًا وأرسلت رسالة

أطمئنكِ يا فيروز على وصولي فحمدتِ الله، ودعيتِ أن أعود سالمًا.

ثم قادني فضولي لدخول المسرح لأسمع ما يقوله مدرب التنمية البشرية في محاضرته المزدحمة والمعلق لافتات بعنوانها الذي يجذب طموح براعم الشباب حيث كتب «خطوات النجاح»، دخلت وعيناي تتوهجان من انفعال المحاضر على المسرح وحماسة المحفز لأي شيء ساكن، وظللت أمشي بخطواتٍ بطيئة في الطرقة بين الكراسي المكتظة بالخاشعين، وبينما أبحث عن مقعدٍ خالٍ سمعت صوتًا دافئًا من الخلف يقول «لو سمحت أقعد على أي جمب»، وبينما أستدير في حرم الأنوثة ازداد علو صوت المحاضر قائلًا «لازم كل واحد يبقى أنجح واحد في تخصصه، لازم تحكي قصة نجاحك في يوم زيي دلوقتي»، ما بين دفء صوتها وحماس صوته تُهتُ في عينيها ولم أُمهِل للزمن أكثر من لحظاتٍ ولم أمهل السكون أن يحيط لساني وقد لمحت اسمها مكتوبًا على كارت معلق بشريطة زرقاء بعنقها مما يوضح أنها من منظمي المحاضرة، فسألتها «هو الأستاذ خريج كلية إيه؟ «ولم أمهلها أن تعود لكلامها الذي أتت لتقوله فكررت السؤال وقد عقدتُ حاجبي وأشحت بيدي مستفهمًا «بجد ما صدقت لقيت حد من المنظمين يا أستاذة أمنية، لأن استيعابي واقف ومش عارف أكمل المحاضرة بسبب سؤالي: الأستاذ خريج كلية إيه».

فأجابتني سريعًا لتتخلص مني «حقوق»، فضحكتُ ساخرًا قائلًا «عمومًا هطلع المسرح أسئله في المايك، ليه هو مش أنجح محامي في مصر؟!».

ويا لحلاوةِ اندفاعها قائلة «حضرتك أكيد بتهزر.!!»، لم أجبها واستدرت ماشيًا بخطواتٍ سريعة تجاه المسرح فلاحقتني.. وقفت أمامي قائلة «ممكن نتكلم بره القاعة؟».

- عشان تنادي الأمن وتقوليله إني هبوظ المحاضرة..!!

- لأ طبعًا، أصلًا عاجبني سؤالك جدًا، بيدل إن فكرك مختلف وإنك مش منقاد لأي كلام

- واضح إنك متأثرة بكلام التنمية البشرية، وهتسمعيلي القواعد العشر في كسب الناس.!

- على فكرة أنا كمان زيك، مش مقتنعة بكلام المدرب، بس طالما في ناس بتاخد منه طاقة وأمل في بكرة، يبقى حرام نمنعهم من سبب فرحتهم

- رقم موبيلك كام؟

- نعم..!!

- بقول رقم موبيلك كام..؟

- على فكرة بقول إن حضرتك محترم ومختلف ومش منقاد لأي كلام

- مهو ده سبب طلبي، ممكن رقمك بقى، ولا أطلع على المسرح

- واحد بيفهم زي حضرتك، عارف إنه مش هيمتلك واحدة لمجرد ياخد رقمها

لم أجبها وجذبتُ هاتفها من يدها وحاولت فتحه فلم أستطع لوجود كلمة مرور، ولم أهتم باندهاشها وسألت «كام الرقم السري، إنجزي «فأعطتني رقم هاتفها فحفظته بهاتفي واتصلت به فَرَنَ هاتفها بيدي فاختطفته مني وهي تخفي ابتسامتها قائلة «يا تقعد يا تخرج بره «فخرجت من القاعة وقد دخلت قلبها مقتحمًا كل ما فيه، وأثناءَ خروجي أرسلت لها رسالة «أهلا بالتي أربكتني وأراحتني، نصيحتى لا تسجلي رقمي، ولا تنتظري اتصالي فنحن لن نلتقي ثانية. لأنني من القاهرة»

وقبل وصولي ميكروباصي أتتني منها رسالة «اسمك إيه؟»، فلم

أجبها، كل ما كان بعقلي وقتها أريد إخبارك يا فيروز بكل ما حدث، أشعر أنني خنتُكِ وأريد السماح.

وقلبي يترنم بخواطره..

وجاء العيد... بلا سَرَرْ

وجاء الربيع... بلا زَهَر

والليل بلا نجم أو قمـــر

والهدوءُ فارقَ السهر

وتمضي عشرينيات عمري بلا شبـــاب

والجدران حولي لا تحوي شِباكًا أو باب

والناس مصلوبةٌ بلا قيدٍ أو عقـــــــاب

ولم القيدُ لجسدٍ عقله ســـــراب !!؟

ويؤذنُ للحبِ فينا... الأفاعي والذئـــــاب

ونبض قلوبنا لا يَضُخُ حياة أو يدفئ الأجساد

بل يزيدنا جمادًا فدمائنا ثلجٌ وعروقنا أحطاب

يا فيروز..

كان منطقيًا أن أحبك، وطبيعيًا أن ترفضي، وقدرنا ألا نفترق ونتعايش بقلوبٍ تقبض على جمر المشاعر.

(٢٠)

يا هل ترى حفظ اسمي على هاتفه.؟
لو اتصلتُ به الآن سيظهر رقمي مصحوبًا بكلمة أمنية؟
كم واحدة اقتحمها كما فعل اليوم معي.؟
هل وصل بيته.؟ هل أطمئن على وصوله القاهرة؟
تلك اللحظة التي تجد كل ما فيكَ مندفعًا تجاه شخصٍ، تتمنى أن تدخل عقله، أن تعرف تاريخه حتى تفاهاته، أن تبصر كيف يفكر، أن تعرفه أكثر مما يبوح عن نفسه، تلك اللحظة التي تتمنى ألا تنتهي وأن يبقى من جذبك بنفس الصفاء إلى الأبد.

حقيقة وقعت في حب ذلك الذي إقتحمني، جرئ، لا يخضع لحماسٍ يستخف بالعقول، ثابت، واثقٌ من نفسه، اسلوبه يكبر سنه، وأنا أحب الرجال الطاعنة في السن ولا ألتفت لسخافات الشباب بجامعتي، شكرًا لقدومك من القاهرة لأجلي، نعم لأجلي لا لأجل أي شيء آخر، لأجل أن تسرقني من آلالامي وتمنحني الحرية لمجرد أن تخطر ببالي.

متي سأراكَ ثانية.؟
كيف أجعلكَ تأتِ بورسعيد لأجلي ثانية.؟
ولماذا تأتِ أنت.؟ لماذا لا أذهب إليكَ وأستنشقُ حرية العاصمة؟
أريد أن اقتحمك وادرس تفاصيلَ حياتكَ من يوم ميلادك، وواثقة من إنصاتك لي وأنا أحكي لك كل شيء عني، واثقة من

راحتي بين يديك وبالتحديد في حضنك.

لماذا لم تحضني وسط الجموع حتى لو كان ردة فعلى الصراخ وضربك.؟

لن أغفر لك حماقتك في عدم إحتضاني.

يا أمنية، يا أنا، ما اصابك.!

كفي حماقة، كفاكِ عبطًا يا أنا.!

ولكن من حَرَمَ الجنون؟، إن في الجنون أسعد لحظاتٍ عاشها البشر، نحِ العقل جانبًا، لنودع المنطق قليلًا ونستمتع.

– ألَو، إزيك يا إسمك إي؟، طمني عليك وصلت القاهرة ولا لسه؟

– والله..!! لسه فاكرة تتصلي..!! بقالي نص ساعة في البيت يا أمنية، إي التسيب ده..!!

من ذا الذي يصدق أنها المكالمة الأولي بيننا..!!

من ذا الذي يستوعب جنون عاشقان إلتقيا، نعم عاشقان، لن أصبر لنمر بمراحل التعارف والحب، العمر أقصر من التفكير.

– هشوفك تاني أمتي؟

– هاكل وأصلي وأجيلك

– يعني قدامك مش أقل من أربع ساعات. صح؟

– تقريبًا

– يووووووه، معلش بقي هشوفك من البلكونة بس،عشان السكن بيقفلوا البوابة الساعة ١١

– المهم أشوفك يا أمنية، بس معلش يا بنتي نسيت العنوان قوليهولي بسرعة

– تنسي إزاي وانت كل يوم بتجيلي تحت بلكونتي..!

– بلاش كتر كلام وحرق بنزين، قولي العنوان
– لأ، هبعتهولك في رسالة
وفي تمام الواحدة صباحًا كان تحت شرفتي يهاتفني.
– أمنية، حاسس من حقي إحكيلك كل تفاصيل حياتي من يوم ما اتولدت لحد دلوقتي
– سرقتها منع طرف لساني، كنت هقولك إحكيلي كل سنتوفه في حياتك
– خلينا متفقين. إن ده حقي عليكي، وواجب تسمعي يعني مش بتتكرمي عليا
– طبعًا حقك، بس الأول مش اعرف إسمك؟
– نوح
– الله.. إسمك حلو ومميز زيك
– تشكر يا زوق
– يلا إحكي إحكي
– إستني أقعد على الرصيف زي الشحاتين، وهحكيلك
– بسرعة
– أنا نوح محمد نوح، ليا أخ أكبر مني وأبويا عنده محل ألبان، تقدري تقولي كنت طالب شاطر في المدرسة بس فهمت اللعبة بدري من وأنا في إبتدائي ساعة أول مرة أبويا نزلني أشتغل معاه، وقتها كان نفسي يبقى المحل بتاعي، ومن يومها وأنا بجري ورا أحلامي إن يبقالي ثروة كبيرة أوي، وإشتغلت حاجات كتير في الأجازات، بس ما حبتش أكون لبان.
وأبويا ساعدني أحوش، ولما بقيت في الثانوية إشتغلت في محل كشري، ومشكلتي مكانش عاجبني فكرة ان أبقي شغال عند حد

وأن مرتبي يبقى ثابت وافضل زي الحمار في الساقية
– قصدك الطور في الساقية
– كلك زوق، المهم، قررت أبقي من أكبر رجال الأعمال في البلد
– عملت إي؟
– إشتريت متوسيكل وإشتغلت دليفاري، كانت فترة ذل، معظم الزباين معاملتهم زفت.
بس على مين..!! أكيد مش عليا
– اشمعنا..!!
– لإني كنت مؤمن جدًا إنها مجرد خطوة لحلم كبير، لمستقبل مؤمن بيه جدًا
– وبعدين
– فضلت أحوش، وكنت وقتها عشقت السواقة، عجبني الطريق، وفضلت أحوش لحد ما جمعت مقدمة ميكروباص ٧ راكب، إشتريته مستعمل بالقسط، وبديت اشتغل بيه لنفسي، بحريتي، من غير ما أبقي عبد عند صاحب شغل.
– الله
– وأحسن صدفة حصلتلي، واد كان زميلي في المدرسة والدروس وما شفتهوش من أيام الثانوية، وبعد سنين كان معدي بالصدفة من شارعنا فنادى عليا وطلعلي البيت شربنا الشاي وقعدنا نرغي، لقيت قريبة شغال بودي جارد في كبارية، ومسمينه بلدوزر، بلطجي معارفة رهيبة، لو دخل منطقة في خناقه يقفلها دم، وقبل ما يكبر في البلطجة كان ماسك موقف ميكروباصات منطقة قريبه من بيتي إسمها حلمية الزيتون، فخليت صاحبي يكلمهولي يشغلني في الموقف
– مش فاهمة.؟

– معلش يا قطة، هفهمك، طبقة سواقين الميكروباصات والمواقف يعني البلطجة الصريحة محدش يقدر ينزل عربيته موقف إلا لو كان تبع بلطجي تقيل، أو هيدفع إتاوة تقطم وسطة تقريبًا هيدفع كل اللي هيكسبة.

– تمام، فهمت كده، بس ليه تدفعوا إتاوة مفروض السواقين تروح القسم تشتكي؟

– قسم..!! إسم النبي حارسك يا قطة مقطقطة

– بلاش تريقه، مالك؟

– إللي ماسك الموقف ده أمين شرطة اسمه كمال

– يعني حاميها حراميها

– أشك في أنه حاميها، لكن أكيد حراميها، وبعدين موقف الحلمية غير مرخص يعني موقف عشوائي ولو روحنا القسم أكننا بنسلم نفسنا

– يلاهوتي، كمل كمل

– المهم، ظبطت حالي ونزلت الموقف وكان يوم أسطوري، إتضربلي نار وإتوجب معايا أحلي واجب واتسيطت في الموقف إني تبع بلدوزر، وما دفعتش إتاوات، يادوب الإتاوه الرسمية بتاعة الحكومة

– هتلخبطني، يعني إي إتاوة رسمية؟

– ضرايب للبلد، زي تذكرة تحميل الركاب من الموقف

– إنت مش قولت إن الموقف عشوائي وغير مرخص قانونا؟

– هو عشوائي بالنسبة للقانون، لكن بالنسبة لقسم الشرطة قانوني ويتدفعله

لم أتخيل أني سأحب سائق ميكروباص يومًا، لكنه ليس سائقًا، إنه رجل أعمال بعد أن كان يمتلك متوسيكل يعمل به في توصيل

الطلبات، إشترى ميكروباص صغير وبعد فترة باعه وإشترى ميكروباص ١٤ راكب، ثم إشتري الميكروباص الثاني، بالإضافة لقدرته على تشغيل الأموال وإعطاء الأرباح، ويعمل تحت يده أكثر من عشرة سائقين، إنه حقًا معلم، حمش، رجل مكافح، وحتما سيحقق حلمة ذات يوم ويمتلك شركة أتوبيسات سياحية ومن بعدها شركة شحن عالمية وسيشتري سفينة ويصبح من أهم رجال الإقتصاد بالعالم، لقد آمنت به وأمنت له.

إنتهت مكالمتنا ثم أشاح بيده سلامًا وانصرف.

أنا لا أحلم، ولا تحت تأثير الخمر، إنني تحت تأثير ما أكثر ذهابًا بالعقل، إنه العشق. يومها لم أنم من قلقي على حبيبي أثناء سفره، إنني أخاف عليه، أخاف عليه جدا، إنه ابني الوحيد، انني عاشرته منذ عرفت الحياة، من المؤكد اليوم ليس أول لقاء بيننا، قد التقينا قبل بداية الخلق.

إنني فرحة أن يحبني رجلٌ يمتلك صفات العظماء، رغم فخرة بنفسه جلس على الرصيف لأجلي، ورغم حسابة الوقت بالمال سافر لي، وسيعطل عمل الميكروباص اليوم بالإضافة لدفعه أجرة السائق غدًا كما أخبرني، كيف لم يحسب وقته معي خسارة مالية.؟

إن لغة الأرقام تعدها خسارة لكن لغة القلوب تجدها مكسبًا لا يضاهيه مكسب.

قد جلس القائد أسفل شرفتي وتنازل عن كبرياءة لأجلي، سأكون له كما يريد.

وما يزيدني فخرًا، صراحته في حكاياته حتى لم يخفي عودة النجس للموقف.

ما أجمل أن تكون بدايتنا صادقة ونتصارح عن كل شيء ولا نخفي خافية.

(٢١)

عندما يتحول الهزل إلى الجد، نتوه بين حكمة الشيب وعبث المهد.

هل حقًا يا فيروز حكيت قصة حياتي لفتاةٍ غيرك..!! وحكيت ما لم أستطع حكايته لكِ..!!

هل حقًا وقعتُ في حب غيرك يا فيروز..!!

هل حقًا أحببت أمنية، أو على الأقل أحاول التوغل فيها وإشعال الحب بيننا..!!

هل سكنتني من اللقاء الأول..!! أم أني أهرب مني فيها واختبئ في جمالها، من سيطرتك يا فيروز..!!

من قال أن أمنية جميلة..!! نعم.. إنني القائل..

لكنها جريئة.. لا ليست جريئة إنها وقحة، قد إقتحمتني أكثر من تطفلي عليها في البداية. لكني حكيت لها عني وإستفضت في تفاصيلي، وارتحت في كلامي لها، نعم..!؟ إرتحت.!؟ أم أني أبحثُ عن منصتٍ غيرك يا فيروز..!!

لكن الوقت مع أمنية جميل، إن فيها صوتًا يناديني ويجذبني إليها..!!

ماذا لو كان مصدر إنجذابي لها مجرد إحتياج سأفيق بعد إشباعه.؟

هل ستطمئن لفتاةٍ طلبت منك المجئ أسفل شرفتها وهي لا تعرف إسمك..!!

وما العيب..!! لم نرهق أنفسنا بأسئلة تنسينا سعادتنا..!!

يا نوح، يا أيها الشعبي المعجون بأخلاق الشارع الشرقي وعاداته واعرافه، كيف تقبل أن تحب فتاة عرضت نفسها لك، أليست بهذا الصنيع عاهرة.! ما هذا العبث؟ ومن عرف العهر بهذا المنطق الغبي، ربما كان هذا عهرًا في زمن البيداء لكننا الآن في عصرنا، ولن امنع لذة عشقٍ لأحقق أعرافًا وضعت من مئات السنين، لن يتحكم في مصيري غيري،وانا مقتنع بها.

ولكن، بنطالها ضيق يُجسد قدميها المغريتان، نعم، رأيت في المسرح عدة شباب يتحسسون أقدامها بأعينهم، ربما ضيق بنطالها ليس السبب، إن لها مشية تناغمها أنوثة وتفجر تضاريس جسدها تجسدًا ممشوقًا ولينًا مسحورًا، خاصة خصرها المتزن قطرة فيفصل ما بين تضاريسها بعنفوان وتمخطر، ألا لعنة الله على أجساد النساء.

لا لا، إنها بحاجةٍ لثياب أوسع.

ولكن ما شأني أنا..!! هل أغار عليها..!! هل حقًا تمنيتُ سترها من أعين الناس..!! يا فيروز.. أجيبيني ما الذي حدث بيني وبين أمنية..!!

على كل حال، جرأة أمنية هي سر شغفي بها.

و إنني بحاجة لفتاةٍ لا تستأذن، فتاة غير متوقعة، فتاة تُحيي قلبًا جفت مشاعرة، وأمنية تلك الفتاة،سأحافظُ على الجنون بيننا وستكون لي، وسأتعافي منكِ فيروز.

ها هما يومان مرا في مهاتفة أمنية والمحادثات الطويلة على الانترنت، حتى إشتاق كلٌ منا الآخر» نوح، وحشتني أوي نفسي أشوفك وأحضنك لحد ما تزهق مني «هكذا بدأت أمنية المكالمة، فتمهلت لحظاتٍ أستوعب ما تقول وأفكاري تراودني: ما الرد؟، فأكملت «هجيلك بكرة».

فانتظرت مجيئها طوال الليل بفرحة طفلٍ ليلة عيد.

وكل ما فيَّ يتمني أن أكونَ بدأتُ قصةً حبٍ أحكي لأولادي عنها يومًا، وأمني نفسي أن الله أرسل لي من يعوضني عنكِ يا فيروز ويكون خيرًا منكِ لي.

و في محطة مصر، وصلتْ قبلي وجلستْ في انتظاري ربع ساعة، ولمجرد أن وصلت وجدتها أجمل من صورها في عقلي.

إستقبلتني ببسمةٍ لطيفةٍ ثم وقفتْ،مدت يدها بالسلام فأوصلت لجسدي شحنات الهدوء وبهجة الروح، لكني أكثر خشوعًا في حرم إبتسامتكِ يا فيروز.

كانت جريئة رغم حياء عينيها وعدم قدرتهما على مواجهتي، لم أستوعب أنها في الدقائق الأولي أمسكتْ يدي قائلة «يلا فسحني، مشيني من هنا يا أستاذ، مش كفاية مستنياك وسط دوشة القطارات، يلا خد شيل شنطتي».

رنين صوتها المبهج وتعبيرات جسدها الطفولية رغم تفجر الأنوثة فيه أربكوني، وتحيرت بين إحساسين، أهي عاهرة تحاول الشعور بصفاء الحب، أم هي حبيسة مكبوته وانطلقت إليّ دون تفكير..!

دون أي حسابات لطبيعة مجتمعاتنا الشرقية في تحفظها على إخفاء الحميمية الجسدية بين المتحابين، مجتمعاتنا حياء أو هكذا تبدو.

وانطلقنا إلى محطة مترو الأنفاق، كانت المرة الأولي لأمنية في ركوب قطار يسير في نفق، كانت منبهرة، وجريئة، لكنها لم توافق النزول على السلم الكهربائي قائلة «أنا عندي فوبيا من السلالم دي، بترعبني «ثم نزلنا على السلم الثابت وأنا فرحٌ جدًا بأنها لا تشبهكِ يا فيروز ومن تلك اللحظة صرت أبحث عما يميز أمنية عنكِ محاولًا

أن أرى فتاة غيرك، وحين ركبنا المترو وانطلق، انعكست صورنا في زجاج الباب فَسَحَبَتْ يديها لمجرد أن لمحتها تحضن كفي، وعينها لم تجرؤ على النظر إليَّ في الزجاج، كانتْ نقية، كانت فطرة الأنوثة.

لم نتكلم طوال الطريق، كنا نستوعب أن أحلامنا صارت واقعية، وعندما خرجنا من المترو عادت لمسك يدي حتى وصلنا حديقة الأزهر ويدها في يدي، تمايلت برأسها على كتفي وتَسَارُعْ نبض قلبها يبطئ كلماتها قائلة: «الله يسامحك كنت فكراك أطول من كده ولبست جزمة ماما بكعب، ورجلي وجعاني، ينفع كده..؟».

من الطبيعي أن أضحك من كلامها، وقد كان، ضحكتُ وهممتُ بلفت نظري إليها فتحول وجهها غاضبًا مقاطعة ضحكتي، قائلة «إزاي بتضحك للبنت إللي جايه هناك دي؟ «مجنونة يا أمنية، لم أرها أصلًا ولم أعرف أن بنتًا تسيُر في مواجهتنا، فالتفتُ أرمق البنت وتعالت ضحكاتي، فزاد غضب أمنية قائلة:

«وكمان بتبصلها تاني..!! وبتضحكلها أكتر من الأول..!! فعلًا كل الرجالة عنيهم زايغة».

فضحكت أكثر لاستفزازها قائلًا: أنتِ جربتي كل الرجالة عشان تحكمي عليهم.؟

فتحول وجهها للاستنكار قائلة: احترم نفسك.

مجنونة منذ لحظاتنا الأولى، تفتعل مشاكل من خيالها وتربطها بواقعنا، ثم تتهمني وتحاكمني قبل أن أنطق، وأحيانًا تسامحني في جريمة خطرت بخيالها ثم تعتذر لي، أيضًا قبل أن أنطق.

أجلستها على مقعدٍ أمام البحيرة ثم جلستُ وتركت مسافةً بيننا، لكنها لم تمهلني وتحركت فلاصقتني وهي تضحك، وقبل أن أنطق تحركتُ إلى طرف المقعد تاركًا بيننا مسافة فاصلة، فتحركت

لاصقتني واحتضنتْ يدي قائلة «أنا مش جيه من آخر الدنيا عشان تقعد بعيد»، فأجبتها مستنكرًا «الناس يقولوا علينا إيه؟»، فلاصقتني أكثر ومصمصت شفتيها قائلة «اتحرك تاني عشان تقع، وقتها الناس هيتفرجوا عليك».

– يا بت الناس هتبص علينا

– إتوكس، جتك القرف، هو أنت تطول أقعد جمبك أصلا.!؟

– شكلنا هنبدأها خناق

– لا بلاش خناق أنا مستوية، كفاية الخناقة اللي دبتها على الريق مع بنت الكلب

– مين بنت الكلب دي؟

– هو في غيرها، طبعا ماما

– نعم..!! حد يقول على أمه كده..!!

– مهو لو سعاد تبقى أمك، كنت عرفت ليه بقول كده

– أيًا كان بتعمل فيكِ إيه، لو هي أفجر من هتلر اسمها أمك ولازم تحترميها

– مكانتش عيزاني أسافر أصلًا، وهي عارفه إني رايحة الجامعة

– مهو ده الطبيعي بتاعها، ولا أنت بتحكي وتنسي.؟

– منا اتخنقت، ببقى نفسي أرجع البيت ولما أفكر في خناقة أمي وأنا مسافرة الجامعة ببقى مش عايزة أرجع

– حقها بردوا تخاف عليكي

– لو ريحتها واتخطبت للسكري هتسيبني براحتي

– مين قال كده؟

– هي بنفسها

– ما علينا، المهم ما تشتميهاش تاني وخلاص

– فكك بقى يا حكيم الحكماء، إحنا جايين نتبسط مش ننكد على بعض، وبكره هتبقى أنت أكتر واحد بيشتم ماما، ولا أنت مش ناوي تجيلي البيت؟

– تعرفي، أنا مش عيل سيس نحنوح ماشي يحب على نفسه، أنا ابن شارع، والشارع علمنا مقاسات بنت لذينة للبنت اللِّي هتجوزها، وأنت ع ميزاني تخسري، تعرفي مش مصدق نفسي إني مشدودلك أوي كده، ونفسي أتجوزك وأحقق معاكي كل أحلامي اللِّى بنيتها من أول مرة شوفتك، والله مستغربني يا بت، مش هاممني بيتكم شكله إيه، وأهلك مين، حتى لو طلعت أمك لا مؤاخذة رقاصة أو عيلتك بتوع مخدرات، كل ده مش فارق معايا، اللِّي فارق بجد هو أنت، البني آدمه اللِّي روحي بتطير وأنا معاها، ورغم لسانك الزفر وجرئتك، رغم كل حاجة عكس موازيني، رغم إننا نعرف بعض من أيام قليلة، لكن نفسي ربنا ما يخزينيش فيكي وتبقي بفستانك الأبيض مراتي قدام الناس، وقبل ما نحرق بنزين كتير عقبال ما نِطَبَعْ على بعض، وجو المحن ده، أحب أقولك إني مش بحبك، لأ، أنا بتمناكي مراتي وأم عيالي.

– هو في كده.!؟ يعني بذمتك ودينك مش بتشتغلني؟

– أنت ليه مستسلمة كده؟ طالما عندك شك إن ممكن أكون جي أقضي وقت وأتسلى..!!

– دي الحقيقة غالبًا، بس على الأقل هكون سرقت وقت حلو أوي من الدنيا والأهم باختياري

– مش هقولك غير إني هراعي ربنا فيكي أوي، فياريت تراعيه فيا

– آل تتسلى بيا آل، ده جه عليا وقت كنت بتمنى حد يغتصبني وأجيب العار لأهلي

لمجرد أن أنهيت كلامي أحسست بيدها اليمني تطوق ظهري،

ويدها الأخري ممسكة كفي بقوة حتى تعرقت، يبدو أننا على هذه الحال من مدة لكني لم أنتبه، يبدو أننا واحد.

ولأول مرة أشعر بمعني كلمة «أب «مع فتاة غيركِ يا فيروز،صرتُ مسئولًا عن أمنية. إنني أغار لكِ منها على نفسي يا فيروز.

إن الوقت الذي قضيناه معًا، رأيت في انفعالاتها كم تريد أن تستمتع بكل لحظاتها معي، ويكأنه اليوم الأخير للدنيا وكأننا وحدنا في العالم رغم احتضان الزحام لنا، وتجاهلها أن يلتفت أحد المارة تجاهنا برهن لي كم أنا محظوظ بها.

ولا شيء يريده الرجل الشرقي سوى عزلة حبيبته عن الواقع وهي معه فلا ترى غيره.

وبلغ من شراهتها وافتقادها للاحتواء أنها انفعلت في آخر اليوم ونحن في طريقنا لمحطة القطار قائلة «جتك القرف.. كنت فكراك هتوديني مكان أعرف أحضنك فيه».

– مش خايفة لو حضنتك تقلي في نظري وأشوفك بت شمال.؟!

– مافيش أسهل من شقط الشباب في مجتمع مكبوت، وأنا مش هحاسبك على كلامك

لأني فهماك كويس وأحب أطمنك إني من بعد موت بابا ما اتمنتش أترمي في حضن حد.

غير لما جيتلي تحت بلكونتي.

– إنتي غريبة أوي يا أمنية، لالالا مش غريبة بس، إنتي مربكة

– هقولك حاجة ومش هحس إني بقلل من نفسي، شوف رغم إني كبيرة وإللي في سني بيتجوزوا ويخلفوا، بس أنا عمري ما اتحضنت لا من أم ولا من أخ، وكتير أوي ببقى محتاجة طبطبة وحضن طويل،

بس للأسف مش بلاقي، عرفت ليه ما صدقت لقيتك؟

وجدتُ ردي قُبلة على كفها ثم رفعتُ يدها عاليًا فدارت أمنية في رقصةٍ رقيقةٍ وعلا صوتُ ضحكاتنا حتى توقف بعض الناس على الرصيف المقابل يشاهدوننا، ولم أبال وقبلتُ يدها ثانية وراقصتها ثم وضعت يدي على كتفها وأكملنا المسير، فقلت لها «مش قولتلك إنتي مربكة؟"

فأجابتني «وأنا ما صدقت لقيتك»، فأحكمتُ يدي على كتفها وهمستُ في أذنها «تحبي أوديكي فين؟»، فهمست في أذني «وديني ميدان التحرير

– إشمعنا؟

– عمري ما روحته، وكنت هتجنن وأروحه أيام الثورة، بس كنت في الثانوية وما عرفتش أخرج من بيتنا

– ماكنتيش هتسدي في الميدان وقت الثورة، إنتي بسكوته

– معذور، ما أنت ما شوفتنيش وأنا مسئولة جمع ورق تمرد في الجامعة، كنت بطلة

وانتهى يومنا بمرورنا من الأرض المقدسة أرض ميدان التحرير، ثم جلسنا على الكورنيش قليلًا وبعدها توجهنا إلى محطة مصر فصعدت أمنية القطار وبقيتُ على الرصيف أهاتفها حتى تحرك القطار.

– أمنية، هتوحشيني أوي، كان نفسي نقعد شوية أكتر

– أنت وحشتني أول ما سيبت إيدي، بس غصب عني لازم أمشي

لم أشعر بغياب روحي أثناء تحرك القطار، كل ما في الأمر أنني كنت أخطط كيف نجعل حياتنا ناجحة ومتي نتزوج، لكن رنين هاتفي انتشلني من التفكير بصوتكِ يا فيروز فأطفأت ما كان مشتعلًا داخلي، ونسيت أمنية من قوة نبض قلبي وأنا أسرع الخطى خروجًا من محطة القطار لألحقكِ يا فيروز حين أخبرتيني أنكِ والجدة سندس

في بيتنا أتيتم زيارة مفاجأة، أسرعت وعندما وصلت أمام شارعنا توقفت لإحساسي أني مقبلٌ على خيانة أمنية، كيف أفرح بلقائكِ يا فيروز بعد أن أخبرتها أنني أراعي الله فيها..!!

وبقيت في ميكروباصي طويلًا، وكلما اتصلتِ يا فيروز رفضتُ اتصالك، وبعد فترة هاتفتكِ أخبرتكِ أنني ذهبتُ الموقف لفض مشكلة بين الكرتجي وأحد السائقين وسأعود منتصف الليل، فغادرتِ بيتنا بعد انتظار طويل وأنا المحكم من بعيد وبيني وبينك حاجز لا أستطيع تخطيه، ثم هاتفتُ أمنية اطمئننتُ عليها في سفرها وأنا أجاهد قلبي لأتحمل سماع صوتها.

ومن تلك اللحظة قررت الجهاد ضد مشاعري تجاهك يا فيروز لأحافظ عليكِ أختًا، ولأعطي طاقة حبي لأمنية.

(٢٢)

متطابقون العشاق منذ بداية الخليقة يظنون أنهم أسعد البشر في بداية علاقتهم، ومع أنه في نفس اللحظة تبدأ قصصًا لا حصر لها على أقطار الأرض، لكن يبقى إحساس كل عاشقٍ أنه الأسعد ربما ورثنا هذا الشعور من أبينا آدم حين خلق الله له حواء، وكان آدم محقًا في مشاعره فقد كان الأوحد الأول.

فهل ما أنا فيه إحساس صادق سيدوم لقصةٍ حبٍ يتوجها زواج وتفاهم أبدي أم انها مجرد ساعات سرقناها من الحياة لتبرهن شقاء باقي أيامنا..!

لكني أحسسته صادق في كل ما يقول، وجدتني عظيمة في عينيه وأحسسته رجلًا يؤخذ من كلامه عهود العشق، ليتني أراه قريبًا، ليت سعادة اليوم تدوم طويلًا وتتكرر كثيرًا.

وكان طبيعيًا أن نقضي ليل هذا اليوم في مكالمة تليفونية مفعمة بالمشاعر، لكني وجدت مشاعره أصدق من أن يقول كلام المراهقين فقط، بدأ مكالمتنا قائلا

- إزيك يا فيروز
- فيروز مين..!؟
- طيب، هكلمهم يوصلوا البضاعة الصبح
- بضاعة إيه بس.؟ أنت بتكلمني أنا؟
- أمنية.. حبيبة قلبي، معلش كنت بتفق على شغل وما صدقت

إنك اتصلت عشان أتحجج وأهرب منهم
– ومين الست فيروز دي؟
– واحدة باتفق معاها على شغل
– طيب
– المهم قبل ما أقولك وحشتيني، لازم أقولك على حاجة كانت مديقاني منك النهاردة
– إيه بس؟
– يرضيكي مراتي تبقى ماشية جمبي لابسه بنطلون ضيق مخلي رجلها عامله زي قرطاس الشاورما؟
– وأنا مالي بمراتك، ما تدخلنيش في تفاصيلك
– اتعدلي يا بت، وما تحرقيش بنزين ع الفاضي
– أهلًا، بديناها تحكم وشغل سي السيد
– وليه ما تقوليش غيران عليكي؟
– تقصد غيران على شكلك صح؟ طبعًا ما ينفعش مراة المعلم تبقى هدومها ضيقة !
– فعلًا غيران عليكي من عيون الناس،حتى لو مش هيبقى لنا نصيب في بعض هتمنى توسعي هدومك حبتين
– على فكرة أصلا لما برجع البلد بيبقى لبسي عبايات، أصل عيب بنت الأستاذ رزق تمشي هدومها محزقة، مع إن ماما عارفة لما بروح الجامعة بلبس بناطيل براحتي
– مش عايزك توسعيها لدرجة العبايات، عارفة الاستايلات التركي والسوري، الجيبة الواسعة وعليها قميص ألوان تفرح كده، والفساتين يعني الأنوثة، لكن المنطلون بيخلي البنت شبة العسكري
– استني بس، بتقول على البنطلون، منطلون..!!

- وكمان بقول على اللمبة، لنضة، عاجبك ولا.؟
- كده لازم تتعالج بسرعة
- الخلاصة، أنتِ أجمل بالفساتين
- وأنت مال أهلك بهدومي..!!
- نعم..!!
- خلاص خلاص، بهزر والله

كنتُ متقبلة أي كلام يقوله لأني لم أجد فيه نبرة الأوامر التي تعودت عليها من إخوتي،وطالت بيننا المكالمات فتملكني صوته الدافئ حتى وقت انفعالاته وحِدَته.

وذات مكالمة طلبت منه أن يذهب لاستلام مستحضرات تجميل من أخو صديقتي العائد من أمريكا وأكدت عليه أنه سيسافر بعد الغد، وغدًا آخر يوم له في القاهرة وأعطيته رقم هاتفه لينسقوا ميعادًا وقبيل نهاية المكالمة سألني حبيبي نوح «يعني ارتبطي بيا عشان أبقى الديليفري بتاعك؟».

ثم اتصل حبيبي بأخو صديقتي واتفقا على ميعادٍ في الغد بمحطة مترو التحرير عند بوابة الجامعة الأمريكية وعند وصول حبيبي وقف ينتظره وسط الزحام، فخرجت له من بين الجموع قائلة «إيه رأيك في المفاجأة»، فأمسك حبيبي يدي بكفيه وتأمل خاشعًا في عيني وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ثم أغمض عينيه وهز رأسه وقد ابتسم حتى بانت رباعيته قبل أن يفتح عينيه «دي أحلى مفاجأة، بجد، بجد لسه مش مستوعب»، فقلت لحبيبي

- لو مش عجباك المفاجأة اعترض
- اعترض مين..!! هو أنا عبيط..!!
- لأ مجنون

- بيكي
- سيب إيدي يا كابتن أنا مرتبطة
- متأسف جدًا يا فندم، اتفضلي

نظرت إليه بكبرياءٍ مُصْطَنَعْ ثم تقدمته بخطوات تجاه سلم الخروج من المحطة، وقد كنت حريصة وأنا أضع خطتي أن أنتظره بجوار سلم غير كهربائي كي لا يجبرني على صعوده، ويا ليتني انتظرته جوار سلم كهربائي،لقد كان جنون حبيبي أعظم من خطتي، فبمجرد أن صعدت درجتين من السلم لم أشعر بنفسي وقد حملني على كتفه وصعد السلم سريعًا وأنا لست أدري هل كنت أصرخ أم كنت أضحك عاليًا، وعندما أوقفني عند نهاية السلم وجدنا حركة الزحام متوقفة وجميع الناس أصنام تنظر إلينا فنظر لهم حبيبي ببهجة وقال عاليًا «حبوا بعض، وما تضيعوش وقت، العمر قصير أوي «ثم أمسك يدي وانطلقنا نضحك ونضحك، فتقدمني حبيبي بخطواتٍ وجعل وجهه مواجهًا لوجهي ومشى بخطواتٍ للخلف وهو يقول «عايزه تعمليلي مفاجأة، يبقى استحملي جناني «ولم أكن لأتمالك نفسي وأجيبه بكلمة، كنت أستوعب أنني في الواقع وأنني أعيش تلك الحالة الحالمة وأخاف فقدها، مع حبيبي أتوه من فرط السعادة، وبينما أنا في حالتي انتشلني حبيبي بصوته قائلًا «صحيح، مين الواد إللي كلمني إمبارح؟»،فأجبته

- ده شغال في السوبر ماركت إللي قدام السكن
- بس حلوة الفكرة، وأنا شربتها ولا توقعت لحظة إنك بتشتغليني
- أي خدمة يا معلم

ومشينا في خفة طيف ماضية مريح، قطعنا ميدان التحرير بقلوبٍ

متحررة في اتجاه كوبري قصر النيل وقبل المرور بين الأسدين أشرت بيدي «عايزه أمشي كده»، فضحكَ حبيبي قائلا

– عارفه كده بيودي فين؟

– ماليش دعوة عايزه أمشي كده بجد

– عيوني، يلا بينا

وانطلقنا نتمخطر وكفُ حبيبي يحتضنُ كفي بحنينٍ أزهر أنوثتي.

مع أني تعمدت أن ألبس اليوم ملابس أضيق مما كنت عليه في المرة التي أغضبته فلم أجد منه ما يهيننني أو يشعرني أن الأنثي خُلقت لتلبي رغبات الرجل وتنفذ أوامره لتشعره برجولته، كان لينًا ولم يعلق بكلمة على ملابسي وأخبرني أنني جميلة جدًا، لكن عينيه كانتا تغلفاني بغيرته، عيناه قالتا ما لم يقله لسانه فأحسست أن له حقًا عليَّ لصدقهِ لا لتملكه.

ووعدت نفسي أنني سأفاجئه في المرة القادمة بالملابس التي تمناها.

(٢٣)

اتجهنا كما أشارت أمنية..

في نزلة الكوبري إلى الكورنيش بين ابتساماتٍ تليقُ بعهود العشق، وفجأة قبضتْ بكفيها على معصم يدي اليمني واختبأت خلف ظهري مصدرةً صريخًا مكتومًا، فلم أستوعب سببها، لقد سافر عقلي ببساط الذاكرة إليكِ يا فيروز عندما أمسكتِ معصمي بنفس الطريقة ونحن نعبر الطريق حين لمحتِ شابًا يصفعُ فتاته بالقلم على وجهها،لكن أمنية قطعت ذكرياتي معكِ قائلة «بترعب من الكلاب «فانتبهت لكلبٍ متسول يمر جانبنا، ثم نظرت لأمنية وأري ابتسامتكِ في وجهها يا فيروز فابتسمتُ لكِ أنتِ يا فيروز في هواجسي، وكانت أمنية تمعن النظر في وجهي فقالت» للدرجادي خفت عليا؟».

كلٌ منا يفسر ما يراه من منطلق مشاعره، لقد فسرت أمنية عبث ملامحي الغارقة في ذاكرة تلامسي مع جسد فتاة أخرى خوفٌ عليها، وفسرت توهان ملامحي في رؤية ابتسامتكِ بخيالي يا فيروز، دفاعًا عنها. مسكينةٌ أنتِ يا أمنية، ومسكينٌ أنا فيما لم أتوقع حدوثه.

تداركتُ نفسي وأطفأتُ هواجسي قائلًا «فزعتيني عليكي، قلت شافت إيه رعبها أوي كده «وأكملنا نزول الكوبري في تخبطٍ ضحوك.

وعند عبور الطريق تمنيتُ الإمساك بيدها لكني ما استطعت، قد كانت تبدو أنتِ يا فيروز بكامل هيئتك وبطغيان حضورك.

«ربنا يباركلك فيها وتتجوزوا قريب «هكذا استقبلنا بائع الورد

على الكورنيش وهو يمد يده بوردتين، فأجبته «متجوزين ومخلفين»، فرد البائع «استحالة تكون وشوشكم منورة كده وأنتم متجوزين، كبيركم مخطوبين ولسه ما عرفتوش كتير عن بعض عشان كده هيمانين»، أضحكني قوله فأجبته «هيمانين، ده أنت فيلسوف بقى، خد يا سيدي».

ومددتُ له خمسة جنيهات فلم يأخذها وقال «دي ما تجيبش تَمَنْ وردة واحدة يا أستاذ»، فاندفعت أمنية» مش بحب الورد، لسه عندنا مصاريف مِتَلْتِلَة «وأخذت النقود ثم تخطتني فتبعتها ضاحكًا مشيرًا للبائع بالسلام قائلًا» مش كنت خدتها قبل الحكومة ما تحسب حسبتها».

ولكم جذب برج القاهرة أنظار العشاق فأشرتُ إليه «يلا نطلع البرج «فجحظت عينا أمنية قائلة «على جثتي، استحالة أطلعه لو هتديني مليون جنيه، بترعب من المرتفعات».

– الله الله، يعني فوبيا من الحيوانات وكمان من المرتفعات، ده غير فوبيا السلالم المتحركة

– إن كان عجبك

– صبرك، وربنا لهنسيكي أي فوبيا، طيب يلا نركب مركب

– نعم..!! أنا أبقى في نص الميه..!! والله ما يحصل أبدًا على جثتي

– ليه محسساني إنها جثة نابليون..!! ما تقولي بخاف من الميه وخلاص.

يعني نضيف كمان فوبيا المراكب..!؟

– أينعم

– بتخافي من إيه تاني؟

– مش بخاف، بترعب

– يا جمال كلمة «بترعب «من لسانك

- بلاش تريقه
- والله بحب حرف الراء منك أوي، بحسه حرف ابن ناس وشيك
- رخم
- نتكلم جد، إزاي تخافي من المراكب وانت من الإسماعيلية وكمان جامعتك في بورسعيد
يعني محافظتين على البحر
- حكمة ربنا، ولا هتعترض..!!
- ما نقدرش نعترض يا ملكة
- ملكة..!!
- مليكتي
- أيوه كده
- تحت أمرك يا مليكتي
- تعرف بقالي ٣ سنين في بورسعيد، وعمري ما ركبت المعدية بتاعة قناة السويس.
ولا عمري روحت بورفؤاد مع إني هتجنن وأروحها.
- مصيري هركبك المعدية، ونروح بور فؤاد سوا
لم أتوقف عن الكلام، ولم أترك مجالًا للصمت في محاولات طرد هواجسكِ يا فيروز، كنت أبارز ذكرياتي بلساني.
وأتساءل كيف حضرتِ لعقلي بعد هذا الغياب..!! وحضوركِ طاغٍ يُخفي مبهرات الواقع..!!
يا أمنية ما ذنبكِ أن تتجسد فيكِ فتاة أخرى..!! حتى صوتك وتمايلك، نظراتك للأعلى، إنها احتلت أدق تفاصيلك الخاصة التي لم تفعلها يومًا، كيف أهرب منها..!! كيف أهرب منكِ يا فيروز.!!

عندما يجني القدر ضرائب مشاعر الماضي فيرسل هواجس تفسد عليك متعة الحاضر.

تبًا لماضٍ أشقانا استحضاره، وتبًا لكِ يا فيروز.

وفي طريق عودتنا تعمدتُ أن أجذب أمنية للسلم الكهربائي فصرخت ولفتت الناس لنا، وأصررت ودفعتها للسلم فوقفت جانبي تخشى النظر لأسفل وخبأت عينيها في كتفي واحتضنت ذراعي إلى أن وصلنا آخر السلم فضربتني في كتفي وقرصتني وهي تقول «أنت شرير، شرير «كنتُ أستنجد بها منكِ يا فيروز، أستعيذ بأمنية منكِ، يا أمنية انتشليني مما أنا فيه ولو بسلبياتك، كوني مختلفة في كل شيء، إنني عالق بكِ في لحظةِ غرقٍ وأثقالُ الماضي تسحبني لأعماق ذكرياتي.

كنتُ بالأمس أقول:أجمل ما في الحب الثاني أنه يثبت أننا ما زلنا على قيد المشاعر، وأن بمقدورنا التعايش مستمتعين بالتعارف على تفاصيل شريكٍ جديدٍ للحياة، لكني اليوم اكتشفت عكس ذلك بعد أن تبخرت نشوة التعارف وتلاشى شغف بداية قصتي مع أمنية، وجدتني أكره تكرار بدايات التأقلم ولا أطيقُ كونها لم تعاصر تاريخي ولم تعايشني مثلكِ يا فيروز، شاخت روحي على التعارف والرجفة الأولى عند بداية كل شيء معًا، أريد أن أكمل من حيث وصلت مشاعري في علاقتي معكِ يا فيروز، لو كان الأمر بيدي لاستنسختُ فتاة تحمل صفاتك وتفاصيلك يا فيروز، وتملك ما عشتيه معي من تدرجٍ ونضجٍ وصعودٍ وهبوطٍ لكني سأضيف عليها أن تبادلني نفس مشاعري.

فما ذنبَ أمنية.؟ إن الأيام معها جميلة، لكن هواجسي وشيخوخة روحي قلبوا مذاق كل شيء.

قاومت يا فيروز وحاولت الاستمتاع ببكارة قلب أمنية، ومراودتها للأيام ببساطة، وزيادة تعلقها بي كل يوم أكثر وأكثر، وكان في إنجذابها السريع لي شيء لا أفهمه، كنت أحس محاولتها تعويضي عن شيء، ويكأنها عرفت خبايا أوجاعي.

تارة أجدني أناني، وتارة أجدني ضحية الذكريات والأماني فأقف في صفي وأشجعني على المسير مبررًا «بكرة تنسي، وتعوض أمنية».

وعندما عدت البيت لم أجد أبي فسألت عنه أمي فأخبرتني أنه وبعض جيراننا اجتمعوا لتنظيف المجذوب بقص شعره وغسل جسده.

(٢٤)

يا أيها العبثُ رفقًا بنا، فعقولنا لم تعد تستوعب ضخامة الجرعات الهزلية.

لقد طال المجذوب بلاءًا مضحكًا لحظة قرر أبي مع بعض الجيران أن ينظفوه ويحلقوا شعره، وألبسوه ملابس نظيفة ووضعوا له عطرًا، وأطعموه، وتركوه.

فكانت المصيبة..

تسول المجذوب كعادته يهلل في الطرقات، ويهتفُ هتافات لم تعد من الكلام المباح في ظل حالة الطوارئ التي تعيشها البلاد بسبب عدة أحداثٍ إرهابية لم يتوصل لمرتكبيها وتفجيراتٍ متتالية، وانطلق المجذوب هاتفًا «يسقط الخونة، يسقط الإنجليز، يا ناس يا عاقلين ما تصدقوش إن ريا وسكينة كانوا سفاحين وبيقتلوا الناس العادية، ياعالم ياهووو ريا وسكينة كانوا أبطال مصريين بيقتلوا جنود الإنجليز وعشان كده الاحتلال طلع إشاعات إنهم سفاحين عشان يخفي بطولاتهم ومحدش يقلدهم، يا ريس المركب بتغرق، إحنا مش حِمل لعنة الدم، يسقط الخونة وعاش محمد نجيب البطل»، وانطلق المجذوب ثائرًا حتى وصل أمام قسم شرطة حي الزيتون، فصاح في أحد عساكر الحراسة «إنت واقف بسلاحك وساكت..!! إنت خاين وسايب الاحتلال بيلف براحته في الشوارع..!! خليك بطل واحم المصريين».

حاول العساكر إبعاد المجذوب لكنه أمسك في سلاح أحدهم

وحاول أخذه، وظل يهتف «يسقط الخونة، يسقط الخونة»، ثم بدأ رشق العساكر بالحجارة وزاد في السباب والهتاف حتى سمع المأمور جَلَبَة فخرج وأمر بحبس الإرهابي، وقيدت له جرائم بالجملة فقد كان مظهره يوحي بالتعقل وكلماته لا تخرج من مجنون، وأُلقي في غياهب التخشيبة عدة أيام على ذمة التحقيق، وعندما تبين أنه مريض عقلي تم إيداعه مستشفى الأمراض العقلية.

ما ذنب المجذوب أننا نظفناه..!! أم أنه قد يأتي البلاء للمتسولين على هيئة تنظيفهم.

«ألو، حبيب قلبي، إيه شغلك مخليك تكنسل عليا من الصبح؟»

هكذا بدأت أمنية المكالمة فوجدتني في حالة هستيرية من الضحك وأنا أستمع لحكاية المجذوب على مقهى الموقف، فحكيت لها سبب انشغالي، فشاركتني الضحك، ثم انساب كلامنا فحكيت لها قصة المجذوب من وقت أن كان رجلًا محبوبًا من جيرانه وكيف تطورت حالته، وكانت أول مرة تأتي سيرة المجذوب في كلامي مع أمنية فأصرت أن آتي لها بكتاب «كنت رئيسًا لمصر «فأجبتها «ده من أوجع الكتب إللي قرأتها، عيوني هشتريهولك»، فأجابتني «عايزة نسختك».

– مش بخرج كتبي بره مكتبتي، خصوصًا إني بشخبط فيهم وبحط علامات كتير

– مش هقرأ غير نسختك، وكمان هاخدها هدية

– بتهزري..!!

– وحياتي، أهو تبقى حاجة من ريحتك ملازماني

– تحت أمرك يا مليكتي، إنني طوع أمرك ورهن إشارتك

– شطور يا أمور، تعرف أصلا كنت متصله أسألك عن حاجة في راسي

- في راسك.؟ تبقي قمل
- بطل قرف، المهم يا نوح، لو أنا بقيت لا دينية، هتسيبني؟
- تقصدي إيه؟
- يعني لا دينية، أبقى مش معترفة بدين غير الإنسانية والخير
- طيب مهو ربنا خلق الأديان عشان الإنسانية والخير
- تقصد إنك هتسيبني لو ما بقيتش على دينك؟
- إيه الهبل ده؟
- ياعم بهزر، الله..!! بس كتير ببقى عايزة أسيب البيت وتبقي كل حياتي بحريتي، من غير ما حد يفرض عليا رأيه أو يتخانق معايا، بكره المجتمع الذكوري المعفن ده وكمان ابقى متحررة من أي قيود، حتى الدين نفسه، أبقى عايشه بالانسانية وبس
- قلبي، فاهم كل اللي بتقوليه، بس مش معني إن أهلك فيهم عيب كبير يبقى كلامك صح، ما تبقيش زي اللي لقي بيته مليان صراصير راح مولع في البيت كله.
- والله أنت ربنا بعتك ليا عشان ما أهربش من أهلي أو انتحر تاني، إوعى تسيبني
- ما حدش بيسيب روحه يا أمنية قلبي، على فكرة حبي ليكي مجرد رد فعل لطيبة قلبك بس ده ما يمنعش إن لو صفحة من كتابي اتقطعت هولع فيكي

طالت مكالمتنا ولم أترك أمنية إلا وقلبها يضحك ثم أنهينا المكالمة، وطلبت شاي، مرت دقائق وتم إذاعة خبر في التليفزيون بالإفراج عن «حبيب العادلي «وزير الداخلية الذي قُتل الثوار وقت خدمته وكانت الثورة ضده، فاضطربت أنفاسي وأعصابي وتركتُ المقهى ولم أرتشف رشفة من الشاي.

(٢٥)

تعمدتُ أن يأتي حبيبي قبلي.

وينتظرني في موقف ميكروباصات بورسعيد، وعندما أقبلت عليه توهج بؤبؤ عينيه خشوعًا في حرم أنوثتي وأنا أرتدي جيبة واسعة وقميص مليء بالورد، وقضينا يومًا متعته مُضَاعَفَة. وقتها سألتُ نفسي: لمَ لا تعيش الأنثي دورها الحقيقي وتستمتع بمكانتها الطبيعية وتتعايش بمشاعرها التي يجب أن تكون عليها..؟! لم كثير من النساء تسترجل في طريقة الكلام والملبس وحتى المشية..؟!.

كان هذا أول يوم أدرك فيه أنوثتي الحقيقة وحبيبي يحتضنني بعينيه، شعرت أنني أخف من الفراشة وخطواتي واثقة كملكة، وقال كلمته «أنتِ في الفساتين أجمل بكتير يا أمنية».

ومع أني أعلم حب حبيبي لكتبه وعدم تفريطه فيها حتى أنه لا يعيرها أحدًا، لكنه أعطاني كتابه قائلًا» حافظي عليه،عشان لو مالقيتهوش في بيتنا يوم فرحنا مش هدخلك وهسيبك بفستانك على السلم».

وما أجمل أن يختصني بأشياءٍ تثبت خصوصية مكانتي بقلبه دون الجميع.

عدت إلى السكن.. تحركت أصابعي تقلب الكتاب لتجول عيني سريعًا بين أسطر الفهرس فخطفني عنوان الفصل الأخير لأتعرف على شخصية تاريخية لم أعرف عنها قبل اليوم سوي اسمها.

وبدأت التعارف عليه بحدثٍ لم أستطع تصور مشاعره ووقع صداه على صاحبه وقتها، حين أتى ابن محمد نجيب يسأله أثناء احتجازه إجباريًا في فيلا بمنطقة المرج، قال الابن لأبيه «هل حقًا كنت أول رئيس لجمهورية مصر العربية يا أبي؟»، فأجاب الأب «نعم يا ولدي أنا الرئيس الأول لمصر»، فنظر الابن نظرة تكذيبٍ لأبيه وهو يعرض له كتابه المدرسي قائلًا «لكننا ندرس أن الرئيس الأول لمصر هو جمال عبدالناصر»، وطال الحوار بين الأب وابنه حتى انتهت الزيارة وغادر الابن، وبقي الأب وحيدًا بين قططه وكلابه وقد داهمته بطولاته فداء وطنه مصر الذي أخذ لقب الجمهورية بسببه، وهنا أدرك محمد نجيب كيف يزور التاريخ للأجيال المعاصرة ويسرق الرجال بطولات بعضهم البعض.

ذلك البطل الذي شارك في ثورة ١٩١٩ وقت كان شابًا، وكان أحد أبطال حرب فلسطين برتبة لواء، وعندما أدرك أن هزيمة الجيش سببها فساد الملك فاروق وحاشيته وخنوعهم لأوامر الاستعمار البريطاني، قرر البطل نجيب بالاتفاق مع مجموعة من الضباط الصغار يحملون نفس العقيدة القتالية والتفاني في وطنيتهم تجاه مصر وشعبها في حركة أسموها «الضباط الأحرار»، قرروا جميعًا أن ينقلبوا على الملك ويخلصوا مصر من براثن الاستعمار وأمضوا سنواتٍ في التخطيط لهدفهم.

حتى أحكم البطل خطته وأطلق صغار ضباطه للأماكن الحيوية في انقلابٍ سلمي دون إراقة دماء يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان من أشهر ضباطه جمال عبدالناصر ومحمد أنور السادات، وبقي القائد في بيته بحي الزيتون في انتظار رنين الهاتف ليخبره رجاله باتمام الانقلاب، ونجح الأبطال، وسيطروا على مفاصل الدولة وأذاعوا خطابًا فحواه

أن الفساد الذي حل بالجيش يجب تطهيره، وأن الذل الذي يعيش فيه الشعب يجب إنهاؤه والاستعمار يجب إجلاؤه، وعندما احتفي الشعب بذلك وتجمهروا في الشوارع بسبب معاناتهم الفقر والجهل والظلم وقتها تحول الانقلاب إلى ثورة شعبية يتزعمها محمد نجيب ومن أسفله الضباط الأحرار.

وتم إجلاء الملك فاروق ورفض نجيب إعدامه وأعطاه التحية العسكرية وأطلق له المدافع عند رحيله لأنه تنازل عن السلطة دون أي معارضة وحافظ على دماء الجيش والشعب، وبدأت مصر في طريقها لإعلان الجمهورية بدلًا من الملكية، وتم تشكيل مجلس قيادة الثورة برئاسة نجيب وينوبه عبدالناصر.

وطاف محمد نجيب معسكرات الجيش وقري الصعيد في حفاوة جماهيرية ضخمة.

وهنا ظهر الخلاف على طريقة حكم البلاد وإنقسم الجيش لشقين، شق مع محمد نجيب يريدون الديموقراطية ووضع دستورٍ لمصر، وأن يعود الجيش لثكناته ويكون الجيش تابعًا للسياسيين ويقوم بدوره في حماية البلاد لأن القيادة العسكرية لا تعرف سوى الأوامر غير القابلة للمناقشة وهذا بطبعه يناسب ساحات القتال فقط ولا يناسب الجماهير المدنية التي ترى التشاور أساس الديموقراطية، وكانوا وقتها مدركين انهيار ألمانيا بسبب الحكم العسكري على يد هتلر، وضياع إيطاليا بسبب الحكم العسكري على يد موسيليني.

والشق الآخر مع جمال عبدالناصر يرون أن الحكم للجيش، وأن مصلحة البلاد في اتخاذ أوامر حاسمة وتنفيذها في وقتها وأنه لايوجد وقت لإضاعته في التشاور المدني حتى علا مبدأهم «إما الثورة أو الديموقراطية؟ «وكأن الثورة عكس الديموقراطية..!!

وزادت شعبية نجيب وأصبح الشعب مناصره بالإضافة لبعض أسلحة الجيش، وقويت شوكة عبدالناصر في الجيش وصار معظم الضباط الأحرار مناصريه.

وصار الخلاف محصورًا في كلمتين «من يحكم؟».

حتى وجد نجيب أن البلاد ستدخل حربًا أهلية والجيش سينقسم ضد بعضه، ويتناسون وجود الاحتلال الإنجليزي، فتجنب نجيب الخلاف خوفًا من الدماء ووافق على مضض على تعيينه رئيسًا للجمهورية وتولية عبدالحكيم عامر منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة.

وعن هذا يقول نجيب «أعترف الآن أن هذا خطأي الكبير الذي وقعت فيه، فقد شعرت بعد قليل أنني أصبحت في مركزٍ أقل قوة بعد أن تركتُ قيادة الجيش».

وتكاثرت الصحف على نشر قرارات نجيب وتصدرت صوره الصفحات الأولي عالميًا، وبالتدريج بدأت صوره تقل ظهورها بقرارٍ من ضباط المجلس حتى بدأت ظهور صور جمال عبدالناصر متقاسمًا نجيب كل شيء، وعندما وجد نجيب نفسه رئيسًا صوريًا، قدم استقالته.

وهنا كان أكبر اختيار شعبي في حشودٍ ضخمة تطالب برجوعه رئيسًا، وهذا ما دفع مجلس قيادة الثورة لرجوع نجيب رئيسًا لجمهورية برلمانية تأخذ قراراتها من البرلمان، مع أنها كانت قبل استقالته جمهورية رئاسية زمام أمورها بيد الرئيس، فعاد رئيسًا صوريًا مجمد القرارات، وجمال عبدالناصر رئيسًا للوزراء وبيده مفاصل الدولة.

وبدأت الانقسامات تزيد وتزيد، وصارت الإضافة المرجحة لكفة نجيب أو كفة عبدالناصر هم جماعة الإخوان المسلمين، الذين كانوا يوافقون قرار حل جميع الأحزاب السياسة وبقاء الإخوان كونهم جماعة أو حركة، كأن الإخوان المسلمين يريدون بذلك السيطرة على

الحكم دون تحمل المسئولية، وهنا يقول نجيب «لم أتخيل أنهم سيغيرون موقفهم ويقفون في صف عبدالناصر، فكان استقطاب عبدالناصر للإخوان هي أهم ضربة سياسية في حياته ولولاهم ما وصل إلى الحكم، لقد اشتراهم ليبيعني ثم باعهم واشترى السطلة المطلقة».

وفي حادث المنشية بينما يلقي جمال عبدالناصر خطاب جلاء قوات الاحتلال وسط عشرة آلاف شخص، أُطلِقَ عليه عدة رصاصات، وبهذا الحادث ضرب عبدالناصر أكثر من عصفور بحجر واحد، ضرب الإخوان وضربني».

انقلبت الأمور على نجيب عندما توجه لمكتبه في القصر الجمهوري لم يعطه الحرس التحية العسكرية وتم إعفاؤه من منصب رئيس الجمهورية وحبسه عبدالناصر في بيته لمدة ثلاثين عامًا بتهمة تحالفه مع الإخوان المسلمين، وصار عبدالناصر رئيسًا.

يقول نجيب «لم ألجأ للقوة ورفضت اعتقال مجلس قيادة الثورة، ولم أحرك القوات الموالية لفرض قراراتي خوفًا من انقسام الجيش والانخراط في حرب أهلية، وبعد مرور ٣٠ سنة أعترف أنني أخطأت فلو كنت واصلت الصراع، ولم أنسحب تحت أي شعار براق أو عاطفي أو أخلاقي، لما وقعت مصر في المصيدة العسكرية، ولكانت قد تجنبت دفع الثمن باهظًا من حريتها ومن دماء أبنائها في داخل المعتقلات، لقد أكلت الثورة أبناءها وكنت أحد من أكلتهم، حتى أنني سمعت في الراديو خبر وفاتي عدة مرات وأنا في معتقلي بفيلا المرج، وكنت أتابع الأخبار والحزن يفتك بي بسبب ما وصلت إليه مصر من هزيمة في الحروب التي خاضها عبدالناصر بسبب انخراط الجيش في السياسة وتغافله عن مهمته الأساسية في حماية البلاد، وطلبت كثيرًا أن أعود جنديًا في صفوف الجيش لأدافع عن

وطني فرفض عبدالناصر فطلبت أكثر أن يستخدمني فدائيًا ويربطني بالديناميت ويلقيني من الطائرة على أي نقطة للعدو فرفض أن يخرجني من المعتقل، وقد أفرج عني محمد أنور السادات عندما صار رئيسًا فلم أصدق أنني عدت حرًا، بعد أن دفعتُ ثلاثين عاماً في المعتقل مقابل سنة وبضعة أشهر في الرئاسة».

أنهيت الكتاب في يومين عشت فيهم مع بطلٍ لا أعرف كيف جهلت سيرته طيلة السنين، والأحداث التي شكّلت تاريخ مصر الحديث وفرضت شرائع الحكم.

وجدت تشابهًا بين محمد نجيب وثوار يناير، فكما أنه سجن ثلاثين عامًا مقابل سنة وبضعة أشهر في الحكم، فإن الثوار عوقبوا على الأيام البسيطة التي استنشقوا فيها حريتهم، ولا ندري لمتى سنعاقب وندفع ثمن ثورتنا.

(٢٦)

وفي الإسماعيلية، أضاء التعجب عين أمي عندما عدت إليها لأقضي يومين، لمجرد أن رأتني تمعنت طريقة ملابسي الجديدة، قالت «التغيير ده وراه راجل»، فأجبتها بابتسامة خجل، فألقت المنشفة على الأريكة واندفعت إلى تعضني بلسانها «وجالك أمتي نِفس للرجالة..!».

– من ساعة ما لقيت واحد يستاهل

– وعرفتي إنه يستاهل إزاي..!! عمل معاكي إيه..!!

– طبعا عمل، وعمل كتير أوي، وعمايله تثبت إنه دكر بزيادة

– نعم يا روح أمك..!!

– إيه يا سوسو، ما تفكي كده، أنا متقدملي عريس، وبحبه أوي

– ولما نفسك افتحت ع الجواز، مش حرام تسيبي اللي مستنيكي من زمان..!!

– ما حدش قاله يستني، ومليون مرة أقوله مش بطيق أشوفك ومش هتجوزه، لو صعبان عليكي أوي كده إتجوزيه إنتي

– ما تلمي لسانك يا صرمة، ولا إغلبوهم بالصوت..!

– ماما أنا جايه مبسوطة أوي، وعايزه نظبط يوم لنوح يجيبي يتقدملي، وكنت متأكدة إنك هتجيبي سيرة السكري وتنكدي عليا، ورحمة بابا بلاش كده، أنت متأكدة استحالة هوافق على السكري، استحالة، ولا نسيتي.؟

– نوح بتاعك أكيد من مصر

- بالظبط كده، هكلم الأستاذ عبدالشافي وطارق وأشوفهم فاضيين إمتى
- الأهم عمك عبده، ولا عايزه الواد يجي يلاقي اللي مقابلينه شباب من سنه يقول عيلتك مالهاش كبير؟
- وماله أجيب عبده إللَّى إنتي ماسكة مصالحه، فتشحنيه ويطفش الجدع أول ما يجي. صح؟
- ويا ترى عيزاني أقابله ولا بلاش؟
- دي حاجه ترجعلك، عمومًا أنا مفهماه كل تفاصيل حياتنا، وهو جي عشان بيحبني ومش فارق معاه أي حاجة
- يا محني..!!
- الصبر من عندك يا رب
- ربنا يلطف بينا
- أهون عليكي تعيشي في مصر وتسيبيني.؟
- هبقى أجيلك كتير، وإنتي إبقي تعالي غيري جو عندي في القاهرة
- هو علمك تقولي القاهرة بدل مصر..!! شكله مسيطر
- بصراحة مبسوطة بكل تغيير، وهو يستاهل أوي
- ويا ترى شغال إيه،؟ وعنده مِلك ولا هيلف بيكي في شقق إيجار؟
- أخيرًا أفتكرتي تسألي عن جوز بنتك
- بعد الشر، ده لسه ولا نعرفه
- بكره تعرفيه وتحاولي تشقطيه مني
- إتظبطي، وما تتوهيش. شغال إيه إحكي؟
- مخلص كلية تجارة، وعنده مكتب رحلات فيه ٣ميكروباصات بتوعه، وكمان شغال في مكتب محاسب قانوني، يعني رجل أعمال شامل
- هي الميكروباصات بقيت رجال أعمال؟

- على فكرة تجار البهايم اسمهم رجال أعمال
- يعني عيزانا نناسب بتاع ميكروباصات؟
- على فكرة طارق ابنك شغال مبلط
- بس بيدرس في كلية هندسة
- قصدك في معهد هندسي خاص
- المهم هيبقى باش مهندس
- ونوح خريج تجارة، يعني محاسب قد الدنيا
- أخ من لسان الأفعى
- تربيتك يا حجة
- طيب يلا غيري هدومك عشان تحطي الغدا أخوكي طارق قرب يرجع من الشغل وهيجيب منى تتغدى معانا
- لسه راجعه من سفر، مش هعمل حاجة أعتبريني ما جيتش
- طيب جُري ناعم عشان أوافق على سي نوح، ده حتى اسمه مش سالك ع اللسان
- مصلحتكم إنه يجي هنا، بدل ما أنا إللِّي أروحله وما تعرفوليش طريق
- عرفاكي تعمليها، ما أنت قادرة وفاجرة

هكذا أمي تفسد أسعد لحظاتي، تعاملني كَدُرتها لا كابنتها، ومع إن اسمها سعاد لكنها سر تعاستي ومع ذلك افتقدها كلما بعدت، أفتقد حتى شجارنا، ولا أسوأ من حظي اليوم بقدوم منى الفتاة التي سيخطبها طارق، وتُفَضِلُهَا أمي عليَّ وتاخَدِ مُنِي لها مبررة أنها ستصبح زوجة أخي حتى تحيرت كثيرًا أيُنا ابنتكِ يا سعاد.!! ولكن حظي لم يكن سيئاَ بالكامل، منى رحلت بعد الغداء مباشرة، وفاتحت طارق في موضوعي بعد أن أعددت له الشاي

- طروق، بما إني أختك الكبيرة وعارفه نِفسك أسيبلك البيت

تتجوز منى فيه، فأنا قررت أتجوز وأسيبلكم البيت
– ومين اللّي أمه داعية عليه تصيبه لعنة وخراب..!
– شاب جدع هيعجبك أوي، مجتهد، والأهم متجنن بيا
– هو من ناحية مجنون فدي حاجة مفروغ منها، لمجرد إنه يتقدملك
– المهم تحب يجي يقابلك إمتى؟
– خليه يجي يوم أجازتي
– الأحد يعني؟

هنا تدخلت أمي بعد صمتٍ وهي تتابع حوارنا بوجه عبوث «مش تسألها العريس منين يا طارق ولا هنقابله كده وخلاص «فأجابها طارق وهو يفرد ظهره على الأريكة قائلًا «حتى لو من المريخ مش مهم، طالما بنتك عيزاه، وما تنسيش تكلمي أحمد أخوكي».

ثم توجهت لبيت ابن عمتي الأستاذ عبدالشافي حكيت له عن نوح، فهو خير من سيقف معنا لأنه لا يعجبه حال أمي وإخوتي معي، بالإضافة لكونه ثوريًا على العادات والتقاليد المعرقلة للحياة ثم هاتفت حبيبي أخبرته بما جرى، وطلبت منه أن يرسل رسالة لأكبر إخوتي أحمد في السعودية يطلب يدي منه، وانتظرنا يوم الأحد، كنت متلهفة منذ زمن لحبيبي الذي أختاره يدخل بيتنا طالبًا يدي للزواج، ليحررني من القهر الذكوري، ولمجرد أن أخبرني بركوبه من القاهرة متجهًا «الإسماعيلية" أصابني تخدر من فرط السعادة وزاد ارتباكي، وكانت منى تهدئ من توتري، لكنها لم تكن سعيدة وغيرتها كانت تلطخ ابتسامتها المصطنعة، وأمي ذهبت لعملها وأخبرتنا أنها ستعود مبكرًا.

وأصدق السعداء كان أخي الأصغر «على».

وبعد صلاة الظهر أتى الأستاذ عبدالشافي وجلس مع طارق في

صالة الضيوف، مرت ساعة وتوتري يزداد تدريجيًا وكل دقيقة أتصل بحبيبي، وعندما أتت أمي زاد توتري وبقيت أتلاشاها حتى أذن العصر وخرج طارق والأستاذ عبدالشافي للصلاة فأتى نوح، وقتها تنفست قد كنت أهرب منهم حتى ظننت أنه لن يأتي.

أتى حبيبي نوح بمفرده لكنه كان أمة من الناس، واتفق مع أهلي على متطلبات الزواج وكان سخيًا تغاضى عن أي خلافٍ من أجل أن نكون معًا.

(٢٧)

الحبُ يخمد نيران المصائب، ويخدر وخز الجروح إن لم يعالجها.

إن شغفي بأمنية أنساني صراعات الموقف وذبح النجس للسائقين بسكين الإتاوة.

فجلست مع أبي وأمي قبل الذهاب لمقابلة أهلها وأخبرتهم بتفاصيل أمنية، وأن والدتها تريد تزويجها «للسكري «زميلها بالعمل، وخطبتها له غصبًا منذ عامين لكن أمنية أصرت وفسخت الخطوبة.

وأخبرتهم بقسوة تعامل أسرتها معها منذ فسخت الخطوبة بالإضافة لتفضيلهم الذكور على الإناث، فقال أبي مستنكرًا «إتجوز المجنونة بنت العاقلين، أحسن من العاقلة بنت المجانين «لكني أصررت أنها أنسب زوجة لي، وطلبت من أبي وأمي أن يتجاهلا التكشيرة المنتظرة من حماتي في الخطوبة.

وفي عيد ميلاد أمنية، وفيتُ لها وعدي وألبستها دبلة الخطوبة بعد شهرٍ من لقائنا الأول بجامعة بورسعيد، بين زغاريد الأهل وألوان الحلوى ودعوات الجميع بأن تكون حياتنا سعيدة.

ولم أكن لأعزمكِ يا فيروز، فأنا الآن أبدأ حياة رسمية ولا أريد اختبار قدراتي التمثيلية عندما أرى الماضي والمستقبل معًا،لا أريد العبث بألغام مشاعري المدفونة فبعض الألغام تنفجر بعد قرون، وللنساء قدراتٌ خارقة في اكتشاف ماضي الرجال، لمجرد أن تَمُرَّ أخرى تستطيع الأنثى أن تُشَخِصَ حدود علاقتها مع رَجُلِهَا حتى لو

فكر بها لحظة في أيام المراهقة، فما بالكِ بمروركِ يا فيروز.

وكعادة الأمهات يحللون المناسبات فور انتهائها، لكن أمي لا تجذبها تفاهات لون الستائر ونوع الأطباق التي قُدمت لنا ولا حتى الطلاء المقشر في ركن الصالة، إن أمي ترى النظرات والمشاعر فقالت بتمعنٍ «عروستك مش سهلة، ونظراتها لأمها بتقول إنها قوية أوي ومش هتلين بسرعة»، فأجبتها مبررًا «ما أنت عارفه إللّي فيها يا أمي»، فعاودت أمي تمعنها

في كلامها قائلة «بعيدًا إن أمها كانت عايزة تجوزها زميلها، شخصية أمنية مش بسهولة راجلها يمشي كلامه عليها، وهتبقى عايزة تمشي البيت بكلامها، وبس»، فعقدتُ حاجبي وهززت رأسي مستفهمًا «حصل إيه خلاكي تقولي كده؟»، فأجابتني أمي «أي بنت يوم خطوبتها بتبقى مبلولة في نفسها والكسوف ملجمها، لكن أمنية وقفت ترد على أمها بكل بجاحة وتغيظها من تحت لتحت لما لبستها الدبلة، ومهما كانت أمها وحشة مفروض كسوفها كعروسة يكون أقوى من كيد النسوان، لكن دي شكلها جبارة».

لم أقتنع بتحليل أمي، فحاولت تلطيف الموقف قائلًا «والله أمنية غلبانة أوي، وبتحبك يا أمي» فربتت على كتفي قائلة «حاول تعود أمنية على طبعك، وما تسيبهاش تسوقك».

وعندما عدنا البيت فتحت حساب الفيس بوك وغيرت حالتي العاطفية إلى خاطب، ثم وضعت صورة كفي بجوار كف أمنية وأصابعنا متوجة بدبل الخطوبة. فلم تمض دقائق وجاءني الاتصال المنتظر منكِ يا فيروز منفعلة كمن سُلب حَقه «معقول..!! بتتكلم جد يا نوح..!! أعرف بالصدفة إنك خطبت متل الأغراب..!! من على الفيس يا نوح..!! لهالدرجة وجودي مش مهم عندك!!، والله

ما راح أسامحك وهاجي بكرة أتخانق مع خالتي صفية، وحياة الله ما مستوعبة، كان نفسي أكون جمبك في خطوبتك متل ما أنت جمبي في كل شيء يا نوح، ليه تحرمني فرحتي بأخوي، ليه.؟».

انفعالكِ المصحوب بشهقات البكاء جعلني على وشك الاتصال بأمنية لأفسخ خطوبتنا، لمَ يا فيروز..!! تعذبيني بقربكِ وبعدك..!! حتى عندما قررت الهرب من مشاعري إليك، حتى عندما قررت الحفاظ على ما أسميتيه إخوتنا..!!

أيا معذبتي في كل حالاتكِ لطالما لستِ زوجتي، أشقاني بكاؤكِ أكثر مما أفجعك خبر خطوبتي ومن تلك اللحظة كرهت أمنية. ملعون أي شيء يغضبك أو يحزنك لحظة يا فيروز، وقمت أرتدي ملابسي سريعًا ونزلت الشارع أقود سيارتي بجنون وعندما اقتربت من بيتك رُفِعَ أذان الفجر، وبقيت حائرًا أأخبركِ بوجودي أم أن ما حدث هو ما يجب أن يحدث.؟ ألهمني يا الله بحق أذان الفجر والصبح إذا تنفس والأرزاق المقسمة في بداية اليوم، إنني أرى في ابتسامة فيروز رضا الله عني فكيف ببكائها وحرقتها؟.

تالله يا فيروز «ابتسامتكِ رضا الله عني، فماذا عن بكائك.!».

ولا أقسى على الرجل من إحساسه بالعجز تجاه من أحبها، خاصة لو كان عجزه أن يضمها لصدره ويربت على ظهرها وتتخلل أصابعه شعرها،لا يكسر الرجل أكثر من عجزه عن ذلك، والعجز كل العجز يقيني أنكِ بغرفتكِ تبكين فتتجسد كوابيسكِ الكامنة وأنا عاجز عن احتضانكِ، عاجزٌ عن الصعود لكِ فجرًا، عاجز عن شعور الأخوة، وكيف لأخٍ أن يعجز عن احتضان أخته؟!، إلا إن كانت أخوتهما لفظًا مجردًا من الواقع. فلا أنتِ أختي ولا حبيبتي، أنتِ حبٌ غير متاح.

فكرت كثيرًا في عدم مواجهتكِ يا فيروز لكني لست مجرمًا وما زلت مُصِرًا أنني محقٌ فيما صنعت، فأرسلتُ رسالة أؤكد انتظار أمي للكِ في الغد، فجئتِ بوجهِ مُعرضٍ كملامح العرب لحظة سلب الصهاينة فلسطين فأيقنتُ أنكِ ستهدئين وتنسين فعلتي،تمامًا كالعرب.

استجمعتُ قواي لمواجهتكِ متظاهرًا بالثبات وكلُ ما فيَّ يترنح قائلًا «يا فيروز اتصلت بك كتير من رقمي الجديد، وأنت ما ردتيش»، وكانت إجابتكِ بعينيكِ فقط.

وأخيرًا، انتهت زيارتكِ بسلامٍ، وعندما رحلتِ سألتني أمي «إزاي ما عزمتش فيروز؟»، فأجبتها «من كتر اللخمة نسيت»، فضحكت أمي ساخرة وقالت «تلاقي أمنية قالتلك ما تعزمهاش».

(٢٨)

لا شيء يعوض شيء.

لا رجل يعوض الأب، ولا امرأة تعوض الأم، ولا بلد يعوض الوطن، وظننتك يا نوح عوضتني عن كل شيء.

ولأن المواقف أصدق وأبلغ من الكلام، فقد أخبرتني بأني لست من أهلك، وا حسرتاه، كيف يا نوح.؟! إنني فيروز.. أختك التي فتحت لها أبواب قلبك، وكاتمة أسرارك، أنا التي تُفضي إليها بأفراحك قبل أحزانك. فكيف تخطب دون وجودي.؟! كيف طاوعك قلبك فلم تخبرني عن حبيبتك وأنت تستعد للذهاب إلى بيتها؟

هل حقًا لست من أهلك..!!

بالطبع لن تتشرف بلاجئةٍ وقت تعارفك على أهل عروستك، ألا يكفي أنها أخذتك مني.! دائمًا كنتُ أحاول إقناع نفسي بأنك إن تنازلت وأحببتني سأرفض مبررة أنك تستحق أفضل مني، مبررة أنك لا تليق بك لاجئة قاتلة، ولكني أعترف بكذبي على نفسي، أنني تمنيتك في جميع الأيام، ولو صارحتني لحظة بحبٍ سأصفعك قلما على تأخرك في الارتباط بي، ها قد قضى الأمر، ها قد انتهى آخر بصيص للأمل، نوحٌ يلبس دبلة فتاةٍ غيري.

نوح إستعر مني بين أهل خطيبته، مع أنه اصطحبني إلى فرح جارته «ريم»، وأيضًا فرح أخيه.

يا هل ترى ستحبك أمنية بنفس القدر الذي أكنه لك يا نوحي؟

يا هل ترى ستمنعك مني وتغار وتعلن ألا أخوة بيننا؟

إلهي، إن آخر ما تبقى لي من نوح، هو الحفاظ على تواجده بحياتي.

اللهم أدمه أخًا آوي إليه وأرى في طلته أن الدنيا لا تزال بخير.

ولن أكفر بعشرتك وأخوتك وشهامتك بسبب موقفٍ أوجعني لعدم توقعي أن تفعله.

يا أخي نوح.

(٢٩)

صرت أستنفذ مشاعري وتفكيري مع أمنية بكلامنا عن بيتنا ومستقبلنا.

ولم أترك نفسي لِوَلولَةِ مالم أستطع تحقيقه. أو هكذا حاولت. فكلما خطرتِ ببالي يا فيروز هاتفت أمنية. لذا كان اتصالي بها كثيرًا، وزاد تعلقنا وتقاربنا، فلم أعد أرى غيرها ولا يشغلني سواها، أو هكذا حاولت، هكذا تمنيت.

وذقت لذة وجود الذات وأنا أستمد رجولتي من أنوثتها وأستمد حكمتي من طيشها، وذاك الشعور بالغيرة نبت داخلي وترعرع فلا يحق لأحدٍ غيري أن يُفتن بها، أريدها شبحًا مع الرجال وحورية معي، ولا يحق لأحدٍ أن يحاول أذيتها وأنا على قيد الحياة فلم أستطع تحمل تهميش أهلها لها وقهرها في البيت كأنها من سبايا الحرب.

وبينما كنت في بيتها بين أسرتها ننتظر تحضيرها الغداء الذي قامت بطهيه وحدها وصارت تضع الأطباق وحدها دون مساعدة أحد فقمت إليها أساعدها وأستقبل الأطباق منها أضعها على الطبلية فمصمصت سعاد شفتيها وضربت كفًا بكفٍ قائلة: «أقعد يا نوح ما تخليهاش تاكل بعقلك حلاوة، دي ما بتطبخش إلا اليوم إللّي أنت بتيجي فيه، فما تساعدهاش».

حاولت تلطيف الجو ورسم الابتسامة قائلًا «خلاص لما تحبيها تطبخ كلميني، أصل أنا بقيت سكرتير الطباخة الحلوة دي»، وبعد

وضع الطعام راقبت الجميع بأن يُبدي أحد إعجابه بصنيع يد حبيبتي فلم يفعلها أحد،فوددت لو منعتهم من الأكل أو وبختهم لكني ما زلت في فترة الخطوبة فأجلت التوبيخ لبعد الزواج، وشكرتها بقوة على جميل طعامها فنظرت أمها لي باشمئزاز قائلة «إللِّي هتشكرها عليه دلوقتي مش هتقدر تذم فيه بكرة»، فتبسمت لأكسر برود الحوار قائلًا «كفاية إنها طبخت في الحر، ربنا يباركلنا فيكِ يا أمنية»، فتبسمت حبيبتي فأثلجت صدري ليقاطع مشاعرنا أخيها على قائلًا «الله يقرفك الشوربة دلعة أوي، قومي هاتي ملح بسرعة»، فأوجعني أسلوب رد أمنية على هذا الصغير غير المهذب وهي تقول كمن يبرر جرمًا «معلش نسيت أجيب الملاحة».

وهَمَتْ بالقيام فأمسكتُ يدها قائلًا «أقعدي كملي أكلك، تجيبيها له لما يعرف إنه أصغر منك بعشر سنين ويكلمك بأسلوب حلو، قوم ياض يا على هات لنفسك أو كل وأنت ساكت»، فرشقتني سعاد بنظراتها بينما كان طارق مشغولًا في طبقه فقالت منى بكيدٍ عظيم «أخيرًا لقيتي حد يقف في صفك يا أمنية، حافظي عليه قبل ما يبقى معانا»، وقبل أن أرد خطفني صوت استنجاد حبيبتي وهي تقول «أنت ممكن ترخم عليا زيهم يا حبيبي؟»، فلاحقتها سعاد قائلة «إتلمي يا زفتة، حبيبك في عينك»، وأطلقت منى ضحكة المكيدة وهي تسترفمها بيدها الملئ بالطعام، فخلعت حبيبتي نبرتها الحانية واندفعت فيها بعد أن وضعت الملعقة بعنفٍ أصدرَ طرقعة وقالت «يا منى ما نتلم شوية بدل ما أتصل ب أبوكي أعرفه إنك مش في الجامعة وجايه عندنا من وراه».

و بعد أن أنهينا الطعام وصعدنا لسطح البيت نشرب الشاي ونتأمل منظرًا ساحرًا للغروب فوق الأراضي الزراعية ومن خلفها

النيل، ومن خلفنا سعاد في محاولة إفساد لحظتنا عن بُعد، فبدأت أمنية كلامها قائلة «نوح، أنت مكمل معايا عشان بتحبني، ولا صعبانة عليك «فأجبتُ حبيبتي قائلًا «إللِّي بيصعبوا علينا ممكن نسمعلهم وممكن نطبطب عليهم لكن مش هنتجوزهم ونحبهم، وبعدين يا ستي ما أنا قبل ما أدخل بيتك وأنا بحبك وقولتلك عايزك أنت حتى لو أهلك طلعوا تجار مخدرات أو رقاصين، ولانسيتي؟»، كنتُ موجوعًا وحبيبتي منكسرة أمامي لفرطِ عذابها من أسرتها، تمنيت أن أعوضها باحتضانها فشاعت مشاعري من عيني واحتضنتها روحي فتبسمت وهي تقول «نفسي أخرج من البيت ده وأبقى معاك ومحدش يقدر يزعلني»، أخذت رشفة من الشاي وبهدوء أبٍ قلت:

– عقبال ما ربنا يكرم وأخطفك منهم عايزك تبقي دماغ، وتعرفي إن أخد الحق حرفة، يعني زي ما منى بتكيدك من تحت لتحت وهي بتضحك أنت كمان لازم تردي عليها بنفس الأسلوب، لكن تعلي صوتك وأنت لسانك طويل يبقى هيدوكي على دماغك وحقك هيضيع

– والله بيعصبوني، ببقى عايزة أشتمهم وأفش غلي

– قلنا أخد الحق حرفة

– صدقتني لما قولتلك ماما ما تستحق بر ولا زفت.؟

– طبعًا فهمك وحسك، ومش هَنَظَرْ وأقولك كلام حافظينة وإنها شالتك تسع شهور في بطنها والكلام ده، بس بِرِك ليها هو إنك تنفضي للكلام الرخم وما ترديش عليها، وقتها هي هتبطل ترخم عليكي.

– وهي ليه أصلا تعمل كده؟

– بردوا صعب عليها إنك هتتجوزي وتروحي محافظة بعيدة عنها، ده غير إنها مقتنعة بإن راحتك وسعادتك هتكون مع السكري، فبدل ما نحاربها وتبقى كرهاني أكتر مهي كرهاني نحاول نكسبها وأنا

هثبتلها إني أتحب وأستاهل تفرح لأني هتجوز بنتها.

– والله أنت طيب ولا فاهم حاجة.

– افتكري إننا مخطوبين بس، يعني لسه ما بقيتيش مراتي، لازم نستحملها

– لا يا روح أمك، محدش يقدر يفسخ خطوبتنا، يعني جمد قلبك وبلاش تطاطي

– خلاص يلا ننزل نولع فيهم

– .....

– يابنتي يلا نولع فيهم

– .....

– طيب نولع فيهم بجاز ولا بنزين.؟ اختاري

– .....

(٣٠)

الآن أستشعر وجود الله، الآن أتذوق رحماته متمثلة في نوح.

آمن أن الله لو كان شخصًا لكان نوح، والشيطان لو كان شخصًا لكان سعاد.

إن محاولات نوح المستمرة لإسعادي وتلطيف علاقتي بأسرتي يزيد تعلقي به يومًا بعد يوم، فصرتُ أكره اليوم الذي لا أهاتفه فيه مهما كان السبب.

أتمنى أن يتواجد ببيتنا كثيرًا، كنتُ لا أحبُ البقاء في البيت بالإسماعيلية وأتهرب إلى سكن الطالبات ببورسعيد لكني الآن أحب البيت طالما نوح فيه،أحب ملامحه الشاكرة حين أضع طعامًا طبخته له خصيصًا،أتأمل إصبعي المتوج بدبلته فأحمد الله وأشكره أنه رزقني العمر لألتقي بنوح ليمتعني بعمري.

أقاوم نفسي لأنفذ كل ما يريد قبل أن يطلب، مع أني لا أطيق التحكم الذكوري لكنني الآن أتحسس ما تقع عليه عينه من ألوان وأشكال الملابس لأستمتع بنظرة الرضا منه وأنا مقبلة عليه.

وأحببت الله بعد خصامٍ طويل، قد أخبرني نوح أنه يعاملني ملكة لأنه يراعي الله فيّ، ومَا دامت معاملته هي التفسير العملي لمراعاة الله، فإني مَدِينَة لله بكثير من الشكر والحب. وبدأت في المواظبة على صلاتي لأن نوح يريد لحياتنا البركة ويرى الصلاة أساس البركة في الرزق، ويرى الحب أعلى مراتب الرزق، إن كل ما يرضي حبيبي

يشعرني بنبض الحياة.

أحب التزين له،أحب أن يراني في أكمل حالاتي، ولو صفق العالم انبهارًا بجمال أنثى فإنها لن تشعر بذلك إلا في لمعة عين حبيبها، وحبيبي عالمي ودنيتي وكياني الذي أستمد منه ثقتي بنفسي، لكني أريد التهرب منه الآن لا أريد أن يراني، أريد أن أمسح من ذاكرته هيئتي التي يراها الآن، قد فاجأني بوجوده أمام باب الجامعة بعد أن أنهيت الامتحان ولم أكن مستعدة للقائه ولم أتخيل أن أجده بعد سهر يومين لم أذق فيهما النوم إلا سقوطًا، ومع ذلك فإن لمعة عينه بي لم تتغير واستقبلني بصوته المبهج قائلًا «إيه رأيك في المفاجأة يا أم العيال؟».

– زفت

– لسانك سكر

– ليه ما عرفتنيش إنك جي؟

– وهتبقى مفاجأة إزاي؟

– على الأقل كنت لبست حاجة عدلة، أو غسلت وشي حتى

– تقصدي كنت هتحلقي شنبك، صح؟

– أنت قليل الأدب

– والله شنب بنات إعدادي في وشك أهووه

– إتلم بقى، أنا هروح بسرعة ألبس وأظبط نفسي ونروح أي هباب

– بحب الهباب والكفتة

– زفت

– يلا إطلعي السكن، وخلي النقاش يلعب في وشك بالألوان عشان نروح نتغدي، بس الأول إحلقي شنبك

– الله، ما تحترم نفسك بقى.

رائعٌ هذا الرجل الذي يدرك أن أنثاه لن تكون طوال الأيام فتاة إغراء، رائعٌ ذلك الرجل الطبيعي، لكني أحب التزين له، أحب أن يراني النعيم الذي يحلم به دائمًا.

وصعدت السكن بأقدامٍ تأكل درج السلم، دخلت غرفتي أبعثر ملابسي، فقالت صديقتي «نوح تحت ولا إيه؟»، هززت لها رأسي بنعم، ثم تهيأت لحبيبي ونزلت إليه، فأعطاني كتابًا كان يقرأه في الطريق إليّ،ففتحتُ حقيبتي أضع الكتاب فسمعت صوت «رنا «زميلتي بالسكن تقول «أخيرًا شفناك على الحقيقة يا نوح «فضحكنا وغمزتها بعيني فقال نوح «أنت بقى رنا إللي بتشرب سجاير؟»،فدار بينهما حوار بدأ بحدية رنا قائلة:

– آه بشرب سجاير، دي حريتي زي ما أنت ولد وعادي تشرب سجاير ولا حشيش، يلعن أبو المجتمع الذكوري الشرقي الرجعي المتخلف

– خلصتي شتيمة؟

– آه خلصت

– كنت عايز ولاعة

– ليه؟

– عشان رباط الكوتشي طرفة شرشب، وعايز ألسعه. بس

كنتُ أتابع حوارهما وأريد أن أضرب حبيبي لأنه أعطاها اهتمام أكثر مني ولو لمدة دقيقة، وعندما انصرفت قرصته في يده قائلة «أنت مالك بيها، أي حد يسلم عليا تفتح معاه حوار؟ وكمان تجيب سيرة السجاير ليه؟ الحق عليا إني بحكيلك عن زميلاتي؟».

وكانت ضحكاته تستفزني أكثر فأزيد القرص، فقال «أنت رسميًا مجنونة».

فأجبته «مجنونة وستين مجنونة، وبعدين ليه شفطت كرشك أول

ما شوفتها..!!».

فزاد حبيبي ضحكا ثم قال «وبعدين الأشكال الضالة دي ما تصاحبيهمش، هتتعدي منهم.

يلا نروح نتغدى، وبعدها نكمل خناق يا مجنونة».

ثم اصطحبني إلى مطعم تناولنا الغداء ثم أخبرني قائلا

– نسيب الخناقة على جمب، لأني جي مخصوص أفرحك لأني اشتريت ميكروباص جديد إمبارح

– الله، بجد؟ مبروووووووك يا حبيبي

– بصي أخرك معايا تخلصي امتحاناتك وبعدين

– استني استني، اشتريت العربية إمتى؟ وليه ما قولتليش إمبارح في التليفون؟

– وليه أقولك في التليفون لما أقدر أقولك وإنتي قدامي وأشوف فرحتك.!

– بحبك أوي يا نؤنؤ، بجد أنت أعظم حاجة في الحياة، وتستاهل حضن كبير أوي

– وطي صوتك الناس حوالينا

– استنى استنى

– إيه تاني؟!

– جيبت فلوس العربية منين.!؟ بتحوش من ورايا.؟

– دي يا سيدتي تعتبر فلوس بشغلها لابن خالتي وصاحبي، همَّ دفعوا مقدمة الميكروباص وأنا هشغله وأدي لكل واحد إيراد على حسب نسبته في رأس المال

– وهتستفاد إيه؟

– منا ليا نسبة إدارة المشرع

- يا عم يا عم
- اسمي رجل أعمال
- طيب، يا رجل أعمال، يا رجل أعمال، حلو كده؟
- أممم، مش بطال

يا أيها الرجل غير الواقعي وغير التقليدي،من أين أنت..؟
ألهذه الدرجة تهيم في كل ردود أفعالي؟؟

لقد صرت مغرورة بسببك، أصبحت أقدر قيمة كل همساتي، ولسانك صريح لا يخبئ مشاعره مما يجعل أيامي معك تزداد حلاوة، وقد ازددت شموخًا بنجاحك في هذا اليوم وازددت كبرياءً كونك لم تشعر بنجاحك إلا بفرحتي به، وطموحك الذي تبثه في.

لقد انتهى هذا اليوم وأنا مليئة بالطاقة وأتحمس لأن أضع بصمة تثبت مروري على هذا الكوكب بسبب قولك:

- امتحاناتك تخلص وهديلك يومين إجازة تنامي وتريحي، وبعدين تفوقيلي كده
- هتعمل إيه.؟ هتشغلني على الميكروباص؟ هههههه
- قصرتِ عليا السكة، ووفرتيلي حرق بنزين
- قول يا شقيق
- حبيبي يا زؤلة
- إنجز يا شبح
- المهم، فاكرة لما قولتلك لازم حياتنا ما تبقاش زي حياة البهايم؟
- فاكرة يا تاجر البهايم
- المهم يا ملكة الزرايب، جو الأنتخة ده ما ياكلش معايا
- هتربطني في الساقية ولا إيه؟
- لا هأكلك برسيم وتبن

– كفاية بقى، ما تخلص وتقول إللِّي هتقوله

– نفسي أفرح بنجاحك في حاجة غير الدراسة، مش شرط شغل، المهم يبقى لحياتك معنى، حتى لو مثلًا هتتعلمي خياطة أو تطريز أو تهتمي بالقراءة

– حبيبي عايزني أعمل إيه وهعمله؟

– عايزك تدوري جواكِ عن الحاجة إللِّي تحبي تعمليها أو عايزة تتعلميها، وتقدري تبقي من أشطر الناس في العالم، مش مجرد تتعلميها وبس

– بحبك أنت

– وأنا بعشقك يا أم العيال

– يبقى سيبك من الكلام ده وحِب فيا شوية

– عنيا، ده أنت تؤمري، تعرفي كل ما أشوفك بفتكر دعوة أمي لما كانت ديما تدعيلي «ربنا يرزقك بواحدة تجننك من كتر حبها».

– يعني دعوة طنط اتحققت؟

– اتحققت، وزيادة

– فرحانة أوي إنك جيت النهاردة، مع إنك شفتني وأنا بايظة

– قصدك شفتك بشنب

– تاني هتقل أدبك..!!

– يبقى نرجع ونقول، عايزك تفكري إيه الحاجة إللِّي هتتعلميها أو تعمليها في حياتك ومش هقرر معاكي ولا هساعدك تختاري إلا في حالة واحدة

– إيه الحالة بقى؟

– ألاقيكي فعلًا فكرتِ وعندك اختيارات كتير وقتها هتناقش فيهم، لكن مش هفكرلك

غادر نوح وتوهجتُ طاقة وطموحًا، وعندما أنهيت الامتحانات

بدأت في أخذ دورات تخص دراستي وبحثت عن مكتبٍ أتدرب فيه، ثم وجدت عملًا قريبًا من بيت أسرتي في فترة الإجازة وبدأت أشعر بكياني وأنا أستيقظ للتدريب ثم للعمل، وقَلَتْ مشاحناتي مع من بالبيت، كان حبيبي مُحِقًا في أن الفراغ وقود المشاكل، وحين يشغل الإنسان نفسه بما يحبه ويستنفذ طاقته فإنه لا ينظر لتفاهات ولا يُعَقِبْ على سفاسف الكلام.

(٣١)

ولأن لكل شيء إذا ما تم نقصان، ولكل عابدٍ همَّ للعبادة شيطان، في منتصف أكحل الليالي لأول مرة بحياتي، أسمع صوت النجس يناديني من أسفل شِبَاكِي، قمت من نومي فزعًا ولساني يتمتم «لا حول ولا قوة إلا بالله، يارب خير، يارب خير»، ولمجرد أن فتحت الشباك وقبل أن أراه سمعت صوته عاليًا «يا أسطا نوح، البقاء لله في بلدوز، البس وانزل».

نزلت، ومن تلك اللحظة كان نزولي نزولًا معنويًا بكياني قبل جسدي، ذهبنا بيت بلدوز حضرنا الغسل والتكفين، والصباح دفنتُ كلُ جميلٍ مع جثمان بلدوزر، وجلستُ في عزائه أعزي نفسي عما سيحدث لي، حتى أنني فكرتُ كثيرًا في بيع السيارات وبدء مشروع جديد في أي مجالٍ بعيدًا عن النجس ورجاله لكني لم أعد حرًا في المجازفة لقد صرت مرتبطًا بموعدٍ للزواج ومتطلباته تحتاج أموالًا كثيرة، ثم فكرتُ كثيرًا في السفر خارج مصر لكن لمجرد أن خطرتِ ببالي يا فيروز تراجعتُ عن فكرة السفر.

ثم رأيت جارتي ريم بعد العزاء، تعجبت..!! ما الذي أتى بها هنا..!؟

كانت واقفة تحمل رضيعها ثم أتت والدتها الحجة حبيبة، رمقتهم من بعيدٍ ثم دفعني فضولي إليهم متسائلًا «إيه جابكم هنا؟»، فنظرا لي وقالت الحجة حبيبة «إزيك يا نوح يا ابني، إحنا إللي مفروض نسألك

أنت تعرف مين هنا؟»، فأجبتها «بلدوزر ده من أجدع الناس في حياتي، هو إللي شغلني في الموقف، وبسببه بيتعملي مليون حساب»، فتمتمت الحجة حبيبة «الله يرحمه، كان جدع وبيحب يخدم».

لكن ريم قالت»بلدوزر الله يرحمه، يبقى أخويا في الرضاعة،مامته رضعتني مع أخته تسنيم» فتمتمت الحجة حبيبة «الله يرحمه».

وبارزت عيناي عيون ريم تعجبًا فسألتها «بتتكلمي جد؟»، فأجابتني «طبعًا جد».

سألتهم «ما تيجوا أوصلكم، أنا مروح، فين جوزك يا ريم؟»، فأجابتني إنه مريض ولم يستطع النزول من البيت، ثم ركبا معي وطوال الطريق أفكر وأحاول استيعاب أن ريم أخت لبلدوزر، أحاول تجميع خيوط لغزٍ بعقلي، حتى أوصلت الحجة حبيبة أولًا ثم أكملتُ الطريق لإيصال ريم بيتها فسألتها..

- بما إنك أخت بلدوزر وتسنيم، يبقى أكيد تعرفي شريف جوز تسنيم، صح؟

- أوفر عليك التفكير والأسئلة الكتير، أيوه أنا سبب دخولك الموقف يا نوح

فكبحتُ الفرامل لا إراديًا فتوقف الميكروباص فجأة وكادت ريم تصطدم في الزجاج الأمامي ونظرت لها بتوهانِ رجلٍ عجوز قائلًا «منا طول الطريق بحاول أفهم، وعمال أفتكر يوم ما قولتلك إن شريف إللي كان زميلي في المدرسة جالي البيت مع إن مكانش بنا أي صحوبية كنا مجرد زمايل، وقال لي إنه كان معدي من شارعنا وحب يطمن عليا، وسحبنا الكلام وسألنا بعض عن الشغل ودنيتنا، وكلمة مني وكلمة منه، قال لي إنه يعرف بلدوزر وكلمهولي نزلني الموقف

فضحكت ريم عاليًا ثم قالت: «فكرتني بأيام أكنها إمبارح، قولتلك

ساعتها الصدف الحلوة ساعات بتغير حياتنا»، فزاد تعجبي وتساءلت..

– طيب ليه كدبتي، وما عرفتنيش إنك تعرفيهم.!؟ وياريتها معرفة ده أخوكي.!

– كنا عيال يا نوح، وأصلًا شريف ولا كان فاكرك أصلًا، هفهمك،من خمس سنين تقريبًا، لما أنت كنت شغال في الشركة وكان نفسك تنزل الموقف وتكبر مشروعك، كان نفسي وقتها أقول لبلدوزر يخدمك وينزلك الموقف بس مكنش هيعديها لي بالساهل ويقعد يقررني ويحقق معايا عنك، ووقتها كنت متجننة بيك يا نوح، شغل عيال بقى، كنت براقبك في كل خطوة ونفسي تحقق أحلامك، المهم ساعتها شريف كان خاطب تسنيم، وشريف جدع أوي بيكتم السر، فكلمته عنك وقولتله يعمل عليك حوار إنه كان معدي من شارعنا عشان يكلم بلدوزر عنك ويتوسطلك إنك تنزل الموقف

– مش مستوعب إللي بسمعه يا ريم، بجد مش مستوعب خالص، ده ولا حكايات ألف ليلة وليلة..!!

– الله يسامحك، ضحكتني وفرفشتني ونسيتني إننا راجعين من العزا

– معلش يا ريم، إنت ست متجوزة وابنك معاكي دلوقتي، بس لازم أفهم

لما أنت كنت بتحبيني أوي كده، ليه ما عرفتينيش والله مش بعيد كنا اتجوزنا، أو حتى بلاش تقوليلي كنت لمحيلي

– أكيد نسيت إني يوم ما جيت أنا وماما نسلم على أحمد أخوك لما كان أول مرة يسافر

– ماله أحمد كمان.؟

– مش أنا قولتلك لما ترجعوا من المطار اتصل بيا عشان هديلك حاجة ضروري

– إممم، مش فاكر، بس كملي

– كنت كتبالك جواب طويل عريض وحكيالك كل حاجة فيه، كنت عايشة حالة رومانسية وكتبته على ورق بدل ما أبعتلك رسالة على الفيس بوك، بس أنت ما اتصلتش لما رجعت، عشان رجعت بحب عمرك، فيروز.

– يااااه، تعرفي لولا إن لقيتك في عزا بلدوزر ما كنتش هصدق الكلام ده، بجد حاجة خيال

– يا سيدي ده حبك كان عذاب من أول يوم روحت معاك المدرسة كنت مبسوطة أوي إنك في سنة خامسة وأنا في سنة أولي، كنت شيفاك أعظم حاجة في الدنيا خصوصًا إني وعيت على الدنيا لقيت بابا رجل كبير كنت بحسه جدي، هههههه تقريبًا زي ما أمي بتقول إني جيت في الوقت الضايع، وكنت كل ما أكبر حبك يكبر معايا، يااه ياما راقبتك في خروجك ودخولك من البيت وكنت أسألك في حاجات عرفاها لكن كنت مستمتعة وأنا بحشرك في تفاصيل حياتي والغريب إنك كنت مغفل، بجد مغفل، وكان عندي استعداد أعمل أي حاجة عشان تحبني، وكنت صابرة ولا هاممني إنك شايفني أختك الصغيرة، بس لما شفت لمعة عيونك بفيروز حسيتك بتخوني وما استحملتش أهين كرامتي، وبعدين قلت أستنى أراقب في صمت، لقيتك عملت لها مفاجأة «فيروزة الشام»، أصلًا فرحتك بفيروز عمري ما كنت هنساها لو حبتني بعدها.

وعلى قد غيرتي من فيروز بس اتمنيت أشوفكم في الكوشة لأن فرحتك بيها كانت مفرحاني، والله كنا عيال مجانين، وأديك خاطب واحدة غير فيروز وأنا متجوزة.

يا دوب نفتكر ونضحك ونعرف إن قضا ربنا خير، والحمد لله ربنا عوضني براجل عرفت معاه إن الحب يعني إتنين عندهم نفس

الشغف والعطاء، يارب خطيبتك تحبك وتحبها زيي أنا وجوزي.

أوصلتها، وأنا لا أصدِقُ أنا، لا أستوعبُ ما سمعت.

لم أتخيل، أن هناك من يراقبني ويتمناني ويستنزف عمره انتظارًا لي، لم أتخيل إني كنت حلمًا لأحدٍ مثلما أنتِ حُلمي يا فيروز.

لقد ساعدتني ريم دون أن أعلم، وكتمت حبها ومساعدتها ورحلت، إنها امرأة من الجنة. وعن أوجاع لحظةٍ نكتشف فيها أننا ظَلَمْنا قبل أن نُظْلَم، وأننا لم نر من شغفهم حبنا مثلما لم يرونا من شغفنا حبهم.

الآن فهمت فرحة ريم وقت رجوعي من الموقف في أول يومٍ أعمل به، لم يكن وقوفها ليلًا في الشباك صدفة، لقد كانت تنتظر حبيبها المغفل.

يا فيروز، الآن فهمت مكالمة ريم في منتصف الليل التي إستغرقت ساعتين ونصف عندما تقدم زوجها لخطبتها وكانت متوترة تريدني أن أطمئنها، وأكدت عليَّ عشرات المرات في موافقتي على خطبتها مبررة أنها تثق برأيي وأنني ذو خبرة في الشباب، فكررت موافقتي على لأنه شاب صالح.

ثم حاولتُ تخيل مشاعر ريم عندما حضرنا فرحها معًا يا فيروز، الآن فهمت نظرة عتابها حين التقت عيني بعينها أثناء رقصها مع زوجها وهي ترتدي الفستان الأبيض.

لقد أذقتها ما لم أستطع تخيله، أذقتها الإحساس الذي خِفتُ منه فلم اصطحبكِ خطوبتي يا فيروز.

يا فيروز ليتني لم أصطحبكِ إلى فرح ريم.

وقضيت الليل مهمومًا في الشرفة ولم أستطع الرد على اتصالات أمنية، لم أستطع أن تسمعني منهارًا مع أني كنتُ بحاجة للبوح عما يضغط على عظام رأسي.

(٣٢)

بقيت في الشرفة حتى أذن الفجر فاستيقظ أبي للصلاة فلمحني ودخل من خلفي فلم أشعر به ثم انتبهت وهو يقول «مالك يا حبيبي.!؟»، فالتفتُ إليه قائلًا «بشم هوا»، فقال أبي «آه صحيح، نسيت إن صاحبك الله يرحمه،النهاردة.؟»، فأجبته «الله يرحمه».

فأمسك أبي معصمي قائلًا «تعالي معايا نصلي الفجر»، ونزلنا المسجد صلينا ثم جلسنا حتى الشروق فارتحت كثيرًا وتنفس عقلي بعد انغلاق، ثم توجهنا لعربة الفول وفطرنا، فقال أبي «أديك ضيعت عليا الفطار مع أمك، بس يارب تكون فرفشت، وخلي الموت يشجعك تعيش، خلي خوفك من الموت يقويك فتستمتع بكل لحظة في حياتك وترضي ربنا، واحزن بس ما تديهوش أكتر من حقه، خلي الحزن ينفس عنك مش يدمرك».

فعلًا..لا أصدق من صداقة الأب لحظة تفهمه مع أبنائه،كنتُ أتمنى البوح لكَ بكل شيء يا أبي، لكني أخشي تحول اختلافنا لخلاف كما هو المعتاد، فدفنتُ سر خوفي ومضيت للبيت منتظرًا مجيء السائقين لأخذ مفاتيح الميكروباصات، ولم أذهب الموقف صباحًا، فجاءني اتصال أحد السائقين قائلًا «المعلم الكبير عايز يكلمك «ثم أعطى الهاتف للنجس فقال «صباح الفل يا أسطا نوح، قصدي معلم نوح، مش عيب بردوا سواقينك مش عايزين يدفعوا فلوس عشان الموقف!! ده لولا إني

أعرفك من زمان كنت افتكرتك تبع الشيخ عسران».

طلبتُ منه أن يترك السائقين يعملون وسوف آتي له آخر النهار نتفاوض فيما يريد، فكان رده «يا أسطا نوح عيب عليك، هو أنا بذمتين..!! أنا بعامل كل الناس زي بعض، ومحدش بيطلع من الموقف غير لما يدفع اللي عليه، صحيح، ده نظام ولا أنت مش بتحب النظام»، تمعنتُ في كلامه وأسلوبه فأجبته»، عايز إيه يا نجس؟»، فأجاب بكلمتين «تعالى حالًا».

نزلتُ إليه أجر خيباتي ورعبي، ووقفت أمامه متصنعًا اللامبالاة، فاستقبلني بابتسامة تغتال الحرية ثم قال «نوح، كلمتين أبرك من جرنان، عليك كارتة متأخرة سنين من أيام ما كان شنبك لسه بينبت ومعاك العربية التُمناية.

واللهم صلِّ على النبي بقي معاك ٣ عربيات لو عايزهم ينزلوا ع الخط يبقى تجيب خمس آلاف جنيه النهاردة، وبعدها نتحاسب وهكرمك في الكارتة اليومية، أو لو حابب تدفعها شهرية يبقى براحتك، المهم العربيات مش هتتحرك من الموقف قبل ما تدفع المتأخر، أنا مش بهددك لا سمح الله، بس الشغل شغل، وكله عشان الموقف».

حاولت قدر المستطاع إبعاد السائقين عن حواري مع النجس كي لا تهتز صورتي أمامهم، ثم حاولت تخفيض المبلغ قدر المستطاع قائلًا «يا معلم كلك شَوَفَان ومفهومية، والمبلغ كبير أوي»، فأجابني «كبير فين بس ده الجنيه عايم وكل حاجة غالية، ولو بالورقة والقلم اتحاسبنا هتلاقي إن ليا عربية من التلاتة والواحد مش بيحسد بس يعني تلاقيك مش قادر تعد الفلوس من كتر الإتاوة إللي بتاخدها

من الجماعة السوريين والحال معاك بقى حلاوة، هو صحيح مين إللِّي عايم..!! الجنيه ولا الدولار.؟ بما إنك مثقف وبتاع جامعة مش بصمجي زي حالاتي، فهمني أصل الحشيش سعره ولع».

لم تأتِ المفاوضة بفائدة فهاتفت صديقي محمد عبدالناصر بأن يمر على أمي بالبيت سيجد في مكتبي ثلاثة آلاف جنيه يأتني بها ويدبر لي الباقي حاول صديقي الاستفهام عن سبب احتياج الفلوس فلاحقته في الكلام بأن يأتي سريعًا، وأتى صديقي بعد وقتٍ لم أحسب مروره بالدقائق إنما بوخزات العجز، حاولت ثانيًا تخفيض الإتاوة للنصف فلم يوافق النجس وتمسكَ بكلمته بأن سياراتي لن تتحرك من الموقف إلا بعد دفع الخمسة آلاف جنيه، فسحب صديقي محمد شخيرًا عاليًا من أنفه قائلًا «أنت اتهطلت يا نجس ولا رافع برشامتين ومش عارف بتكلم مين؟ وأنت يا عم نوح، إيه كمية العلوقية دي..!! بتسلمه رقبتك..!! ده بدل ما تناوله كشاف على عينه.؟»، انتفض النجس وكز صديقي في كتفه قائلًا «إخشع بدل ما تدفن هنا»، لم ألحق التدخل بينهما لسرعة إمساك صديقي ياقة قميص النجس ضيقها حول رقبته ثم طرحه أرضًا وتبادلا لكماتٍ سريعة وتجمع السائقون لفض الشجار ومحمد والنجس يتمرغان أرضًا كلٌ منهما يعلو الآخر في تقلبٍ سريع، لكني رفعتُ كرسي ضربتُ به أحد البلطجية كان قادمًا من خلف صديقي شاهرًا مطواة، وأخيرًا فُضَ النزاع وقد تورم وجه صديقي والنجس وتعالت الشتائم.

أخذت صديقي جانبًا ليهدأ، ثم طلبت منه الفلوس فلكمني في وجهي قائلًا «بعد كل ده وعايز تدفع..!!».

حاولت إقناعه فرفض وبأعلى صوته صرخ في جميع السائقين» يا شوية نسوان ماهمش لازمة مشيتوا الشيخ عسران عشان كان مبوظ الموقف، طيب موافقين على بلطجة ابن الكلب ده ليه..!! وبقيتوا تدفعوا الكارتة أضعاف أضعاف زمان..!! ساكتين ليه..!! بتشتغلوا وتضيعوا صحتكم عشان ترموا فلوسكم في حجر الشهامين..!!وعشان تريحوا نفسكم بتبرروا إنكم بتدفعوا «عشان الموقف»، هو فين الموقف يا عرر..!! ولا فين التجديد إللّي حصل فيه من يوم ما جه النجس..!! سنين بتدفعوا وماجابلكمش غير كولدير معفن، فوقوا بقى، الله يلعنكم».

لم يتجاوب أحد مع صديقي فالجميع يدرك الواقع حتى أنا، كل ما كان بوسعنا أن هدأناه ومنعنا أن يتشاجر مع النجس ثانية.

لقد وعدنا النجس بالرخاء، فسبقت الخاء الراء.

لقد أدرك أهل الموقف أنهم فوضوا النجس لذبحهم وقت أن فوضوه لعزل الشيخ عسران، لكن ما عاد يفيد الندم كل ما بوسعنا اليوم أن نكرر جملة تعلمناها من حواديت الصغر «إنما أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض «ليتنا فهمنا تلك الحدوتة الساذجة، والألعن من ذلك أن أهل الموقف صاروا يبررون ظلم النجس بأن الله يولي على الناس ما يناسبهم، لقد تحول لوم المظلومين لأنفسهم ليزيدوا الظلم على أنفسهم ويظلموا أنفسهم بتبرير جلد البلطجية.

أكمل محمد عبدالناصر ثورته واستأذن بصوتٍ عالٍ من السائقين أن يُحَمِل ميكروباصاتنا بالركاب وانطلق يقود إحداهما ومن خلفه الميكروباص الآخر يقوده خالد أبو شنب وبعد دقائق هاتفني صديقي

بأن كمال باشا أوقف الميكروباصات في أول إشارة مرور بعد الموقف وحرر لستة من المحاضر ضدي لمخالفة قوانين المرور، فذهبت نقطة المرور وفور رؤيتي صديقي

جالسًا على الرصيف وقد سُحِبَتْ رخصتيه، رخصة القيادة ورخصة الميكروباص.

لكمته في كتفه قبل إغلاق هاتفي وانفعلتُ فيه قائلًا «ياعم البطل.. العربيات اتحبست، وبدل الخمس آلاف هنتخيط في عشرة على الأقل، وبردوا هدفع الخمسة للنجس، الله يسامحك»، ولأول مرة أستشعر معني القهر، وما أبشع قهر الرجال وعجزهم عن صد الظلم واسترداد الحقوق.

ما هذا الزمن..؟ كيف وصلنا هنا.؟ أنا الذي هتفتُ لإسقاط الفساد عن هذا الوطن، وثرتُ ضد الظلم لننعم بـ «عيش، حرية، عدالة اجتماعية»..!!

وكباقي السائقين الذين يعطون الإتاوة عن يدٍ وهم صاغرون، توجهت للنجس أعطيته الخمسة آلاف جنيه، وترجيته أن يتوسط لي عند كمال باشا ليفرج عن السيارات، فتوقف النجس عن لف سيجارة الحشيش ونظر لي قائلًا «الحوار خرج من إدينا وبقى قانوني».

وما أثقل آلالام الحُر عندما يتبدل حاله من المطالبة بالعدل إلى محاولة تقبل ضربات الظلم بصدرٍ رحب، كاد التفكير يفتك برأسي.

وعندما اتصلتُ بأمنية لأفضفض لها عما ألمَّ بي، استنجدت بي قائلة «إلحقني يا نوح، ماما قاعدة في الصالون مع عمي عبده واتفقوا يفركشوا خطوبتنا لو أنت ما خدتليش شقة قريبة منها في الإسماعيلية،

أنا اتخانقت معاهم ورسينا إنها تبقى شقة إيجار»، تهتُ من الخبر فسألتها «بس أكيد مش هنعيش في الإسماعيلية أنا شغلي في القاهرة»، فاجابتني «ماما بتقول عشان أهل البلد ما ياكلوش وشها ويقولوا إنك خدتني منها ببلاش».

لم يكن أمامي سوي طمأنة أمنية وكتم ما اتصلت لأجله.

أنهينا المكالمة وبكيت من فرط احتياجي لكِ يا فيروز، كنتُ خائفًا ومليئًا بالغل والمتناقضات ولم يكن ليفهمني غيركِ، وكان من العجز أيضًا إحساسي أنه ليس من حقي البوح لكِ بأوجاعي، لقد صار بيني وبينك فتاة أخرى، بيننا أمنية، وأنا لا أبوحُ لكِ يا فيروز كأختٍ مثلما تبوحين لي كأخٍ على حسب قولك، فكتمت أحزاني خوفًا من خيانة أمنية بمشاعريٍ إليكِ، وخيانة المشاعر أبشع من خيانة الأجساد.

حاولتُ احتواء نفسي وكلما زادت آلامي تظاهرت بالقوة أكثر.

وفي اليوم التالي بدأت إجراءات الإفراج عن الميكروباصين فوجدت التكاليف أربعة عشر ألف جنيه.

سهرت ليلتها مع صديقي محمد عبدالناصر بعد انتهاء عمله أمام الصيدلية، واستفتحنا السهر بخبرٍ يزيد الخراب خرابًا وهو رفع الدعم عن المواد البترولية أي أنه من الصباح ستزيد الأجرة ما يقرب ٤٠٪، ضحكنا حتى أدمعنا لشدة القهر لا نجد حلًا لما وصلنا إليه ليس لدينا أموال للإفراج عن مصدر رزقنا، والمصيبة الأكبر أن لكل ميكروباص قسط شهري قيمته ألفان ونصف جنيه، ورطة لا نجد لها مخرجًا، وعمَّ الصمت بيننا وتوقفت عقولنا، وبعد فترة قلت «ما فيش غير حل واحد، نبيع الميكروباص بتاعي عشان نسد الفلوس، بدل ما

يسرقنا الوقت وأتسجن، آدي آخرة إن العربيات كلها باسمي»، وبقينا على حالنا حتى أشرقت الشمس، ولم يتصل بي أحدٌ من السائقين فهاتفتُ آدم ابن خالتي وعبدالرحمن أخبرتهم بحبس مكيروباصين وأن الإيراد متوقف إلى أن تزول الغمة إن لم نبيعهم ونفض الشراكة، ولم يطاوعني جسدي أن أعود البيت لأنام، وقدتُ الميكروباص إلى الموقف وفي جيبي عشرون جنيهًا فقط، بالكاد كفت شراء إفطاري ثم دفعتُ في صمتٍ إتاوة تحميل الركاب لدورةٍ واحدة.

وبينما أقود وبجواري صديقي نتقاسم طعامنا ألقى الأكياس الفارغة من العربة في منتصف الطريق، ثم ومضت ذاكرته في عينيه وقال «أتذكر يا صديقي يوم نظفنا الشوارع، أتذكر الثورة، أتذكر غبار الميدان.!؟، لقد تغيرنا، لقد اتسخنا من صدأ الأمل فينا،وتراكم طاقتنا وطموحنا».

وأضحى قلبي لا يطيق انقباضه لحظة دخولي الموقف، وصرت لا أطيق المقارنة بين ما كنا عليه وما صرنا إليه، كلُ شيء تغير، تعامل رجال النجس معي صار أحقر من طبيعتهم مع باقي المعلمين، وكما قيل في الأمثال الشعبية «البقرة لما تقع بتكتر سكاكينها».

(٣٣)

صرتُ أكثر عصبية مع السائقين والزبائن، ولأول مرة أستلذ الأغاني الشعبية العشوائية غير المفهومة وأرفع صوتها لأعلى مستوى لأُضاعِف الضجيج فلا أترك عقلي للتفكير، الآن أدركتُ جزءًا من حقيقة عامة السائقين لم أكن أدركها.

وبعد اكتمال عدد الركاب في ميكروباصي أخبرتهم بصوتٍ عالٍ وأنا أدير المحرك «الأجرة لأي حتة ٣ جنيهات»، فصاح رجل «ليه..!! لسه راكب إمبارح بـ ٢ جنيه»، فأجبته وأنا أدير محرك الميكروباص «شكلك متابعتش زيادة سعر البنزين على الصبح»، وخرجت من الموقف متجاهلًا تمتمات الركاب، وبعد دقائق جاءتني الأجرة فوجدتها تنقص ثلاثة جنيهات فقلت عاليًا «ناقص نفر «فلم يجيبني أحد فكررت النداء أعلى «بقول ناقص نفر «فرد الرجل الذي اعترض على الأجرة قائلًا «أنا محاسبك على ٢ جنيه وبعت أجرة تلت أنفار بستة جنيهات»، كبحتُ الفرامل راكنًا الميكروباص على جنب الطريق والتفتُ للرجل قائلًا «يعني إيه محاسب على اتنين جنيه.؟ هو بمزاجك ولا إيه.؟»، فأجاب ببرود «لو مش عاجبك اطلع على القسم»، ثرت عليه «لو مش عاجبك ميتين أم الأجرة يبقى تنزل باحترامك تاخد تاكسي»، فقال الرجل «اطلع يا أسطا مستعجلين»، نزلت واستدرت حول الميكروباص فتحت الباب الجرار الذي يجلس الرجل بجواره على الكرسي القلاب،وصحتُ فيه

«انزل يا عمنا باحترامك، عشان هَقِلْ منك قدام مراتك وعيالك»، ويالليت الرجل لم يشح بيده رافعًا صوته قائلًا «ما تعرفش تقل مني»، لم أشعر بنفسي وأنا أسحبه من رقبته إلى الأرض وانهلت على رأسه عدة لكماتٍ ونزل الركاب يجذبوني عنه، فأمسكت ماسورة شوكمان من أسفل إحدي الكنبات وأقسمتُ أنني لن أهدأ إلا بنزول زوجته وأبنائه من ميكروباصي، ولم يجرؤ أحدٌ من الركاب على معارضتي لأن ميكروباصين من الموقف وقفوا جانبي ونزل السائقون، ثم هدأ الأمر وانطلقت ولم أعطِ الرجل الستة جنيهات لأنها أجرة المسافة التي ركبها.

انطلقتُ وقلبي ينزف من كلمة بصوت زوجته وهي تحتضن طفليها قالت «حسبي الله ونعم الوكيل». وفي غرفتي بكيتُ كثيرًا من فعلتي ولم آكل هذا اليوم، كانت تعذبني نظراتُ الطفلين أبناء الرجل، كيف ارتكبتُ هذه الجريمة، لقد كسرتُ المثال الأعلى والرجل الأقوي في عين الطفلين وما ذنب تلك الزوجة أن ترى ما حدث، وما ذنبي أن يدفعني كل شيء بوطني لارتكاب مثل تلك الجريمة دون وعي، والله لم أشعر بنفسي وأنا أسحبه وأضربه.

كيف صرتُ ذلك الشخص الذي أبغضه..!! لكنني لن أعمل بالمجان ولن أوصل الركاب بدون أجرة ولن آخذ أجرة لا تكفي أن أشتري البنزين وأدفع الإتاوات وأسدد حاجاتي، فليست وحدها الأجرة تضاعف ثمنها إن كل شيء تضاعف ثمنه من لحومٍ وخضرواتٍ وفاكهةٍ، وكل شيء، كل شيء يزداد غلاءً إلا المواطن يزداد رخصًا ويزداد تدنيًا أخلاقيًا.

فمن المسئول عن تدني أخلاقنا وتصرفاتنا في الشارع..!!

هل الظلم والفساد يجعلان الشعوب سيئة الخُلق..!!

وفي نومي باغتتني كوابيس مع الطفلين أولاد الرجل، كانا يحاصراني ركلًا بالأقدام بقوة تفوق الرجال وأنا ملقى على الأرض أبكي وأصرخ قائلًا «غصب عني الأجرة غليت، والله غصب عني»، وظللت أصرخ وأصرخ حتى غطى وجهي رذاذ مياه وسمعت صوت أمي تقول «بسم الله الرحمن الرحيم «فاستيقظت لأجدني بين أبي وأمي على سريري، فأعاد أبي رش مياه خفيفة على جبيني قائلًا «الله يحفظك يا صايع «ثم جذبني من يدي أوقفني قائلًا «فوق وروق».

ومد لي زجاجة المياه فشربت وأخذت نفسي قائلًا «هو في إيه؟»، فأجابتني أمي «افتكرنا فيه خناقة في الشارع وحد بيتضرب، قمت أبص من الشباك لقيتك أنت»،جلس أبي على المكتب قائلًا «أنت كويس؟»، فأجبته «بفكر أبيع الميكروباصات، وأسافر، اتخنقت من البلد دي «فضحك أبي عاليًا «ليه بس يا عم الثورجي قصدي رجل الأعمال..!! فين الوطنية والأحلام الوردية..!!»، فضحكت له أثناء خروجي من الغرفة واقفًا عند الباب قائلا «للأسف اكتشتفت متأخر إن ما فيش وطنية من غير بلطجية تسندني وفلوس تعيشني».

(٣٤)

أحتاجكِ أكثر مما مضى يا فيروز.

لكن، ليس كل ما نحتاجه يحق لنا. ثم تحول احتياجي لكِ إلى هواجس مرئية وصرت أتخيلكِ كثيرًا معي وأستحضرك في خيالي فأحكي لكِ عن كل ما أردتُ حكيه، وحين يقاطعني اتصال أمنية أثناء تجليكِ لا أجيب وأكمل معكِ الفضفضة، حتى في صباح أحد الأيام وأنا أرتدي ملابسي في غرفتي استعدادًا لنزول الموقف سمعت صوتك في صالة بيتنا فخرجتُ سريعًا أسألُ بصوتٍ عالٍ «ماما، هي فيروز جت؟»، وعندما وصلت الصالة وجدت أمي وحدها تقرأ في المصحف فتوقفت قائلة «صدق الله العظيم، فيروز إيه إللّي هتيجي بدري كده.؟ هي وحشتك أوي كده؟»، فأجبتها متماسكًا «منا استغربت لما اتخيلت صوتها في الصالة»، فضحكت أمي خفيفًا قائلة «طيب حتى اتخيل صوت أمنية، بلاش قلة حيا «ثم أكملت قراءة.

غضبت من نفسي واتصلتُ بأمنية أفضيتُ لها بشجاري مع أحد الركاب وكنتُ أتمنى إخبارها بكل شيء،لكن خفت أن تضعف لضعفي، وتشعر بالذل أمام أهلها.

فغضبتْ وفتحت في وجهي مضخة من النصائح الإنسانية والأخلاقية حتى ندمت على فضفضتي. وأحيانًا نحكي دون الحاجة لتأييد أو معارضة.. فقط نريد أن نحكي.. أن نبوح دون خجل.. أن ننفث ذلك البخار الضاغط على جدران رؤوسنا، وأقسى ما في تلك

اللحظة أن يتحول من يسمعنا لناصحٍ وواعظٍ يذكرنا بأن أقاصي الأرض بها من هو أسوأ حالًا منا، وأننا بحاجة لتوبة.

ولقد كنتِ يا فيروز ذلك الشخص المنصت بفهمٍ وتعقلٍ ولا يدعي الحكمة والوعظ، كنتِ وما زلتِ خير منصتٍ عرفته بحياتي، ولم أندم يومًا على البوح لكِ بأي شيء.

ما يهم، بعد أن انتهت أمنية من سيل النصائح، عاتبتني لأني لم أخبرها في وقتها لتساندني وتخفف عني، فبررت لها أن هذه طبيعة الحال في الموقف وانتهت المكالمة بإصرارها أن آخذ إجازة في الغد وسوف تأتي إلى القاهرة نقضي يومًا دون التكلم في مشاكل، بالتحديد قالت «نقضي يوم من غير مشاكل، نحب في بعض وبس».

(٣٥)

أحببتُ أن أعيد ذكرى أول لقاء في القاهرة مع حبيبي نوح..

فعندما نعيد الذكريات الأولي مع أحبتنا، تعود لنا مشاعر البداية ولهفة القلوب.

لكن الاختلاف هو أن حبيبي سبقني لمحطة القطار واستقبلني فور وصولي بصدق الشوق، وأكملنا المسير في شارع رمسيس في تشابكٍ لأرواحنا قبل أصابعنا، وقد ساد صمتٌ لطيف تتخلله نظراتنا الهائمة وبسماتنا الصافية لنسقي أرواحنا العطشى للحياة ونجددها بالسعادة، وعند عبور الطريق قبل إغلاق إشارة المرور وجدتني دون أن أشعر أمد يدي أمام وجه حبيبي فحجبت عنه الرؤية فتوقف فجأة فسمعنا صوت كبح فرامل سيارة مسرعة كادت تصدمنا، وأنا أقول «إيه رأيك في لون المونيكير»،لينفجر حبيبي ضاحكًا غير مكترث بشتائم قائد السيارة وعند وصول الرصيف ترك حبيبي يدي وانحني واضعًا كفيه على ركبتيه وزاد ضحكه حتى تكثفت سعادته على هيئة دموع سالت من عينيه وهو يردد «هتموتينا عشان لون المونيكير «فبقيت مخبأة وجهي بكفي، وعندما هدأ حبيبي وقف قائمًا وسحب كفي من على وجهي ثم قبله، فاندفعت مني شهقة عالية قائلة «مجنون».

ثم ركبنا سيارة أجرة ولم أسأله أين نحن ذاهبون، حتى توقفت السيارة أمام حديقة الأزهر بارك، واقتربنا من باب الدخول وتقدم

حبيبي لشباك التذاكر فاستوقفته قائلة

– إزاي تجيبني الأزهر بارك، وأنا عايزه أروح مكان حبنا على النيل؟

– أنت ما قولتيش عايزه تروحي حتة

– أديني قولتلك

– طيب النهارده نقضي اليوم هنا ويوم تاني نروح مكان حبنا

– تؤ، عايزة أروح مكان حبنا

فأجابني بهدوءٍ وهو يمسك يدي بكفيه فأوصل لجسدي إطمئنانًا رسم بسمة خفيفة على وجهي

– الله يكرمك بلاش البصة دي عشان بسببها ممكن أبيع هدومي

– وحياتي، وديني الكورنيش

ويا لروعة حبيبي حين أستحلفه بحياتي،أرى في وجهه حنية الحياة وعطف الكون ورجولة أبدية

– وحياتي، بالراحة عليا عشان بصتك دي أنا مش قدها

– اتفضل امشي قدامي يا أستاذ

– علله نلاقي مواصلات بسرعة

– ومين قال إننا هنركب، عايزه نتمشى، ولا عندك مانع.!؟

– تحت أمرك يا مليكتي

– يا واد بحبك بقى، يوووه

(٣٦)

يا أيها الطريق الرقيق ويكأنك فُرِشْتَ ريش نعامٍ وتَفَوَحْتَ براحةِ البال لمجرد أن يمر بك عاشقان.

«الله، الياسمين حلو أوي «جملة قلتها في طريقنا من حديقة الأزهر إلى الكورنيش أثناء مروري مع أمنية بجوار مجموعة ورود الياسمين، فقرصتني في ذراعي قائلة

«ياسمين في عينك، ما تنطقش اسم بنت غيري طول ما أنا معاك، فاكرني كيس جوافة.!!».

– إيدي يابنت اللذينة، أقصد ورد الياسمين

– ده مش مبرر، قول ورد وبس

– خلاص حَرَمت، بَطَلِي قرص بقى، الله يخرب بيت الورد كله لو هيزعلك

– أيوه كده، شطور

و يا لعظمة الغيرة الصادقة تزين وجوه النساء وتثير غضبهن لأتفه الأشياء.

لم أتوقع غيرة أمنية من اسم الورد.

عظيمة أنتِ في رقتك، موقن أنك ستعيدين حيويتي وبريق الحياة في عيني.

وصلنا الكورنيش، وعند مرورنا أمام باب مرسى الأتوبيس النهري همست لها قائلًا «قريب هركبهولك، ومش هيهمني إن عندك فوبيا».

- على جثتي
- منور يا حج نابليون
- بنورك يا مولانا هتلر

فقبضتُ على يدها منطلقًا تجاه المرسى قائلًا «وليه نأجل لما نقدر ننفذ حالًا..!!، وربنا هنركب حتى لو صوتي ولميتي الناس».

ظلت تترجاني تاره، وتصيح تارة، وفي كل خطوة تحاول إيقافي، وتمسك حديد المرسى، وتضرب الأرض بقدميها بطفولة،فجذبتها خطواتٍ ثم دفعتها دفعًا، وأخيرًا، ركبنا الأتوبيس النهري وعيناها جاحظتان من الهول، وقد تلاشى صوتها، وعندما همت باحتضان يدي اليمني أفلتها منها فاحتضنت اليسرى وهمستُ داخلي «مش هخليكي يا فيروز تبوظي علينا اللحظة دي «فأجلستُ أمنية جوار الشباك فخبأت عينيها في كتفي قائلة

- المياه شكلها مخيف بجد، حرام عليك يلا ننزل قبل ما يتحرك
- عندي حل جميل، نطلع الدور إللي فوق هتشوفي المياه من بعيد بدل ما أنت خايفه منها عشان قريبة
- إحساسي إني في نص المياه راعبني، عشان خاطري نلحق ننزل قبل ما يتحرك
- الله حرف الراء حلو أوي وجي في ٣ كلمات مرة واحدة «راعبني، خاطري، يتحرك».
- أنا في إيه وأنت في إيه !! بقولك مرعوبة
- مش من حقك تترعبي وأنا معاكي

جذبتها فوقفت من جلستها، واتجهت بها لسطح المركب، ولمجرد أن خرجنا من كوةٍ السلم رأت أمنية السماء تتأرجح فأحست باهتزاز المركب أكثر فأحكمت احتضانها يدي لتزيد غروري برجولته

وتمنحني لحظاتُ كبرياءٍ لأجلها سمي الرجل رجلًا.

تقدمنا ببطءٍ بين عشاقٍ يملأون المقاعد فلم نجد مقاعد غير التي في مواجهة الشمس، فأجلستها ووقفتُ أمامها معطيًا ظهري للشمس تاركًا كفي بين كفيها، وقلت

– على فكرة شكلك حلو أوي وأنت خايفة

– مصيرنا ننزل وهقرصك لحد ما دراعك يورم

قطع كلامنا محصل التذاكر، فهممتُ بسحب يدي من يديها لإخراج النقود فتمنعت وأحكمت قبضتها أكثر، فأخرجت النقود بيدٍ واحدة فتعالى ضحك المحصل، ثم وضعتُ التذاكر في جيبي فقالت أمنية «لما ننزل بعد ما أقرصك وأرتاح، أبقى إديني التذاكر أحتفظ بذكرياتها الهباب».

وانطلق المركب فجلست جوارها فاختبأت في ذارعي، وهمست لها «هتفضلي مرعوبة طول ما أنت عمالة تقولي خايفه، عشان خاطري ما تضيعيش لحظة حلوة، بصي المياه جميله إزاي، والناس كلها مبسوطة، استمتعي».

فأجابتني «مصيري هفوق وهروقك»، فنظرتُ لها مراقصًا حاجبي، قائلا «هفوق..!! دي كلمتي يا حرامية».

حاولتُ بكلِ الطرق تقليل خوفها، بالفكاهة ومحاولة الابتعاد عنها،وبكلماتٍ رقيقةٍ لكنها لم تلن إلا عندما صعد سطح المركب فتاتان جلسا جواري ولم أكن رأيتهما أو شعرت بهما، قد كنتُ أنظر لأمنية، فقالت «هاتني مكانك»، وقبل أن أنظر خلفي أجبتها «من شكلك كده، أكيد بنت حلوة قعدت جمبي، صح.؟»، فقرصتني قائلة «حلوة في عينك، يلا قومني».

حقًا، لا شيء يُفيق الأنثي أقوي من الغيرة، وقفنا نتبادل مكانينا

فسحبتها تجاه سور المركب، أوقفتها ووضعتُ يدي على كتفها قائلًا «طالما وقفنا، يبقى خلينا هنا أحلي»، فأجابتني برعشةٍ «أنا توقفني هنا يا مفتري..!!».

تجاهلتُ رعبها وأشرتُ للقصور على ضفافِ النيل قائلًا «نفسي أجيبلك قصر زي دول وتمليه عيال».

فأجابتني «أوضة فوق السطوح، هتبقى أحسن من القصر، طالما سوا».

فملتُ عليها هامسًا «لما أوضة هتبقى حلوة طالما سوا، أُمال قصر ع النيل وإحنا بردوا سوا ده هيبقى ما يتوصفش، إدعيلي أبقى من حرامية البلد عشان أجيبه».

– وقتها مش هعرفك يا نوح

– بهزر

– ولا حتى في الهزار تقول كده

– خلاص إدعيلي أجيب قصر وخلاص

– ربنا يديك عشر قصور، بالحلال يارب

– طالما بالحلال، يبقى إدعيلي بالصبر كمان

تناغمتْ ضحكاتنا حتى تلاشى خوفها تدريجيًا، ثم التقطنا بعض الصور، وانتهت دورة المركب وعاد للمرسى.

وفور خروجنا من باب المرسى إلى رصيف الكورنيش، وضعتْ أمنية يدها على صدرها، لحظات.

ثم بدأت ضربي كثيرًا في كتفي وذراعي وأتمتها بالقرص الكثير قائلة «إزاي تركبني مركب !! إزاي، بجد إزاي؟؟»، فتركتُ يدها وصفقتُ وأخرجت لساني قائلا

– وقريب هتطلعي البرج

- قولتلك على جثتي
- الله يخربيت الكلمتين دول، ماشي يا نابليون، خلاص بقي بطلي ضرب
- براحتي، أنت ركبتني مركب، وأنا أضربك براحتي
- مااشي براحتك
- يلا وديني مكان حبنا، عشان أسامحك
- مهو قريب خالص، يلا بينا

وأكملنا طريقنا جلسنا في مكان حبنا، وبكل حدةٍ رفعت إصبعها السبابة محذرة «لو اتريقت عليا هروح، خلينا حلوين»، فلم أُجبها بكلمةٍ ونظرتُ لها تاركًا حاجبي يرتفع مستنكرًا مع هزة رأسي، فانفجرتْ ضاحكة قائلة «لو سمحت سيبني أتخانق ما تبوظش عليا اللحظة».

فأجبتها «قبل الخناقة صحيح، مش الصول محمد فرغلي رجع يظهر في المنطقة تاني، شكله هرب من مستشفى المجانين، أو زي ما الناس بيقولوا المستشفى بتسرح المجانين إللي مافيش حد يدفعلهم مصاريف»، فابتسمت قائلة

- أنت بتغير الموضوع عشان أنسى إني عايزه أقرصك؟
- لو قرصتيني هضربك
- هتضربني.؟
- أنتِ وإللي يتشددلك
- يبقى هتضرب نفسك، وطبعًا إللي يقربلك هطرقعله كدهون

ونزلت بكفها على رأسي دون أن أتوقع، ففجعتني، وأطلقتُ ضحكة عالية

(٣٧)

عُدتُ اليوم مبكرًا من عملي فوجدت أخي طارق ومنى وحدهم بالبيت، ثرت عليهم قائلة: «منورة يا أستاذة منى، يا ترى أبوكي عارف إنك هنا؟»، فأجابت ببرودٍ وهي تضع قدمها على المنضدة المقابلة للأريكة قائلة «هسيبك ترد عليها يا راجلي»، فقام إليَّ طارق قائلًا «احترمي نفسك يا بت»، فأجبته وأنا أطعنها بعيني احتقارًا من قدميها إلى شعرها قائلة «مش لما هي تحترم نفسها الأول..!!»، فازدادت منى برودًا وهي تمسك يد طارق بكفيها قائلة «ما تعصبش نفسك يا راجلي، هي كل ما تشوفنا سوا بتغل وتولع»، فتركتهما وخرجت إلى الصالون قائلة «عيني على الرجالة، إبقي اسألي أبوكي من المرجلة تيجي من وراه وتقعدوا وحدكم؟ بدل ما أتصل بيه أسأله بنفسي»، فقام طارق وكزني بيده في ظهري قائلا «ما تتلمي بقى، قولتلك شيلي منى من دماغك خالص»، استدرت إليه وصوتي يعلو صوته «مهو يا تقعدوا باحترامكم يا إما تاخدها في أي خرابة».

لم أسمع بعدها سوى طنينًا وتداخلت صور الأشياء بعيني وطارق ينهال عليَّ ضرباً بيديه ورجليه ومنى تحتضنه من ظهره تحاول إبعاده عني وأنا أقاومه فلكمته بأنفه فسالت دمًا.

وبعد انصراف طارق وصراخ شتائمه تدك جدران البيت اتصلت بوالد منى سألته عنها فأخبرني أنها في زيارة لصديقتها، فأخبرته بوجودها في بيتنا، وعندما علم طارق عاد لضربي ثانية

ووقفت منى شامتة، بعد أن أخبر طارق أبيها بأنني افتريت كذبًا على ابنته بسبب شجار بيني وبينه ثم ذهبت منى لصديقتها وهاتفت أبيها من عندها لتثبت كلام أخي.

كنت أظن ما حدث لا ألم بعده نفسيًا وجسديًا، لكنني كنتُ مخطئة، فما فعله حبيبي كان أبشع ألمًا قد أخبرته بما حدث فشد أزري بمكالماتٍ طويلةٍ ثم أتى في اليوم التالي، وبينما نحن نتناول الغداء في صمتٍ فقد شَدَدَت أمي ألا أتكلم مع طارق ومنى ولا أفاتح نوح أمامهم في أي مشكلة، وبينما نحن في صمتنا أطلق لسان حبيبي قذيفة حارقة صادمة بصوتٍ سمعناه جميعًا.. قائلًا «ناوليني السلطة يا فيروز».

انتبهت أمي قائلة «بتقول إيه؟»، فأعاد كلمته وطعنني بتلقائيته أكثر قائلًا «بقولها ناوليني السلطة يا فيروز»، فقالت أمي «فوق يا حبيبي اسمها أمنية مش فيروز»، فنظر حبيبي بوجوم المفضوح مستفهمًا بصوتٍ خافتٍ «أنا قولتلها فيروز..؟»، فلاحقتهم قائلة «الله مش إحنا متفقين تناديني فيروز بيني وبينك بس، أديك فضحتنا «ثم استدرتُ لأمي أوضِحْ «أصل نوح بيقول إني بفكره برومانسية فيروز»، وكان يغلف كلامي صوت همهمة طارق وهمز منى وضحكات كيدها المنخفضة، ونظرات تكذيب أمي التي قالت «أنت حرة طالما عيزاه يناديكي فيروز، إن شا الله يناديكي أم أربعة وأربعين».

منذ تلك اللحظة لم يعد قلبي كما كان، شيء بداخلي تصدع وانهار أثناء تمعني في نظرات نوح وهو يقول «فيروز «كانت عيناه مفتونتان بفتاةٍ غيري، لم يكن ليراني وقت ذكر اسمها، تمنيتُ لو كنت عدمًا وقتها، يا ليتني متُ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، إن عيناه مفضوحتان ومهما حاول إقناعي فلن يهزم شعوري الأنثوي بقلب حبيبها، حاول مجاهدًا تهدئتي ونحن على انفراد فوق السطح فلم أستطع سماعه،

وقلت له بفتورٍ وأنا أنظر بعيدًا عنه، وأُشِيح له بطيئًا بيدي
– هششش، بلاش كلام في الموضوع ده
– حقك عليا، كنت مركز في شغل بحضره واتلخطبت
– .....
– أمنيتي، وحياتي بلاش تزعلي، أنت أعقل من كده
– .....
– والله في واحدة اسمها فيروز بعملها شغل الفترة دي، فلساني واخد على تكرار اسمها
– ويا ترى شغاله معاك في الموقف؟
– لا عندها مطاعم سوري، وبجيبلها البضاعة وأوزعها
– .....
– وحياتي ما تزعليش
– بلا حياتك بلا خرا
– يا بنتي والله مافيش في قلبي غيرك، بس تركيزي في الشغل بوظ الدنيا
– .....
– يارب أموت لو فضلتي زعلانة
– الأعمار بيد الله
– .....
– .....
– للدرجادي..!!
– أنت مش متخيل أنت عملت إيه.!!
– .....
– عشان خاطري روح، أنا مش طايقاك، ويا عالم هنكمل ولا هنفركش.

(٣٨)

سامحك الله يا فيروز.. هربتُ منك فلاحقتيني بأحلامي وفلتات لساني.

كنتُ صارمًا على قلبي في الواقع، لكنه كان أصرَمَ في اللاوعي.

ما زلتُ أرى ملامحكِ في كل الوجوه، فأهربُ منكِ لعلي أتوه، لكن عنوانك نفسي. لقد واظبتُ على علاجي منكِ وقللت تواصلنا حتى أصبح شبه منعدم، فاليتركني طيفكِ وشأني مع من اخترت، والله لقد شغفتني أمنية حبًا واتخذتها حجر الأساس في كل شيء حتى أحلامي في مشروعاتي صارت لها، وتحملت كثيرًا لأجل أن نكمل الطريق معًا وأسارع الزمن في تجهيز بيتنا، فلماذا يا فيروز.؟

إن سقطة لساني أسقَطَتها أمام أسرتها وأسقطتني من قلبها، أعترف بجريمة عقلي اللاواعي أعترف ولا ذنب لي، أجلد ذاتي كلما رأيت أمنية، أخاف منادتها فأنطق اسمكِ أنتِ لقد أصبحتِ لعنة لساني يا فيروز، وبعد أن كنت أحب تكرار اسم حبيبتي أمنية في كل جملة صِرت أتلاشى النطق به، صرت لا أثقُ بلساني منذ لحظة مناداتها باسمك يا فيروز.

يا فيروز.. تستيقظ جرائم الماضي عندما ننوي الاستقامة، فلم أعد قادرًا على الرجوع ولم يعد التقدم متاحًا، عالقٌ أنا بين آثامي وآمالي، ولم أتخيل يومًا أن أتهم قلبي بالإثم لطهارته.

يا أمنية..عالقٌ أنا بين فقدكِ والتوغل فيكِ، وأدرك أن الشرقيات

لا يغفرن ماضي الرجال، ولا يوجد شرقيٌ بلا ماض ولو أدعي طهارة ماضيه فهو منافقٌ لا تستأمنيه أو ساذجٌ لا تحتمي به، فوطننا العربي وطن للمتناقضات، وعقول رجاله وطن للانفصام وصراع المبدأ والتطبيق،والسبب أن كل شيء بالوراثة دون إقناع ولعلو صوت المقدسات على صوت العقل.

ومن تلك اللحظة إستجمعت عزيمتي وقررت التحرر منكِ يا فيروزربما أخفف هواجسكِ التي تسيطر على عقلي وأمحوها من ذاكرة الأماكن التي جمعتنا أو مررنا بها، وأشر تلك الأماكن يداي وأعمقها عقلي، وأبرزها الشوارع، فأخذت أمنية كخنجرٍ عربيٍ أصيل واستللتها أطعن بها جميع الشوارع التي اصطحبتكِ فيها يا فيروز، وجلسنا في نفس الأماكن وأكلنا نفس الطعام.

وعندما هاتفتني أمنية تريد أن نقضي يومًا في بورسعيد سافرتُ إليها وجددت نيتي واستجمعت مشاعري أنني أريدها زوجتي ومسكني، وكلما اقتربتُ من بورسعيد كررتُ اسمها بعقلي خوفًا من مناداتها باسمكِ عند لقائها ومازلتُ أحاول وأكافح تجاهكِ، حتى وصلت وناديتها باسمها ففرحت، وأكلنا في مطعمها المفضل ثم انطلقنا على الممشى السياحي قبيل الغروب، كان لقاءً دافئًا أنهيناه على أحد الكافيهات المرصوص كراسيها على رمال الشاطئ، في طرازٍ عربيٍ أصيل، معطيين وجوهنا للبحر نشاهد اختفاء الشمس وقد انعكست ذهبيتها على وجه أمنية فزادتها أنوثة وهِمْنَا في صوت هدير الأمواج في خشوع جعل جسدي لم يشعر بالجاذبية من فرط السلام الداخلي المتسرب من دفء احتضانها ذراعي وحين أسندت رأسها على كتفي قلتُ جملتي المعهودة «تواجدي معك يغسل روحي ويجعلني أنقى من الألماس»، ويا ليتها لم تتخط سكوتها ولم تَقُلْ» بحبك يا نوحي «لقد

سمعت جملتها بصوتكِ يا فيروز فانتفضت ساحبًا يدي من يدها، فَتَعَجَبَتْ.

وحاولتُ تدارك الموقف مازحًا «مين نوحي ده؟ «فضحِكَتْ قائلة «عفريتك»، فأجبتها «دي أول مرة تقوليلي نوحي»، فأجابتني «ما تقلقش بدلعك مش بغلط في اسمك زي ناس».

وفي كل مرةٍ أرى أمنية تسيطرين يا فيروز على عقلي أكثر، صرتُ أخشى النظر لعينيها لكثرة اللوم فيهما.

وتدريجيًا كرهتُ لقاء أمنية لأن حضورها يستدعي طيفكِ يا فيروز وكأني مسحُورٌ لي.

(٣٩)

الآن أبيع أحلامي.

وأقبض ثمنها لأفك أسر ما تبقى من مستقبلي.

الآن أتنازل عن مكسبي الذي صنعته في الفترة التي كان لي سندٌ أستقوي به، الآن أسلم الوطن ما ميزني عن عامة سائقي الموقف فلو لم أكن دخلته عن طريق بلدوزر لما تبقى لي جنيه بعد دفع الإتاوات وقوت يومي،الآن أدرك الحقيقة التي أخفاها عنفوان شبابي.

بعتُ الميكروباص الذي فرحتُ بانتهائي من دفع أقساطه، ودخلت متاهة المصالح الحكومية لفك أسر الميكروباصين.

وبينما أنا في انتظار دوري في مصلحة المرور أتتني مكالمة أمنية التي لم أفهم دوافعها إلا بعد فوات الأوان

– ألو، أنت فعلًا بتحبني؟

– أمنية، مش فايق خالص، ومش طايق نفسي

– معلش، جاوبني، بتحبني؟

– أيوه متنيل بحبك

– متأكد !؟

– اللهم طولك يا روح، آه متأكد

– يارب ما تكونش بتكدب

– خير.؟ مالك؟

– ماليش، حبيت أتأكد، وبعدين فيك إيه صوتك مخنوق ليه؟

– أبدًا، بعت ميكروباص عشان أطلع الاتنين التانيين من الحبس، ومتزفت في المرور دلوقتي بخلص الإجراءات

– إيه ده كله..!! أتاريك مش طايقني

– حقك عليا

– حقك أنت عليا، وكل ده حصل إمتى، ليه ما عرفتنيش

– من عشر أيام تقريبًا، اتصلت بيكي وقت المصيبة قولتيلي أمك عايزه نأجر شقة جمبها

فماحبيتش أنكد عليكي أكتر

– زنقة وهتعدي يا قلبي، أنا هشوفك كمان يومين صح؟

– أكيد لازم آجي خطوبة مؤمن

– لما تروح البيت عرفني هبعتلك صور، هتفرفشك ع الآخر

تخيلي يا فيروز..!! أمنية أرسلت لي صورها في شرفة سكن الطالبات مرتدية فستانًا أسود تنورته قصيرة جدًا،ويكشف صدرها لدرجة ضيقت أنفاسي، ويبرز أنوثتها بعنفوانٍ استفز رجولتي فهاتفتها منفعلًا..

– إيه قلة الأدب والوساخة دي.؟

– تنكر إني حلوة..!!

– إزاي تتصوري كده؟

– عشان تعرف إني حلوة

– اتجننتي يا بت، ما نقلع ملط في الشارع أحسن..!!

– يعني ماليه عينك.!

– مش مستوعب وربنا، أقسم با...

– بلاش تحلف، ما تعملش فيها سي السيد

– هو في إيه بجد.!؟

– فيه إني شكيت في نفسي، من كتر منا شيفاني قليلة في عنيك
– حبيبتي، والله مش مالي عيني غيرك
– يارب ما تكونش بتكدب
– وبعدين العمارة إللَّي وراكي في شاب بيبص عليكي في الصورة، ينفع كده.؟
– تفتكر ماليه عنيه ولا شايفني قليلة برضوا.؟
– تفتكري لو كنتِ قدامي كنت هلطشك قلم ولا اتنين؟
– وطي صوتك بس وبلاش تأفور
– الجريمة دي ما تتكررش تاني، أنا مش من حقي أشوفك بالمنظر ده غير بعد الجواز
– مولانا، فكك، وبلاش شغل التخلف ده
– تخلف..!!
– مهو مش هتخنقني بتحكماتك في الشارع وكمان في البيت، أنا كده وإن كان عاجبك
– اتهبلتي يا بت؟، مش ناويه تتعدلي ولا عجباكي أسطوانة النكد إللِّي بقيتي عليها؟
– بقيت عليها من إمتى؟
– مش فاكرإمتى، بس من فترة
– لما تفتكر إبقي قولي
– إنتي عايزه إيه؟
– ما بقيتش طايقة تحكماتك، أنا بني آدمه وليا شخصيتي ومش هاخد أوامر منك تاني
– وربنا في حاجة غلط، اتلبستي بعفاريت ولا ضاربة إيه؟
– احترم نفسك، أنت مش بتكلم عيله صغيرة، أنا واحدة ليا

كياني وناجحة في شغلي

– إيه دخل شغلك في كلامنا، ولا هو إيه هلفطة؟

– شغلي معناه إني واحدة مسئولة، ومش بستني أوامر سي السيد عشان أعرف عايزة إيه

– شامم في الكلام ريحة غلط، شكلك بتمهدي لحاجة هتعمليها ومتأكدة إني مش هوافق

– ليه فاكرني مكارة زيك، أنا كلامي واضح، مش مستنية اختياراتك وأوامرك ويكون في علمك، بقولك قبل خطوبة مؤمن بيومين عشان تبقى مستعد نفسيًا وما تعملش متفاجئ

– أيوه بقى، خشي عليا باللي عماله تمهديله من الصبح

– هلبس الفستان الروز، مش هستنى لما يقدم وأنا ملبستهوش خالص

– أمنية، هي كلمة مالهاش تاني، الفستان ده يتلبس في مكان فيه بنات بس، ولو لبستيه في الخطوبة والله

– قبل ما تكمل حلفان، الفستان ده باللي بنا

– مش فاهم..؟

– يا ألبسه يا تاخد دبلتك، كفاية تخلف، ده حتى الفتسان الروز بلبسه بحجاب، ما تخليهاش تطق في دماغي وألبس الفستان الأسود

– عشان تثبتي إن عيلتك ما فيهاش راجل محترم

– المهم أعمل إللِّي يريحني وبس

– أكيد بتهلوسي، سلام

أغلقت الهاتف ولا أفهم ما يحدث، إنها ليست أمنية، لقد تحولت.

أنهيت المكالمة فرًا من الشر، فرنين صوتها يقرع أجراس الفراق وأنا أخشى فقدها، يرعبني فراقها، ربما لو كانت أمامي لسيطرت على الموقف وتفاهمنا، لكنها محشوة بارودًا فَجَرَته بدون سبب، «يا ألبسه يا تاخد

دبلتك «هل يعقل أن يصل الحال بأمنية فتقول هذا الكلام..!! متأكد أنه لا يوجد سبب، ومتأكد أنني لم أتغير فلماذا تقول أنني أصدر أوامر.!!

لكن كلامها يخبئ إدانة عليَّ، ربما عايرتها أمها ونادتها «فيروز»..!!

رحماك يا أرحم الراحمين، اللهم أنزل عليَّ لطفك، لقد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، وتكالبت المصائب تنهشني كما يتهافتُ الأكلة على قصعتهم، اللهم دبرلي أمري والطف بنا.

هل أوافق على ارتدائها الفستان درءًا للشر أم أصر على ما اتفقنا عليه منذ شهرين بأنه فستان خاص بأماكن تواجد الفتيات فقط.؟ إنه يجسد مفاتنها وأنا أغار عليها..

ليست مشكلتي في وجود قطعة قماشٍ تستر شعرها،إن الحجاب سترٌ للمفاتن وإخماد شهوة الرجال

أيا أمنيتي لن نفترق لن أفقدك وسأكون مرنًا وأتقبل كلماتك المهينة لتستمر علاقتنا، فأنا أحبك. وجاء يوم الخطوبة كنت أحترق من الداخل من فستانها، لكن أمنية تظهر السعادة والحب بيننا كي لا يشمت فيها شامت.

وجلسنا نهلل ونبارك العروسين وهما يلبسان دبلتي الخطوبة، بين أسرة منى وأسرة طارق وبعض الأقارب من أعمامه وخالاته وعيالهم، وبينما نحن في حالنا المبهج وبسماتنا وتصفيقنا والأغاني تراقص الهواء بصوتها العالي جدًا، شاورت سعاد لأمنية وهي تنادي بصوتٍ عالٍ غير مسموع بسبب الأغاني فقامت لها أمنية تجاذبا كلماتٍ قليلة وأنا أتابعهما ثم جلست أمنية جوار أمها فتوقف صوت الأغاني، فبرز صوت الجميع حيث كانوا يتكلمون بأصواتٍ عالية ثم سكتوا يتلفتون عن سبب إيقاف الأغاني مع إن اللاب توب يعمل فناديت بصوتٍ يسمعه الجميع «يا فيروز.. لما قعدت هزيتي فيشة السماعات».

(٤٠)

كانت بقسوة الثورة وجفاء الوطن وسرعة المقصلة وهي تطرد دبلتي من إصبعها، ثم وضعتها بيد أمها سعاد قائلة «قوليله يلبسها لفيروز إللَّي مجنناه»، لتحدث هرج ومرج بين الجميع وتدوي صدمة غير متوقعة بعين منى التي قالت «جايه تبوظيلي فرحتي يا أمنية..!!»، ورغم ما في الموقف من جنون أمام المعازيم لكن أمها فرحت بابتسامة مسمومة وهي تضع الفيشة في الكهرباء قائلة «دول بيهزروا يا منى، عاملين فيكي مقلب «واجتاح الصمت صليل الأغاني وتزلزلت سعاد رقصًا وقهقهة، وجلست أمنية بعينين تبحلقان في محاولة كتم صرير أنفاسها، وأنا أرى حركة الجميع بطيئة كمشهدٍ سينمائي بالتصوير البطيء جدًا، وتبدل صوت الأغاني بهتاف الثوار «يسقط كل من خان»، لم أدر ما علاقة تلك الأشياء ببعضها ولم أفق مما أنا فيه إلاباقتراب سعاد وهي تمسك كفي في استسلامٍ مني فوضعت الدبلة وأطبقت أصابعي عليها وقالت كلامًا لم أسمعه ثم استدارت تكمل رقصها، فسقطت الدبلة من يدي منطلقة لمكانها تحت حذاء سعاد فدهستها برقصها. ثم سحبتني أقدامي إلى السلالم أتكئ على الدرابزين وفور وصولي مدخل البيت سمعت اسمي بصوت أمنية فاستدرتُ لها فأحكمت يداها حول رقبتي في حضنٍ جهنمي، وبكاؤها كالسعير وشهقاتها مطرقة على سندان روحي فانهمرتُ بكاءً وازدادت إحكام يداي خلف ظهرها، وسعاد ترقبنا في مشهد رأسي

من أعلى السلم، لم ندر كم بقينا على حالنا.

لكن فور رجوع جسدي للخلف أحسستُ سخونة دموعها على قميصي بين كتفي ورقبتي فمسحت دموعها من خديها وقبَلتُ رأسها وقد هدأت شهقاتها، فقالت «والله آسفة مكانش قصدي إللِّي حصل زي ما أنت مكانش قصدك تعمل فيا كده، ويارب فيروز تشوفك حبيبها لكن إحنا كفاية علينا عشنا أيام حلوة بلاش نحرقها لو استمررنا، وكمان خلاص استحالة نرجع»، جذبتها لحضني ثانية وهمستُ في أذنها «والله محتاجلك أوي «فأجابتني «ياريت كل حاجة بنحتاجها نقدر نحبها»، فضممتها أكثر قائلًا بحرقة «والله بحبك يا أمنية».

ضحكت قائلة «كويس إنك ما قولتش بحبك يا فيروز، على فكرة أنا مش مجنونة عشان أنهي اللي بنا بسهولة، أنا لآخر لحظة مكنتش هقولك سبب إني متغيرة من فترة عشان أحافظ على علاقتنا، بس مقدرتش أستحمل أكتر من كده، أنت بتعمل جريمة أكبر من الخيانة».

فأجبتها «مش فاهم أي حاجة»، فزادت ضمي لحضنها قائلة «أنا قرأت الرسايل اللي بتبعتها لنفسك على الفيس بوك، لما لقيتك كذا مرة تغلط في اسمي وتناديني فيروز، هكرت أكونتك «لم استوعب ما أقول ولم أنطق، فقط شعرت بها تخرجني من حضنها ثم ابتعدت قائلة «ممكن تسيبلي الدبلة عشان بحبها؟»، فأشرت لها برأسي موافقا فالتفتت مهرولة على السلالم ولم تمهلني لحظة لأوضح شيئًا، وافترقنا للأبد.

الآن فهمتُ سبب مهاتفتك تسأليني «أنت فعلًا بتحبني؟».

الآن فهمتُ لماذا أرسلت صوركِ بملابسٍ عارية، الآن فهمتُ انكسارك أثناء قولكِ، «شكيت في نفسي، من كتر منا شيفاني قليلة في عنيك».

يا أمنية،الآن اكتشفتُ عِظم إخلاصك ومدى وفائك في الحفاظ على مشاعري، حتى وقت فراقنا كنتِ لينة مقارنة بآثامي تجاهكِ، وأنا

الذي اتهمتكِ بالقسوة، لقد ظلمتكِ كثيرًا.

لكني من يومِ لقائنا كنتُ أجاهد هواجس فيروز وأعافر ضد طيفها، ورسائلي لَم تكن خيانة لقد كنت أتخلص من هواجسي واضطراب مشاعري وأفضي بها في رسائلٍ أرسلها لنفسي، وكنت بعد كل رسالةٍ أكتبها أفيق من هواجسي وأرتب مشاعري المبعثرة وأجدد علاقتنا وأنعشها، حتى إن لتواريخها علاقة وطيدة بأهم ذكرياتنا، لو تأملتِ تواريخ الرسائل ستجدين كل رسالة تسبق ذكرى جميلة بوقتٍ قصير ربما بدقائق.

ليتكِ قبل الفراق واجهتيني لأوضح لكِ، ليتكِ منحتيني فرصة التبرير والدفاع عن نفسي.

إن كثيرًا من العلاقات تضيع لأننا لم نمنح أحبتنا حق الدفاع عن أنفسهم، ولو أعطيناهم دقائق يوضحوا لنا دوافعهم لتغيرت معظم النهايات إلى بداياتٍ أجمل ولبقي معظم الأحبة معًا.

يا أمنية إنني لستُ قذرًا لأكون معكِ وقلبي مع أخرى.

ليت النساء يفهمن تمسك الرجال بهن حين يكون لنا حرية الرحيل، إنني متشبث بكِ، يا أمنية..

لماذا أغلقتِ جميع الأبواب بيننا أمام الجميع فلم يعد لي حق المرور من محافظتكم ثانية.! وعندما عدت بيتي أخبرت أبي وأمي أنني أنهيت علاقتنا فور رجوعنا من خطوبة طارق وأخبرت والدتك أن كل شيء قسمة ونصيب فلم يقل أبي غير «ربنا يعوضكم إنتم الاتنين خير» وقالت أمي «كنت بدعي في كل صلاتي ربنا يهديهالك أو يبعدكم بالمعروف «وعندما دخلت غرفتي للنوم بكيت كلَّ شيء ضاع مني، بكيت الوطن والثورة وأمنية وبكيت لأني كذبت على والداي ولم أخبرهما ما فعلته أمنية أمام الناس، بكيت على اكتشافي كم صرت جبانًا

وهشًا بلعنة الحب، بكيت لأني لم أخن، بكيت حتى الإرهاق.

وقبل كل شيء بكيتكِ يا فيروز، بكيتُ قوتي التي سلبتيها وعقلي الذي تلاشى منذ قدومك.

بكيت الأماني الضائعة، وبكيت لأني صرت أبكي كثيرًا، هل ضعفتُ أم تجبر الوطن..!!

لقد كنتُ متيقنًا منذ بدايتي مع أمنية أن طرقنا ستفترق وعلاقتنا ستحترق، لكني طردتُ فكرة الفراق المحتوم المنتظر، فاحتراق علاقتنا كان له رائحة تفوق البخور الهندي وتفوح في واقعي لتشكل ذكرياتٍ ما كان لخيالي أن يتصور متعتها، وتشكل ذكرياتٍ أحاول بها طرد هواجسكِ يا فيروز، لذا حافظتُ على لهب احتراق علاقتي بأمنية لأطول مدة، وكنت أتمنى أن ينزل الله لطفه بموت أحدنا فيكون الفراق قدرًا مفاجئًا، لأني ما تخيلتُ أن يصبح بذاكرتي مشهد لفراقنا يحيا بعده كل منا على الضفة المقابلة من قلب الآخر، لذا حافظتُ على أمنية، فطريقُ حياتي موحش بدونها. وها قد صرتُ وحيدًا يا فيروز.

(٤١)

لا أظلم منك ولا أقسي من أقدارك، يا من تعاليت في سمائك لتستمتع بالعبث المشتعل بين خلقك، إنك دموي بدرجة لا توصف، تراقبنا متربصًا بأسباب سعادتنا لتغير مجرى الأحداث وتعذبنا بمشاعرنا، وعندما نعترض على قضائك يعدنا رجال أديانك بجحيم ينتظرنا بعد الموت.

أوجدتني في أسرةٍ ذكوريةٍ عاملوني منذ الصغر على أني ذكر مثلهم، في كل شيء حتى ملابسي، لماذا جعلتهم يتفننون في قتل أنوثتي.؟ لماذا أوجدتني ما دمت أصيب مجتمعي بالعار !!، ولماذا أوجدتني في مجتمعٍ ريفي.؟

لماذا أخذت أحب الناس لقلبي لماذا لم تأخذ أمي وأخذت أبي..! أين رحمتك.! لماذا وضعت برأس أمي فكرة خطبتي لزميلها بالعمل..! وما دمت خططت قضاءك على هذا المنوال، فلماذا لم تجعلني أرضي بهذة الخطبة لماذا خلقت روحي لا تقبل الخضوع.! ولتستلذ بدمويتك في مشاهدتي جعلتني أحاول الانتحار لأتعذب دون موت، وأجريت خبر محاولة انتحاري على ألسنة قريتنا الملعونة فصرت عارًا على أسرتي أكثر مما مضى.! أستشهد بك عليك كيف أسميت نفسك الرحمن الرحيم يا أظلم الظالمين..!! حتى حبيبي ألم يكن بمقدورك جعله يناديني باسمي..!! أخبرني كيف تقدر أقدارك..! كيف تصنع عبث درامية ظلمك..! لماذا تبارك في مناصب

الظالمين؟ لأنهم يقتدون بك؟ لقد بدلت مناصب المسئولين بمناصب أفضل مما كانوا عليه قبل الثورة، أهذا عقاب لمن يتجرأ على أوليائك الظالمين.! متى ستجعلني أفرح؟

متى ستنصر الخير؟

متى تعاقب السفاحين؟

متى ترحم الضعفاء؟

متى تترك المحبين يكملون حياتهم معا؟

لما لم تسمح لفيروز أن تتمنى نوح كما تمناها؟ لماذا لم توفقهما معا؟

لماذا قدرت دمار سوريا في الأصل..!! لولا هذا الدمار لكانت علاقتي مستمرة مع حبيبي..!!

ولماذا لم تشبع نوح بي بعد خطبتي..!! لما جعلته يرسل لنفسه تلك الرسائل..!!

ولما جعلتني أصل لتلك الرسائل..!!

إنني مؤمنة بوجودك بنفس قدر إيماني بظلمك، غبي من يؤمن أن هذا الكون أتى صدفة، والأغبى من يدرك أن الخير ينتصر أو يقيد حياته بقوانين الأديان فيشقى في حياته ويترك ظهره ركوبة للمسئولين انصياعًا لخطابات رجال الدين.

سوف أخلع غبائي من عقلي كما خلعت دبلة نوح من إصبعي، ولن أضيع عمري هباءً، سأعيش كما أريد.

(٤٢)

وافترقنا.

ولم يعد لي الحق في لقياكِ يا حياتي.

يا أمنية.

كيف وضعتِ صورك لي في كل طرقاتي؟

وبين حنايا أضلعي وحتى في أنفاسي.

ليتك ما أراه حقيقة، فأعانقكِ في كل لحظاتي.

أتدرين يا فيروز لم يزرني طيفكِ من بعد فراق أمنية، شيء عجيبٌ ومريب، لماذا عاملني طيفكِ كالغزاة لا يهبطون أرضًا يحتلونها إلا إن كانت مليئة بالخير، إن الغزاة لا يهبطون أرضًا لا خير فيها، لا يهبطون أرضًا ليساعدوا أهلها، وعندما جف قلبي من ربوةِ المشاعر بَخِلَ طيفكِ أن يزورني، طيفكِ احتلالٌ ذكي.

«نوح كتير اشتقتلك، طمني عنك وعن أمنية، امتي هتعرفني بيها؟»، أتذكرين رسالتك الصوتية يا فيروز بدأت بها يومي فأجبتكِ برسالة مكتوبة «عندي ضغط شغل ومش فاضي خالص»، ولمجرد وصول الرسالة اتصلتِ عدة مرات فلم أجبكِ ورددتُ برسالة أني مشغول فأرسلتِ مرة أخرى رسالة صوتية «قدامك مهلة يومين ولازم أشوفك، لو ما جيت هجيلك أنا وأتخانق معاك قدام خالتي صفية».

فتجاهلت رسالتكِ، يا مخربة حبي.

فأنا أفتقد أمنية وأشاهد يوميًا صورنا معًا، أتأملهم صورة صورة

وكأني أراهم لأول مرة، واقرأ رسائلنا المفعمة بالوعود ودفء بيت الزوجية، وأهِم بالاتصال فأتراجع.

وما أوجع أن أجدني ليس من حقي أن أرى حبيبتي ثانية وتمنعني كرامتي من الاتصال بها، لقد صرنا أغرابًا، وصارت بيننا حدود.

وعندما تخطيت نفسي واتصلت بها وجدت هاتفها مغلق ووجدتها حظرتني من جميع برامج ومواقع التواصل الاجتماعي فقبضني الحزن أكثر.

لم يساعدني في مرور تلك الأيام سوى سحلة تخليص أوراق الميكروباصات في المصالح الحكومية، الآن اكتشفتُ فائدة تعقيد الإجراءات في وطني، إن الحكومة تعرف مصالح الشعب النفسية وتحاول تخفيف آلامه، فيا ليت قومي يعلمون.

أربعة عشر ألف جنيه استنزفت من رصيد العمر والكفاح في تلك الإجراءات، ما بين تسديد إيصالاتٍ رسمية لقضايا قانونية وما بين رشوةٍ لموظفٍ ليسهل مرور أوراقي كي لا تبقى العربات محبوسة بالشهور وأطعن بسداد أقساطٍ كثيرة، أو لمحاولة تخفيض الغرامات المنسوبة وقبيل الرشوة يبتسم الموظف قائلًا «كل سنة وأنت طيب «فأدفعُ دون الاستفهام عن نوع العيد، ومرت أيام وأيام، وجاء ميعاد سداد أقساط الميكروباصين فسحبتُ خمسة آلافٍ من الجنيهات المدسوسة في الدرج الأخير لمكتبي، الدرج الذي صار مدفنًا لرفات الميكروباص الأول الذي بعته، بعد أن كان نفس الدرج عرشًا لأحلامي ومخططاتي.

وأخيرًا، تم الإفراج عن بواقي أحلامي.

وعن أول يومٍ أدخلُ الموقف أقود ميكروباص وصديقي محمد عبدالناصر يقود الميكروباص الثاني، كقادة جيشٍ مهزومٍ يتوارون

من الناس من ثقل عارهم، ولا أطيق عبارات التهنئة من السائقين على الإفراج، مع أن طبيعة الموقف يوميًا تسحب الرخص وتحبس سيارات من يجادل النجس في الإتاوة، لكنهم تعودوا، وأنا حرٌ، ونظراتُ النجس كانت كفيلة بأن يستقيم أهل الموقف. نظراته تقول خذوا العبرة من مصير المتمردين، لا تثوروا فتدفعوا الثمن مثلهم وتحملوا أوزار الموقف وحدكم.

إن قوة البلطجية تنمو على خنوع السائقين في موقفنا، حيث يَكِدُ السائقون طوال اليوم ويجاهدون بالعمل في عز الظهيرة في ميكروباصاتٍ لا تعرف التكييفات صيفًا أو في شتاءٍ يملأ الميكروباص بالوحل مع اختناقٍ مستمرٍ لإشارات المرور وتكدس الطرق بالأطفال العابرين والموظفين المتبلدين على الأرصفة، يتحمل السائقين آلام العمود الفقري حتى إن معظمهم يتناول المسكنات التي ترتقي لدرجة المخدرات كل هذا من أجل أن يجلس البلطجية طوال اليوم في الظل يحتسون المشروبات، ويتناولون المخدرات، ويستأجرون المومسات لينعشوا ليلهم.

وبعد أن كنتُ أفترض في الأيام السابقة فضَّ مشروعي وبيع جميع الميكروباصات، صار القرار أكيدًا بعد دفع أول إتاوة وتحميل الركاب، قد كنتُ لا أطيق أن يمر الذباب أمام وجهي وكنت على وشك ارتكاب جريمة مع أي راكبٍ يسألني عن الأجرة أو حتى يطلب مني الوقوف لينزل.

ما يقارب الست سنواتٍ وأنا في معترك الموقف لكني لأول مرة أفهم سبب نقمة سائقي الميكروباص على الركاب، لأول مرة أستشعر الإحساس مصفى، ربما لو جربتُ مهنةُ أخرى لأدركت إحساس نطق كلمة «كل سنة وأنت طيب».

وبعد وصولي آخر خط سير الميكروباص اتصلت بصديقي محمد عبدالناصر أخبرته أنني لن أعود الموقف وسأعرض العربات للبيع حالًا فبادلني نفس الشعور ووجدته متفقًا في قرار عدم دخول الموقف ثانية، وتقابلنا وذهبنا لعدة سماسرة لنعرض العربات للبيع، وليس برأسي أي خطة لأي عمل، فقط أريد التحرر من الموقف، أريد الهرب، أريد أن أعيش بكرامتي.

وقبل أن أصل بيتي هاتفتُ آدم ابن خالتي وصديقي عبدالرحمن، أخبرتهم عندما تباع العربات سأعطي كل فردٍ نصيبة، وقضيتُ أيامًا في غرفتي أنام وآكل وأصلي، في انتظار أي زبونٍ يشتري الميكروباصات ليضيف دخلًا للنجس أو لأشباهه في أي موقفٍ آخر.

ومن يوم فراق أمنية لم أطق الرد عليكِ يا فيروز رغم كثرة اتصالاتكِ، اكتفيت بردي عليكِ بالرسائل وأتحجج بانشغالي، لا أعرف لماذا لم أفتقدك، أهي دوامة الأحداث أم فوقان العقل.

وبينما أنا مستلق على ظهري كحاملٍ على وشك الولادة اندلع رنين هاتفي بنغمة أمنية المفضلة التي خصصتها لأقاربها «ما تخافش من بكرة وأنا معاك «ضحكتُ لكذب الأغنية، ثم مددت يدي أخذت الهاتف فوجدته الأستاذ عبدالشافي يسألني عن أمنية، ففهمتُ قبل أن يوضح بأنها تركت بيت أسرتها بلا رجعة واختفت عن عائلتها، فأكمل عبدالشافي موضحًا أنها تركت البيت بعد خطوبة طارق بيومين، وقد بحثوا عنها في كل مكانٍ محتمل بالإسماعيلية وبورسعيد فلم يجدوا لها أثرًا، فخمنوا أنني قد أحمل لهم أملًا بمكانٍ آخر، فأجبته بأني لا أعرف أي شيء عما حدث، وقد انقطعت اتصالاتي بأمنية من يوم فراقنا.

ترجاني أن أخبره بأي خبرٍ جديد فوعدته بذلك، وأغلقتُ

الهاتف وأنا أحملُ أوزارًا وذنوبًا وأجلدُ ذاتي عما حدث بسببي، ولكن، لاشيء يفيد، لا شيء سيرجع أمنية التي تركت لأهلها رسالة «سأعود عندما أحقق ذاتي بعيدًا عن سجنكم».

يا فيروز، إنني موجع وأشعرُ بندمٍ لا أجد له توبة، تارة أوقن أنني السبب في دمار أمنية، وتارة أجد أهلَها السبب بكبتهم وتسلطهم عليها.

ألا سحقًا لعائلاتٍ يكبتون الأنثي وكأنها خلقت للخدمة والتعذيب.

إن أمنية مثال للفتاة الحرة، التي تدرك أن لها حقوقًا ولم تخلق عبثًا، إنها مثال للروح الحرة التي تأبى قيود المجتمع تحت أي بند لطالما لم يكن العقل طريقًا للإقناع، قد كنتُ أحبُ روحها الطلقة الحرة، وعلى قدر الحب تكون أوجاع الفراق.

(٤٣)

أتى مشترٍ من طرف خالد أبو شنب يريد رؤية الميكروباصات وكان معه ميكانيكي ظل يفحصهم، وكنتُ أنظر له بِكُرهٍ كأنه قوادٌ يتفحص زوجتي لتعمل في بيوت الدعارة، ثم انتهينا وتفاوضنا في الأسعار ولم نتفق وافترقنا على أن يعطيني الزبون ردًا نهائيًا بعد يوم، ثم انطلقت بعدها للصيدليةفوجدت صديقي محمد عبدالناصر في مشوارٍ لتوصيل دواءٍ لأحد الزبائن، فجلست في مكاننا أمام الصيدلية حتى أتى وأخبرته بحال الزبائن ونحن نشرب الشاي، ثم هاتفنا خالد أبو شنب يطمئن على ما وصلنا إليه مع الزبائن فأخبرته، وبعد نصف ساعة أتى وجلس معنا فطلبت منه ألا يخبرنا بشيء عن حال الموقف فقال «أنا جي مخصوص أقولكم خبر هيفرحكم أوي، النجس قريب هيتقلش قلشة محترمة».

فقاطعه صديقي قائلًا «بتقول إيه.!؟»

فأكمل خالد «أصله عمل حوار الخمسة آلاف جنيه معاكم من ورا كمال باشا، وبصراحة أنا بترقدله بقالي فترة وكل مصلحة شمال بيعملها من ورا كمال باشا بروح ألاغيه وأنوره، والحوار بتاعكم جه في الجون، خصوصًا إنه رَكِبْ دماغه وكلم كمال باشا يسحب رخصكم وكان قبلها بيومين ساعة جنازة بلدوزر الله يرحمه، النجس قال لكمال باشا، إنكم هتدفعوا كارتة زي باقي السواقين بس عشان أنتم عِشرة وكده، فهيجيبها لكم بالحنيه والتدريج والذي مِنُه، وعمل

فيها ابن بلد ومَرْجَلَة وقاله بلاش نحاسبهم على القديم، خصوصا إن بلدوزر كان حبيب كمال باشا ومدورله مصالح كتير.. فهمتوا الزتونة رايحه فين.؟».

فعلى صوت صديقي «ياولاد الكلب، يعني بيخونوا بعض كمان»، فأجاب خالد «كله في مصلحتنا»، فسألته «وإيه هيتم؟». فأكمل خالد «كمال باشا قالي أبلغكم، إن ابن الشيخ عسران خرج من السجن وبكلمتين نقدر نسخنه ونفهمه إنه هيحارب المفسدين في الأرض وبيقضي فريضة الجهاد ونباصيله حِتِة سلاح يخلص على النجس في فرشته، قولتوا إيه؟»، فسأل صديقي «وبعد ما نخلص عليه؟»، ضحك خالد وضرب كفا بكف «عيب تسألوا سؤال زي ده، أمال لو ماكنتوش فاهمين الكلام بيروح فين».

وقفت أمشط ظهري قائلًا «عايزنا نمسك الموقف يا خالد.؟ ليه شايفنا ولاد حرام.!؟ «فقال خالد «إحنا أو غيرنا، الموقف كده كده لازمله حد مكان النجس، وإحنا أولى بالمصلحة أهو نعوض إللِّي فات، ده الواحد خسر خسارة في الموقف أكتر من القمار، وبعدين هنخاف على ناس ما بيعرفوش يمشوا عدل من غير بلطجي يسوقهم ويسرق قوتهم.!!، بلاش غباء يا معلمين، دي فرصة العمر».

كان صديقي يمعن النظر في خالد فقال بصوت يملؤه التفكير والهدوء «بس هيجي يوم ويخلص مننا، فاكر جرالك إيه يا نوح لما الست اتحسبنت فيك وأنت بتضرب جوزها؟ما بالك لما تبقى ماسك الموقف.؟ استحالة نبقى معاك يا أبو شنب إحنا بنرتب حالنا نسافر بره مصر»، فضحك خالد قائلا «كنت عارف المصلحة هترسي عليا لوحدي، يعني آخر كلام أقول لكمال باشا إني هشيل الليلة لوحدي.؟».

فأجبته «إمتى الناس تفوق يا خالد، ويثوروا على بلطجية الموقف ويتعدل الحال؟ إمتى؟ «فضحك خالد ساخرًا «الناس مستعيبه تعترف إن تفويضهم النجس كان أغبى اختيار، أنا عن نفسي كنت لحد إمبارح بدافع عن تفويضي للنجس، كنت بسند نفسي بالتبرير مهو حرام أبقى ضد نفسي، كفاية البلطجية».

فقال صديقي محمد عبدالناصر «فكرتني بنكتة.. مرة واحد سافر ليبيا يشتغل بس إللي سفره نصب عليه، فرجع لمراته بعد شهر، الست قالت لجوزها «ما ينفعش حد يعرف إنك رجعت دلوقتي عشان محدش يشمت.. أنت تستخبى فترة في أوضة النوم زي الباشا وما تخرجش خالص.. كأنك في ليبيا».. المهم النطع سمع كلام مراته واستخبى في الأوضة، وبقى كل شوية يسمع دوشة في الصالة فيبص من خرم الباب يلاقي راجل داخل وراجل خارج، وهو متغاظ ويقول «لو ماكنتش في ليبيا كنت وريتك يا خاينة»..أهو ده حال الناس في الموقف».

ضحكنا حتى شهقنا، ثم غادر خالد أبوشنب، وانتابتنا هستيرية ضحك أكبر..

فقال صديقي محمد «مشكلتنا ولا إحنا عارفين نبقى بلطجية، ولا عارفين نعيش باحترامنا «فقلت له «ومشكلتي الأكبر إني مش عارف أبقى مجرد موظف روتيني، بكرش ومرتب ثابت، على رأي أبويا مشكلتي بحلم بره طبقتنا»، فضحك صديقي ساخرًا

– إحنا شعب غريب أوي

– مستني إيه من شعب مقتنع إن حنفية المطبخ بتنزل مياه أنضف من حنفية الحمام

– إحنا روحنا في ستين داهية خلاص

- فاكر الناس إللي كانوا بيقولولنا: هتروحوا في داهية
- آه
- قول لهم إحنا وصلنا خلاص
- المشكلة كمان، الجيل اللي كان بيشتغل من ٨ الصبح لحد ٢ الضهر، وعرف يتجوز ويحوش، بيعيب على جيل مفحوت ١٥ ساعة شغل ويا دوب بيصرف مرتبه على المواصلات ولو جاب موبيل جديد بيرقص
- إيه علاقة كلامك باللي إحنا فيه؟
- ما أعرفش، بس طلبت معايا أقول كده

وبدأنا السخرية من كل شيء حولنا، حتى من أنفسنا، ربما يلين حالنا بالاستخفاف من كل شيء.

وفي طريق عودتي وجدت المجذوب على ناصية شارعنا يهلل ويسب ولا أحد حوله، فوقفتُ أرقبه من بعيدٍ ووجدتني أصدقه في كلامه وهو يقول «يا شعب مضحوك عليه في عز ثورته، يا شعب سايب الجهل ينهش في جثته، لحد ما بقى الظلم أساس مصريته»..

لقد فكرتُ للحظة في تصديق الأساطير الشعبية في أن المجاذيب هم أكثر الناس إدراكًا للحقيقة، وأن أي شخصٍ يدركُ الحقيقة كاملة يفقد عقله، والدليل على ذلك أن أكثر الناس تفاهة تلك الأيام كانوا بالأمس وقودًا للثورة.فلا تسخر منهم، لو أدركتَ ما عاشوه وما حلموا به لهذا الوطن لصرت مثلهم تبدو بجنون المجاذيب.

(٤٤)

«اصحى يا ابني».

كلماتُ أمي وهي تهز كتفي، ففتحت نصف عيني أسألها «الساعة كام؟ «فأجابتني «١٢ الظهر، وكمان ستك سندس وفيروز بره قوم سلم عليهم»، فغصت برأسي تحت وسادتي قائلًا «قوليلهم مش موجود»،فجذبت أمي المخدة قائلة «أنا معرفاهم إني داخله أصحيك عشان تفطر معاهم»، فقمت إليكم مجبرًا، ولمجرد أن رأيتكِ يا فيروز أشرقت الحياة في عيني من بعد عتمة وتنفست روحي من بعد اختناق، سلمت عليكم فعاتبتني الجدة سندس على انقطاعي فترة دون سؤالٍ عنها فاعتذرت لها، ثم أكلنا وعيناي لم تلتق بعينيكِ يا فيروز وحين قمتِ مع أمي لإعداد الشاي قالت لي الجدة «فيروز مزعلاك في إيشي؟ «فأجبتها «أبدًا، بس كان عندي مشاكل بالشغل»، وبينما أنتِ وأمي آتيتان من المطبخ قرأتُ من ملامحكما أن أمي أخبرتكِ بانفصالي عن أمنية، فأخذتُ كوبي وخرجت أشربه في الشرفة وانتظرتكِ تأتي من خلفي، لحظات، أحسست مجيئك ثم سمعتك تقولين:

– لِمَ لَمْ تخبرني بما حدث.؟

ابتسمتُ قبل أن ألتفت إليكِ، حقًا كنت مفتقدًا مداعبة الفصحى لنقاشنا، إن لغة العشق هي اللغة العربية الفصحي، لكني تعمدت إغاظتكِ والرد بالعامية قائلًا «مش فاهمك».

فكررتِ سؤالك بالفصحى وأنتِ ترفعين حاجبكِ الأيسر

- يا نوح، لِمَ لَمْ تخبرني بما حدث؟
- لأنكِ لم تسأليِ
- ومن متى بيننا أسئلة؟
- من وقت ما حدث
- هل تصدق لسانك في احتمالية وجود حدث، قد يغير ما بيننا.!؟
- التغيير هو الثابت الوحيد في هذا الكون
- تتغير أخوتنا للأفضل
- قد يكون الأفضل في البعد
- وماذا أيضًا..؟
- لا شيء
- إذًا، انتهيت من الهزي، لنتكلم بجدية
- لا شيء مما سبق هزيًا، وأنا لم أكن جديًا معكِ بمثل ما أنا عليه الآن
- كَذَبَ لسانك وصَدَقت عينيك
- آتني ببرهان
- كلامك معي بالفصحي
- ربحتِ الرهان
- إذًا، أخبرني ما أصابك؟
- أرجوكِ، أتركني لحالي سرًا
- أنا حالك
- حالك.؟ بفتح اللام أم بكسرها؟
- يا نوح، عندما أحتاج العزلة مع نفسي، أحتاجكَ معي، يا آخر ما تبقى من نفسي.
- ليتني أعيش في دنيا كلماتك ولا أخرج منها أبدًا
- وقتها ستكره كلماتي، فالجنة التي نُغصب عليها تصير سجنًا

رفعتُ يدي اليمني متبسمًا، فنظرتِ لإصبعي قائلة «أخبرتني خالتي صفية». فأجبتكِ «قسمة ونصيب»، ولم أحكِ شيئًا وتعجبت لأنكِ لم تسألي، فقط قلتِ «ربنا يقدر لك الخير».

احتميتُ فيكِ قائلًا «لقد صِرْتُ خائِفًا غير واثق بنفسي،يا فيروز إن الخوف في الوطن غربة».

وكان لابتسامتُكِ رد أقوي من رد كلماتكِ «إن كان الخوف في الوطن غربة، فماذا عن الخوف في الغربة..!! يا نوح لطالما لم تُهزم من الداخل فأنتَ لم تعرف الهزيمة حتى لو تسولت على أبواب البلاد لاجئًا، وكلُ دولةٍ تفتحُ بابها وتخبركَ أن الوطن ليس هنا. أتعرف في بداية دمار سوريا سوى الثوار جمعة أسموها (عذرًا حماة سامحينا)، والآن واجبٌ على العالم أجمع والعرب خاصة أن يدشنوا جمعة يسمونها (عذرًا سوريا سامحينا).

ولو فعلًا وقف العرب جميعًا في ميدانٍ واحدٍ رافعين شعار (عذرًا سوريا سامحينا)

وقتها لن أسامحهم، تمامًا كما لن أسامحك إن هزمت نفسك من الداخل، فالحدثان سواءٌ عندي يا نوح، إنك أنتَ حصني الأخير».

فأجبتكِ وأنا أهرب من عينيكِ «لا يغرنكِ ارتفاعُ أسوارِ الحصن، إن بداخله كائنٌ هش، يرعبه حفيف أغصانِ الشجر».

وكان سؤالكِ يفوق الهزل بمراحل حين قلتِ «أتعجبُ من المصريين، كثيرٌ منهم لم ينجحوا في وطنهم مع أن مصر أرضٌ خصبة للنجاح، وقد أثبت السوريون ذلك».

انفجرتُ ضحكًا ولم أستطع استجماع إجابتي بالفصحي وقلت لكِ بين شهقات ضحكي «وحياة أمك..!! مهو لو عاملناكم زي ما الحكومة بتعاملنا كان زمانكم انتحرتوا وتسولتوا وما عرفتوش

يعني إيه نجاح، السوريون نجحوا عشان اتعاملوا مع الشعب الطيب،بعيدًا عن أنياب الحكومة، ع بلاطة انتوا خدتوا حقوق مش بياخدها المصريون».

بربكِ يا فيروز، كل ما قررته في غيابك تبخر برؤيتك، وعادت أخوتنا من تلك اللحظة أقوى مما سبق ولم أعد أراكِ كما كنتِ، فسبعةٌ أشهرٍ في حرم عشق أمنية جعلوني أنضجُ مما كنتُ عليه، ولم يعد قلبي يلهثُ خلفَ قلبٍ لا يفهمُ مشاعره، بصدقٍ كان حديثي مع أختي.

لكنكِ أربكتِ المعايير داخلي وأنا أوقف لكم تاكسي حين قلتِ «نوح. أنت عارف إنك بطل حياتي والشخص الوحيد إللي مش بقدر أحلم حلم إلا لو كنا مشتركين فيه، تعرف كتير بتمنى يكون لي بنت أجوزها لك، غصب عنك يا نوحي».

يا فيروزتي، أحبُ أن أسمعَ عني منكِ، أحِبُني عندما أرى انبهارُكِ بي بين كلماتكِ، فخورٌ بصورتي في عينيكِ.

أتعرفين يومها أغضبتُ صديقي محمد عبدالناصر قائلًا له في سهرتنا «شكلي هسيبك تسافر وحدك»، فسألني متعجبًا «بتتكلم جد.!! معقول بتفكر تاخد مكان النجس.!!"

فأجبته متيمًا «شكلي هاخد مكاني الحقيقي مع فيروز»، فأجابني بحدة «ولو، يبقى تخطب ونسافر نعمل قرشين وبعدين نرجع نهيص، ولا نسيت إن الدولار بقى بعشرين جنيه..!! ده ما صدقت اتفق على فيزتين لينا، وجايين قريب».

– ياعمنا، هنسافر ونعمل أحلى فلوس ونرجع نخرب الدنيا من تاني، مش إحنا إللي الحب يعطلنا ويضيع علينا مصلحة فلوس

– على سيرة البنات، تخيل واحدة جارتنا ما كملتش تعليم، تقريبًا مكملتش الابتدائية، لقيتها بتسألني عايزة تقرأ كتب عن

الديموقراطية والحرية والكلام إللي نسيناه ده
– أحلى مصلحة، خليها تقرأ، ده أي بت جاهلة لما تقرأ كتابين عن الحرية تلاقيها قلعت هدومها وتقولك الولد زي البنت وعادي اسلم على زمايلي الولاد وأبوسهم طالما نيتي حلوة
– يعني اخدها المكتبة على ضمانتك، وادفعلها تمن الكتب.؟

(٤٥)

ويحكِ يا أنا..ويحكِ يا بنت الشام..

ظننتكِ تعايشتِ مع الواقع وأدركتِ قطعًا أن نوح لم يعد لكِ، وتعايشتِ مع مصطلح» الأخوة «فماذا أصابك لمجرد أن عرفتِ خبر انفصال نوح عن أمنية، لقد كنت أريد الرقص وإطلاق الزغاريد في أرجاء مصر، رغم حزني على ما ألمَّ بنوحي من آلام الفراق، لكن بصيصًا من الأمل كفيلٌ بتنسيتي جميع الآلام، إنني للمرة الأولى أقرر مصارحة نوح.

ولكن كيف..!! لقد أخبرني كثيرًا أنني الوحيدة في الحياة أحسني أخته، من بعد «ريم»، حتى يا ليته أخبرني أن مكانة الأخوة تفردتُ بها وحدي، ليته تفهم رقة الأنثى في حب الإحساس بأن مكانتها لا شريك فيها، ما يهم، سأرتب أموري وأصارحه بكل شيء ولكن بعد أن تمر أزمته ويستعيد عملًا وطاقة وتعود بهجته.

لكن، ماذا لو رفض كما رفض من قبل..!!

ماذا لو خسرته للأبد..!!

إنني أعرفكَ جيدًا يا نوح، كونك لا تحب إعطاء أمل زائف لفتاةٍ سيدفعك على التخلي عني. إذًا ما العمل، كيف السبيل لتغيير بوصلة قلبك لتتخلى عن رؤيتي أختك.!؟

لا لن أجازف بعلاقتنا، فأنا أعيش معك للنهاية، خيرٌ من مصارحةٍ لا أأمن عاقبتها.

ربما هو الاختبار الأخير، والكذبة الساذجة لجميع الفتيات حين يردن اختبار لهفة من أمامهم.

«لقد تقدم شابٌ لخطبتي، فما رأيك فيه كونك أخي «هكذا سأخبركَ يا نوح، وسأحدد كل شيء على حسب رد فعلك.

ربما افترق نوح وأمنية، ليجمعنا القدر وتلتئم أرواحنا في عناق لا أخوة بعده، ربما.!

(٤٦)

يا فيروز..

لا أعرفُ لماذا أخبرتيني اليوم برسالةٍ أنني لست صريحًا معكِ ١٠٠٪..!! ولم تمهليني أن أستفهم وأرسلتِ «ما تسألنيش عن موقف معين يثبت كلامي لأني مش فاكرة «لطالما كانت طبيعتك ملاحقتي في أسئلتي إما بالإجابه أو بحرقها برحيق كلماتك..

لكنكِ أكملتِ مدافعة عني لنفسك أو ربما لنفسي، «ده مش معناه إنك بتكذب، بالعكس إنت صريح جداابس كل مرحله بتغير حقايق مرحلة قبلها، أو يمكن لإنك بتفكر معايا بصوت عالي، فبتقول الحاجة من زاوية، وبعد فترة لما تفكر فيها أو توضحلك أكتر بتقول الكلام بمنطق مختلف وتنفي إللي فات».

اتهمتيني ودافعتِ عني في نفس الوقت، وكانت كلماتي حشوًا، حاولت شرح بعض المصائب الشخصية التي أخفيتها عنكِ وتصنعت الجدية قائلًا «فهمك جدًا، تقصدي لما بقولك إني كويس وبخير، وأنا مخبي أوجاعي».

تهربتُ منكِ، فلن أستطع مصارحتكِ بأنكِ كل أوجاعي، وبعدما أنهينا الدردشة بالرسائل. تجرأتُ وحاولتُ إخبار طيفكِ بشيء مما أخفيته ربما أرتاح.. ربما..

عاتبتكِ كثيرًا في خيالي وأفضتُ إليكِ بكل ما عجز عنه لساني ومنعني الجبن من كتابته في أي رسالة.

كنتُ دائم الحزن منكِ، لا أريد ظلمك والتجني عليكِ، لا أدري أكنتُ حزينًا منكِ طوال الوقت أم كلما حزنتُ لجأتُ إليكِ فلازمتكِ ولازمتيني والحزن ثالثنا، فلم أمل منكِ رغم كرهي الحزن.

حبيبتي.. أنا موجع جدًا.. كنتُ أخاف التعلق فيكِ والتوحد فيكِ، وها أنا على الحال الذي خفت منه وحذرت نفسي منه كثيرا.

مريض بكِ أو ممسوسٌ بك يا معذبتي.

وأسمعكِ في خيالي تناديني يا أخي، فأتجاهلُ نداءكِ، ثم أثور اخرسي، لا تناديني أخوك يا محرفة كل شيء بداخلي، أيا أيتها اللعنة الموقدة في جوارحي، المخدرة لروحي حد البرزخ، أبغضكِ رغم حبي.

في لحظاتي تلك، في مصارحتي لنفسي، أبغضك بكل ما تحويه الكلمة بكل ما تشمله معاني البغض والكره.

لكن برفق، لا، ليس برفق، أكرهك كأعتى عدو، وأتمنى أن أكون الآن رجلًا بمعنى الكلمة وآخذ القرار الصحيح وابتعد بلا رجعة، بلا ردٍ على اتصالاتك أو رسائلك، ويا ليتني أكون أقوى، ولا أنقطع فجأة ولا أهجرك وأقطع طرقك إليَّ، اتمنى أن أكون رجلًا يعطيك ما تستحقين من المعاملة، أن أكون باردًا، لا دلال، لا لهفة، لا تفقد وافتقاد.

لا مزيد من ذبح قلبي وإحراق عقلي ونزيف مشاعري وضياع العمر، يا عمري، ألم أخبرك كم اتمني أن أكون رجلًا.

وها أنا أقول لك يا عمري..!!.

أتعرفين، ربما أخاف إعطاءك ما تستحقين من المشاعر، كأي زميلة عرفتها، كأي فتاة عبرت حياتي دون مشاعر.

أخاف، فربما تفرحين وقتها وتحمدين الله على إدراكي الحقيقة

فأضيع أكثر.

وحين أخبرتك في خيالي سرًا، بأنك محرفة كل شيء داخلي، كنت أقصد أنني لم أعد أدرك صحيح المشاعر، ولمن،وكيف أعامل الناس، وكيف أعرف أن فتاة ما يجوز لي البوح بحبها، أصبحت مشوشًا، فقدت بوصلة العلاقات ومدي قرب الأشخاص مني، فعلًا.. مريضٌ بك، يا محرفتي، محرفة كل شيء بداخلي، محرفة إنسانيتي.

أليس الحب غريزة، والإنسان لا يحتاج لمعلم يوجهه لإدراك غرائزة لأن الله وهبنا الفطرة التي توجهنا لكل شيء،لكني تائة في فطرتي، أو بالأحرى، صارت فطرتي محرفة أيضًا.

(٤٧)

«ألو.. إلحقني يا نوح الجدة سندس توفت، وفيروز دخلت المستشفى، عندها انهيار عصبي».

مكالمة أتتني من «رهف «فهرولت إليكم بالمستشفى لأجد مجموعة من السوريين معكِ يا فيروز، وأنتِ نائمة إثر حقنةٍ مهدئة، وأخبرنا الطبيب أنكِ تعرضتِ لصدمةٍ تسببت في إنهيارٍ عصبي، وفي الدور الأرضي جثمان الجدة «سندس «تم تغسيلها وتكفينها، قد كنتُ حائرًا بين جنازتها وما بين الإطمئنان عليكِ يا فيروز، هاتفت أبي أخبره بالوفاة فأدركنا على الفور وتم دفن الجدة في مقابر عائلة أبي، وفور الانتهاء عدتُ مسرعًا إليك.

أخبرنا التمريض بأنه مسموح لشخصٍ واحدٍ بمرافقتكِ، كنت أتمنى أن أرافقكِ أنا لكني لست مِحرَماً لكِ، لست أخوكِ،وتمسكت «رهف «بمرافقتكِ، وعندما بدأ الجميع يرحلون أخرتُ نفسي بحِجَة أن المصعد لا يتحمل عددنا لأزيد تأملي وجهك بضع دقائق، فأهداني القدر ما هو أعظم بأن إستأذنت رهف دخول دورة المياه، فلم يبقى إلا أنا وأنتِ، لأستبيح لنفسي فرصة دخول الجنة لحظاتٍ وأرتشف ماء الحياة بقبلةٍ أسرقها من جبين حبيبتي، منكِ يا فيروز، ثم أمسكت يدكِ برفقٍ وأنحنيت لها مقبلها ووضعت خدي عليها في أمتع لحظات عمري، ثم قمت لأنصرف بعيدًا فعدت إلى رأسكِ ثانية أقبلها وأبكي، ثم تماسكت ومسحت دموعي، ووقفت أستدير للخروج

فلمحت قدمك تطل خارج الغطاء بطلاء أظافر لونه أسود يبرهن تضاد الأسود والأبيض، لقدمٍ بياضحها مريحٌ،فقَبَلتُهَا،ولتقبيل الرجل قدم حبيبته شموخًا حيث نشعر أن ملكة الأنوثة منحتنا شرف حبها ورضت لشفاهنا أن تلامس ما طاب من جسدها، ثم خرجت من الغرفة أنتظر رهف في الطرقة فلم تتأخر وأتت فقالت..

– نوح، بعرف إنك مو محتاج أذكرك، لكن كرمال الله راعي فيروز أكتر، لأنها بالرغم من حب كِل السوريين لها، لكن ما بتحس بالأمان غير معك، وبعد جدتها، حرفيًا مالها غيرك بعد الله.

– أصلًا هتخرج من المستشفى على بيتنا، وأمي تاخد بالها من صحتها لحد ما تفوق

– الله يبارك فيكم

– صحيح، هاتي مفتاح شقة فيروز هبات فيها النهاردة

ثم انصرفت..

كنتُ كسيرًا لأني لا أستيطع مرافقتك بالمستشفى يا فيروزتي، أنتِ حقي المسلوب، وأملاكي الممنوع منها.

لو تدكرين آلالامي الآن، لو تدركين خوفي عليكِ، ها أنا أبيت في شقتكم، أنام على فراشكِ ودموعي تملأ وسادتكِ التي تجملت برائحتكِ.

(٤٨)

استيقظت على وجه الخالة صفية وبجوارها رهف يجلسا أمام سريري، فتوقف حديثهما وانتبها لي، فسألتهم هل حقًا ماتت جدتي، فحضنتني الخالة صفية متمتة «البقاء لله، سلمي أمرك لله «ثم أخبرتني أنك استحييت البقاء في غرفتي أثناء نومي، وتجلس خارجها.

وعندما أذن الطبيب بخروجي من المستشفى، أصرت الخالة على ذهابي البيت معها لتغيير حالتي، وقد كان، مكثتُ بغرفتك يا حبيبي عشرة أيام لم تفارقني الخالة صفية فيه، كانت تنام معي ونوح ينام مع أبيه في غرفته، لقد كان أنسب مكان لتهوين مصيبتي في جدتي، عرين حبيبي، كنت أتمنى أن تكون مكان أمك يا نوحي، التحف حضنك وأنام متناسية كل شيء.

إن آخر ما أتذكرة قبل موت جدتي هو تخطيطي لمصارحتك بحبي، لكني لن استجدي تعاطفك معي وأصارحك بحبي فتجيب عكس ما تبطن، لن أصارحك إلا في موضع قوة، فأنا بنت الشام، مهما ذبلت سأترعرع يوما ما، وسأثمر مثلما كنت، ومهما لاحقني اللجوء فلن أتنازل عن كرامتي.

أتعرف يا حبيبي، إن سبب سرعة تأقلمي مع الواقع بدون جدتي هو الصراع القائم داخلي تجاهك وكوني لا أريد نظرة شفقة منك، يكفي ما مضى، لذا تعافيت بسرعة، وعاندت الحزن فلم يتملكني طويلًا، حتى طلبت منكم رجوعي بيتي بجوار رابطة السوريين لممارسة حياتي الطبيعية.

(٤٩)

وبيعت بواقي أحلامي في سوق النخاسة وقبضتُ الثمن، وحسبتُ الحسبة لجميع شركائي (آدم - عبدالرحمن - محمد عبدالناصر) وزعتُ الخسائر على حسب نسبة كل فردٍ في رأس المال، فلم يراجعني صديقي محمد، لكن الشريكين الآخرين لم يرضوا بالخسارة واتهموني بالتقصير والتراخي في إدارة ميكروباصاتي، وكانت نبرتهم تتهمني بالنصب عندما شرحت لهم أسباب الخسارة وأخرجت إيصالات رسمية لدفع رسوم الإفراج ثم أخرجت ورقة بخط يدي عن كل جنية دفعته رشوة، ولن يصدقك همك إلا من عاشه معك.

احتكم آدم لأخيه أحمد الذي كسب معي وأخذ رأس ماله كاملًا، فأجابه أخيه «أيامك فقر يا آدم، نوح شارط علينا مع بعض مكسب وخسارة».

إن ما حدث لي في الفترة الأخيرة جعلني ضيق الخلق سريع الغضب، فقلت لهما «لو مش عاجبكم تشاركوا في الخسارة، وربنا ما هرجعلكم أي جنيه، والدكر يعرف يفتح بؤه، وإللّي يقدر يثبت إني خدت منه فلوس أشغلهاله يروح المحكمة».

خرس الجميع، وأخذوا أموالهم عن يدٍ وهم صامتون.

ومن مهازل واقعي أن تأتيني مكالمتكِ يا فيروز في نفس اليوم تطلبي مني أن أذهب معكِ لشراء سيارة من مالك الخاص وبالطبع

ستكون باسمي، وكان لقاؤنا في الصباح توجهنا لمعرض السيارات المستعملة واشتريتُ لكِ واحدة. ثم عدتُ بيتي لأستكمل موسم النوم.

كان إحساسٌ مربك وأنا أتنفس وجودك في فراشي الذي نمتِ عليه عشرة أيام، وأتخيل هل سيجمعنا غطاءٌ واحدٌ ذات يوم.؟

وازدادت ساعات نومي في غرفتي، انتظارا لتأشيرة سفرٍ تنقلني أوروبا.

ولا أسوأ من طاقةٍ كامنة في شبابٍ عاطلٍ، إنها أبشع وباء يدمر المجتمعات.

(٥٠)

لن يسقط رجل تحبه فتاة.

فإن الله خلق قوة الرجل بعضلاته أما قوة المرأة بمشاعرها التي لا تضمحل كالعضلات.

وكما رممت حياتي وقت انهيارها يا نوحي، ها أنا إشتريت لك سيارة فور أن أخبرتني ببيع سياراتك، لكني لا أجد طريقة أهديها لكَ، أخاف غضبك.

سأعرض عليك إن احتجتها في أي مشوارٍ فعليك أن تأخذها فورًا.

لالا، ليست طريقة لطيفة مع حبيبي خاصة في هذا التوقيت من إنهيار عمله.

سأعرض عليه أن يأخذها أسبوعًا لتكون استفتاحيتها بقيادته، فكرة رائعة، سأنفذها الآن.

وفي منتصف الليل هاتفتك فأجبتني، وعرضت عليك الفكرة فلم تبهجك رغم ما في صوتي من طاقة كبيرة، فهدأت، ثم حلفتك بحياتي أن تأتي صباحًا لتأخذ السيارة، وأنهينا وأنا موجعة لأجلك.

يا حبيبي، مثلك لا يحق له السقوط، أنت منهل الكفاح، أنت مصنع الأحلام.

وانتظرتك في الصباح، حتى أتيت أخذت السيارة، وقضيت وقتًا قليلًا معي بالرابطة، ثم رحلت.

(٥١)

«نوح، عايزة أسالك عن شيء مهم».

أتتني رسالتكِ يا فيروز في منتصف الليل، وأنا متكئ على فراشي في غرفتي المظلمة ويتشعب في منتصفها خطوط ضوء خافت متسرب من فراغات الشباك، فأجبتكِ برسالة «اسألي»، فأرسلتِ «ليك علاقة بمحمد شعبان، صاحب مصنع الملابس»، تعجبت من سؤالكِ عنه لكني أجبت «علاقتي بيه سطحيه، يادوب سلامات لكن في العموم الناس بيقولوا عليه شخص محترم وجدع، ياتري بتسألي ليه؟».

فأجبتيني برسالةٍ كهربتني فإنتفضت من نومتي حتى أصدر خشب السرير صوتًا، كل هذا لكلمتين منكِ في رسالة» متقدم لخطبتي».. لن يصف الكلام مشاعرنا مهما جاهدنا بالألفاظ، ظللت مبحلقًا في الموبيل لا أرى سوى «متقدم لخطبتي «وبعض الكلام دمار شامل، تأتي كلمة منتقاة في موضعها وتوقيتها فتلامس مشاعر سنين وتنكأ جرحًا في الروح ظنناه التأم.

مرت دقائق وأنا صنم نُحِتَ بملامح الذهول.

«نوح، ليه ما رديت؟ إي رأيك في العريس إللِّي متقدم لأختك؟»، رسالة أخري منكِ ألجمتني أكثر، وأحسست رأسي بدأ يسخن تدريجيًا، شيء ما يفور برأسي ويرجرج عظام جمجمتي وتجتاحني طاقة ما قبل القتل أو الانتحار، لا أدري أيهما كانت تلك الطاقة أم

أنها نفس النوع في الحالتين، ففي القتل والانتحار إحساس مشترك بعدم اللامبالاة بما سيأتي. «مش هامني مين العريس أد ما أنا مش مستوعب فرحتي إن أختي أخيرًا اتفكت عقدتها من الجواز «هكذا رددتُ كذبًا على حماقتكِ وجبروتك، ولم أدعكِ تردين فلاحقتكِ وأرسلت «يا دوب هنام ساعتين عشان عندي شغل كتير ويوم طويل، نكمل كلامنا بكره، سلام «أغلقت، غرقت، حتى اختنقت، وللبكاء استسلمت، ما هذا الانهيار أيها الرجل.!!

ألستُ بطلكِ يا فيروز..!!

ثم أتتني رسالتك..

«بدون مقدمات يجب أن أراكَ غدًا، وليس لديكَ خيارٌ في الرفض أو النقاش، أتعلم يا نوح متأكدة أنني لن آخذ قرارًا صائبًا إلا معك، فعلاج الأطباء يبرئ الأبدان لكن رؤياك دواء الروح، رؤياكَ دواءُ روحي. سأنتظرك الرابعة عصرًا في مول العرب بجوار النافورة، وسلامٌ عليكَ إلى أن ألقاك».

قرأتُ رسالتك.. أغلقت هاتفي..

لم أنم الليلة يا فيروز ولم أستطع السيطرة على تشويش عقلي فلم أرتب أفكاري، فقط حزنتُ كحزن الملوك عند ضياع ملكهم، لكني لم أضيع فرصة معكِ، ولم أدع يد غيري تساندك فكيف يلين قلبك بأن تنطقي اسم رجلٍ غيري لتتوجيه بقلبك ملكًا، ولو على سبيل السؤال.. !! إنها لكبيرة أن تزول عقدتك يا فيروز، كبيرة لدرجة أنكِ لن تتخيليها، فالطبيب يدرك خطورة المرض أكثر من المريض خاصة لو صبر الطبيب سنينًا على أمل شفائه، لن تدركي يا حمقاء أخبريني،

ما الذي فعله مَيَزَهُ بعينيك فخفق له قلبك..! ومتى زالت عقدك..!

ألا لعنة الله على أسئلة يعجز العقل عن إجاباتها ويعجز أكثر عن الهرب منها.

ألا لعنة الله على لحظات تسقط رجولة الرجل أمام نفسه فيتمنى الفناء.

أشعر بالحماقة المطلقة أو بالنضوج المفاجئ وأبتسم ببلاهة واستنكار أتساءل «كيف أحببتكِ..! ألهذه الدرجة كنتُ أحمق..!!»

(٥٢)

أحمقٌ أنت يا حبيبي.

في محراب الحنين فاتت سنين.

تُجيد جميع الأدوار في جميع أوقاتي واحتياجاتي، إلا عند نقاشات الحب والزواج، تكون أحمق لا تجيد دور الأخ، ولا دور الحبيب، لقد ازدتني حيرة على حيرتي.

لكن غدًا سيكون اليوم الأخير، سأعتصر غيرتك، سأستفزك بكل ما أوتيت من كيد النساء، سأجعلك تعترف بحبي الذي لا أستطيع البوح به.

أو أجد في ملامحكَ ما يطمئن قلبي لأعترف بحبي، أو أتراجع للنهاية وأتناسى كما كنا، وربما أرحل بلا رجعة، ودون ترك أثر لي في أي طريق.

غدًا، نُدرك دون شك.

(٥٣)

ذاهبٌ إليكِ وأعلمُ أنني لن أنصفني وسأقف بِصَفُكِ ضِدِي، وسأُعاتِبُنِي في حَضرَةِ جلالك، وسأقسو عليَّ، ولن أبوحَ بمشاعري إليكِ، وغالبًا سأقود سيارة زفافك، إنني آتٍ لأعذبني معكِ، إنني مريضٌ بالخوف عليكِ يا فيروزتي.

أول مرة أخشى لقاءك ويكأنني ذاهب للقاء ملك الموت.

فحتى لو تجسد في أحسن صُوَرِة.. في صورتك،فيبقى ملك الموت هو ملك الموت.

وأيضًا للمرة الأولي أذوق رعشة الخوف، فمعكِ كل شيء للمرة الأولي.

و للمرة الأولي أدخل مول العرب أو كما قلت لك في الهاتف «برج العرب «من فرط ارتباكي.

وصلتُ قبلكِ كالعادة، أتذكرين ملابسي وقتها..!!

أكانت صدفة، أم أن ألوان التيشرت جسدت مشاعري..!! فجميع الألوان تجمعت في خطوط عريضة لكن الأبيض كان يفصل بين كل لونين، ليثبت أنه بالرغم من تضارب ألوان مشاعري تجاهك وقتها، فالأبيض سائد.

ارتبتُ كثيرًا في أن أعود، وكلما زاد تأخرك زاد تبريري لهروبي من مواجهة هزائمي، من مواجهتك، لكني بقيت.. فما كنت لأضيع لقاءً معكِ.

طفت الدور الأرضي للمول بلا توقفٍ، ويدي في جيبي محتضنة هاتفي مثلما أحاطتكِ روحي، ولأني موقن أنكِ عندما تتصلين لن أسمع رنين هاتفي برغم صوته العالي، فلاصقته بيدي كي يفيقني إهتزازة،وطال طوافي، ولا شيء يجول بخاطري، ولا كلمة أحضرها لكِ، وبينما أختبئ من نفسي في الزحام رغم كرهي له،خِفتُ أن يتتبعني أحدُ أفراد الأمن فمن المؤكد مروري بشكلٍ دوريٍ مستمرٍ في جميع كاميرات المراقبة شيء يدعو الأمن للحذر، فخرجت لساحة النافورة.

لم يغريني تراقصها، فارتفاع الماء لأقصي حد ثم سقوطه المفاجئ، وتكرار صعوده ثانية ليسقط بنفس القوة وهو يدرك مصيره، يشبه حالي معكِ..

فجلست على حافةِ السور القصير المحيط بالنافورة، إستجمعت جزءًا مني.. تمالكتني قليلًا.. حاولتُ تهدئتي.. كيف أهابك هكذا.. كيف أهابك.!!

ومضى الوقت، أستذكر كل شيء بيننا، حتى أدركتُ خنوعي وضعفي معكِ، فكرهتُ نفسي. ألهذا الحد توهن الرجال مشاعرهم..!!

وأخيرًا، إهتزاز في ذقني خارج من بين كفي المحتضنتا هاتفي، بسبب اتصالك تسأليني عن مكاني بالتحديد، فقمتُ إلى استقبالك، استقبلتُ هزائمي الصغيرة حجمًا غير المتناهية مفعولًا بضحكاتٍ عريضةٍ وصوتٍ يتعالى ليُخفي ارتباكي، ثم استدرتُ سريعًا لأمشي أمامكِ في اتجاه المطاعم حول النافورة هروبًا والتقاطًا لأنفاسي، لكنكِ لاحقتيني لدخول المول متمتمة بعدم أرادتك الجلوس جوار النافورة، فدخلنا ساحة المطاعم وجلسنا وسط الزحام، لكني لم أمهل للجلوس استقرار جسدي فإنتفضتُ لأحضِرَ القهوة.

وأمام منفذ بيع المشروبات وقفتُ فترة وبيدي إيصال دفع القهوة والمياه حتى إنتابني الغضب بسبب إعطاء البائع قهوة لزبائنٍ اتوا بعدي بعدة دقائق فكلمته لأكتشف أنني لم أعطه الايصال حين أخذته من الكاشير،حقًا.. لا شيء يذهبُ عقل الرجل العاقل سواكن.

فيروز كيف تبادلنا أدوارنا..؟

يا أيتها السورية التي لجأتُ إليكِ حين إستنجدتِ بي في بؤرة غربتي، في وطني، مصر. ومع أن حال العالم يسميكِ لاجئة حين هربتِ إلى مصر لتنفضي غبار أنقاض بيتكِ المهدوم بقذائف بشار الأسد.. لكن واقعي، يسميني لاجئًا حين هربتُ إليكِ لأنفضَ غبار أنقاض نفسي المهدومة بقذائف اليأس المصرية. من مِنا لاجئ..!!

وجئتُ إليكِ كهلًا.. يكسوه الشباب

وجئتِ إليّ وطنًا.. يكسوه إغتراب

لا ندري من جاء الثاني.. لتزاحم الضبـــاب

والأمواجُ تعصفنا بالشكِ.. أعداءٌ أم أحباب !؟

وأخيرًا، أخذتُ القهوة وزجاجتي مياه ربما تساعد ألسنتنا في عدم الالتصاق بجدار أفواهنا، وتُجري الريق بين أسناننا وشفاهنا التي أجدبتها مشاعرُ خوف ما قبل المواجهة، فتفاصيلكُ أملكها كما تملكينَ إدانة العالم في سكوته تجاه دمار سوريا.

ثم خطوت إليكِ وأنتِ واجمه وتخططين بإصبعكِ السبابة على المنضدة خطوطًا متوازيه، وضعتُ على المنضدة طبقًا أبيضًا مصنوعا من الفللين وبداخله كوبا قهوتنا، ثم وضعت المياه ولم أرفع قهوتك لأضعها أمامكِ كي لا تلمحين رعشة يدي.

لكني رأيتُ رعشة يدكِ وهي تمتد لأخذ زجاجة المياة، ثم حاولتِ فتحها ففشلتِ عدة مراتٍ في قطع الغلاف الشفاف حول

الغطاء مع أن أظافركِ طويلة لكن أصبعكِ لم يقوَّ على إتمام مهمته فقبضتُ قبضتي وأنا أخبئها تحت سطح المنضدة كي لا أفضح نفسي لعينيك، ثم تمالكتني وأخرجت يدي سريعًا سحبتُ منكِ الزجاجة وفتحتها متصنعًا التبسم قائلًا «عجزتي خلاص.؟" فأجبتِ بعد رشفةِ مياه «الله المستعان»، فتصنعتُ ضحكة عالية قائلًا..

– نسيت أجيب مأذون عشان نجوزك أول عريس وافقتي عليه

– واضح إنك ما صدقت وعايز تخلص مني فعلا

– على فكرة ماكنتش عايز نتناقش إمبارح في الشات، الموضوع ده لازم تبقي قدامي

– ليه؟

– لأن ما يهمنيش العريس مناسب ولا مش مناسب،إللِّي يهمني فيروز عندها استعداد ترتبط؟!

– بصراحة يعني الرجال مغري، عنده مصنع وسلسة محلات كبيرة ده غير سياراته

– بس مش إنتي إللِّي تشدك ماديات..!!

– ده الطبيعي، لكن ما تخيلت رجل أعمال بالحجم ده يتمناني زوجته

ضربة في مقتل، لا أحقر من كلامكِ هذا بعد إفلاسي.

ثم ساد الصمت لحظات بطيئة خانقة وأنا أنظر بعيدًا على أحد عمال النظافة وهو يمسح الأرض ويثقل الهمَّ لساني ولا أعرف بمَا أنطق، وأخيرًا تمالكت نفسي وأكملت..

– يعني خلاص موافقة عليه، أجيب المأذون قبل ما ترجعي في كلامك؟

– مش لهالدرجة، لسه مترددة

– أيوه بقى، مترددة ليه؟
– مش عارفه
– فيروز..
– نعم
– عيني في عينك
– أهو
– مترددة ليه؟
– والله مش عارفه
– في حد تاني في حياتك مثلا؟
– لأ طبعا
– أمال إيه؟
– لسه مش قادرة أتقبل الموضوع، بحارب نفسي لمجرد إني أفكر أرتبط، ويكون لي رجل
– ده شيء صحي جدًا
– بمعنى؟
– كنا فين وبقينا فين، ده كنت بتتعصبي لمجرد فكرة الارتباط وبتقفلي أي نقاش ولو هزار
– تفتكر فعلا بقيت طبيعية؟
– أنت بديتي تقبلي فكرة الارتباط قبل ما يتقدملك ولا بعد ما أتقدم.؟
– قبلها بفترة، من وقت خطوبتك أمنية
– ده معناه إنك مترده من الارتباط بمحمد شعبان، لكن مش خايفه من الارتباط، صح كده؟
– لأ مش صح

- ألطم، أمال إيه الصح.؟
- براحة يا نوح أنا متوترة أكتر منك
- ما أعتقدش
- ليه؟
- عشان بحس إني مسئول عنك
- ده غصب عنك
- ماشي يا سيطرة، طيب تخيلي لو كذا واحد متقدمينلك مع محمد شعبان

وقتها هتختاري ما بينهم ولا؟ ولا هتفضلي بنفس توترك ده؟

- على حسب مين إللي متقدمين
- نفترض مثلًا مثلًا: محمد شعبان، والدكتور إسماعيل قورة، ومثلًا مثلًا.. «أنا».
- أنت..!! أعوذ بالله من إنك تتقدملي.. شوف أبقى بكلمك جد تروح مهزر هزار سخيف
- أقصد يعني واحد فيه نفس صفاتي
- نفس صفاتك..!! ده ما يتقارنش بأي حد
- يبقى كده وصلنا لحتة مهمة جدا
- هي إيه؟
- إنك هتختاري، أو على الأقل هتقارني بين محمد شعبان وبين غيره
- انت ليه محسسني إني بحب محمد شعبان
- أنت إللِّي محسساني كده
- تصدق، أنا اصلًا ما أعرفش شكله، ولا مره ركزت في وشه
- ياترى عارفه شكلي ولا السنين دي كلها لسه ما ركزتيش؟

- عرفاك أكتر من نفسك
- محدش بيعرف حد أكتر من نفسه
- حتى أنا؟
- المهم إحكيلي، هو كلمك إزاي وقالك يتقدملك؟
- بس أنا عرفاك أكتر من نفسك يا نوح
- أتمنى، هاا محمد شعبان فتح معاكي كلام إزاي؟
- بعتلي رسالة على الواتس، إستني أوريهالك، أهي بص

«أهلين فيروز، أنا محمد شعبان صاحب مصنع الملابس، هدخل في الموضوع علطول

بقالي فترة كبيرة متابعك ونفسي أتقدملك، وقبل ما تفكري، إسألي العريس بيجيب للعروسة المصرية إي، وهجيبلك أضعافه، لإنك مش مجرد واحده كويسه تناسبني أتقدملها، لأ إنتي حلم نفسي أحققه، أرجوكي خدي وقتك في التفكير وهستني ردك».

- الله الله،أل إيه، خير اللهم اجعله خير الواد طلع حساس ورومانسي
- بلاش تريقه، مش يمكن يبقى جوزي في يوم
- الله يحنن عليكم
- تعرف أحلى حاجة إيه، إنه مش بيدور على عروسة وخلاص زي ما الطبيعي الواحد يدور على واحدة محترمة ومناسبة، لأ، ده طلع عايزني أنا، ومتابعني أنا، ويمكن بيحبني، ودي أكتر حاجة مخلياني أفكر، وأفكر بضمير كمان
- يارومانسي أنت، يا حنين
- فعلًا سبب مفرحني أوي
- بجد فرحتي بيكي يا أحلى أخت، ما تتوصفش، أخيرًا هشوفك

لابسة فستان عروسة
- بحبك أوي
- نعم.؟
- يا أحلى أخ في الدنيا، بجد فرحتك ليا مطمناني أوي، بحبك يا أجدع أخ
- المهم شوفي محمد شعبان هيتقدملك إمتى، وعرفيني عشان أرتب مواعيدي
- أوك، صحيح، في حاجة عايزة أقولهالك وخايفة منك تتعصب
- مافيش حاجة تعصبني على أختي الوحيدة، وأحلى عروسة، قولي
- بما إني أختك الوحيدة.
عايزاك تبيع عربيتي لإني تسرعت في شراءها ومحتاجة فلوسها ضروري
- لو كده هرجعها المعرض، صاحبة حبيبي، يلا أوصلك البيت
- فجأة كده..!! خلينا شوية، مش يمكن أغير رأيي
- تغيريه في إيه؟
- في إني أبيع العربية
- ورايا مشاوير كتير، يلا أوصلك ولما تاخدي قرار أبيعها ولا أخليها عرفيني
- خلاص روح إنت، أنا في واحدة صاحبتي في المول وهنروح سوا
- سلام
لأول مرةٍ أترك فيروز وأغادر، خوفًا من ضربها.
لقد رأيتُ فيها جبروتًا لا يستحق الغفران مهما إعتذرت ومهما كانت منزلتها بقلبي.
للمرة الأولي تخطئ فيروز في اختيار أنسب الطرق لي، وأنا للمرة

الأولى أخطأ فهمها ربما لأنها نجاستها الأولى في الكلام، أو هي حماقتي المطلقة في تعلقي بها دون تفكير..!!

يا فيروز، يا محرفة كل شيء بداخلي، بانية الأمل وحافرة اليأس في آن واحد وفي رقعة واحده من قلبي.

أنتِ اليقين المطلق والشك المحرق، أنتِ كل شيء وضده بالنسبة لي..

لا أدري أهذة حقيقتك التي واريتيها عني..!! أم حقيقتي التي أخفاها طهرك..!!

أم هذا ما أستحقه منك..!! أم أنكِ الطفلة التي دهست على ألغامٍ دون أن تدري خطرها.

فيروز.. كيف طاوعت نفسها وتلاعبت بي..!!

وتكرر سؤالها لتسمع منى أنها «أختي «لتحرق آخر ما تبقى فيَّ من كرامة ورجولة.!

وكيف كنت ساذجًا ألهث خلف من لا تري حبي..!! وجلست تتفاخر ببطولات معجبٌ بها.!

وكيف ظلمتُ أمنية بتعلقي بسراب فيروز..!!

حين نرتجف فنهرب قبل أن نثور أو نبكي، هربت وكل ما فيَّ يرتعش حتى بؤبؤ عيني وإرتعش عقلي فسكب المعاني من رأسي وتخدر إستيعابي، وتخدرت أعصابي فمشيت مسافة لم أتخيل أن أقطعها مترجلًا حتى قدمي لم تؤلمني، ثم تذكرت أن معي سيارتك فركبت سيارة أجرة وعدت للمول لأركب سيارتك.

كنتُ محاصرًا بأقسي جملكِ يا فيروز «أعوذ بالله من إنك تتقدملي» إستعذتِ مني كالشيطان وذبحتيني بجملتك «ما تخيلت رجل أعمال بالحجم ده يتمناني زوجته»، ثم ختمتِ بأعظم جرحٍ بقولك «أحلى حاجة مش بيدور على عروسة وخلاص زي ما الطبيعي الواحد يدور على

واحده محترمه ومناسبة، لأ، ده طلع عايزني أنا ومتابعني ويمكن بيحبني».

كلماتك أثبتت أني شفاف بعينيك، أني شيء لا يستحق الرؤية، وبعض الكلام يثبت أننا سراب في أعين من عشقناهم..

لطفك يا الله بقلبٍ جعله العشق هَش، لقد حاولتُ البوح لها بكل ما بداخلي لكني خفت. لا أعلم هل أهابها أم أخاف ردة فعلها أم أخاف عليها لدرجة أن أخنق مشاعري حتى تخنقني.! كل ما في الأمر كنت أنتظر لمعة عينيك يا فيروز بأنك تعافيتي من صراعاتك وعقدك، ما يهم، كفاك إنهيار يا رجل.!

تلك اللحظة لن نعود بعدها كما كنا، لن أتأرجح بين سماء عشقك وبركان أخوتنا، لن أضيع لحظة أخرى في أمل كاذبٍ.

تلك اللحظة التي ننضج فيها فجأة إثر صفعةٍ تجهد الروح فنفيق من السذاجة التي سيطرت علينا سنين، لحظة تتعظم فيها الأنا ولا نري إلا مصلحتنا الفردية، لحظة نريد أن نحترم أنفسنا ونصون أعمارنا.

قطعت الطريق مسرعًا إلى معرض السيارات، بعد أن هاتفت صاحبة في الطريق وأخبرته بإسترجاع سيارتك، فأعاد ثمنها دون إنقاصه..

ومر باقي اليوم دون رسالة منكِ يا محرفة كل شيء داخلي، وعندما هاتفني صديقي محمد عبدالناصر يؤكد سفرنا خلال بضعة أيام، فرحت لرحيلي قبل عرسك،لم يعد للتراجع إحتمالية. وفي اليوم التالي عصرًا أخذت ثمن سيارتك وتوجهت لرابطة السوريين فلم أجدك بها، فسألت رهف عنك فأخبرتني أنكِ في مشوار مع زميلك «محمد شعبان»، فلم أجرؤ على مهاتفتك وطلبت من رهف أن تتصل بك تخبرك أنني تركت معها ثمن سيارتك وبررت لرهف بأنني لو إتصلت فسوف تتمسك فيروز بأن أنتظرها حتى تعود، وأنا على

عجلة من أمري.

تركتُ نقودك وهربت، لم أتحمل فكرة ذهابك لمن أحببتيه، لم أتحمل خيانتك، ولم تأتيني منك أي رسالة أو إتصال، ورغم انتظاري طوال الليل دون جدوى لم أفكر في مهاتفتك.

وما أفظع شعور أنك لم يعد لك الحق فيمن أحببت، ثم تجرأتُ فتحت الواتس آب وبدأت أكتب رسالة إليك، كتبتُ دون تفكير أو ترتيب ثم مسحت ما كتبت، ليظل الكلام الذي كتمناه هو الحقيقة الصافية..

ألقيت جوالي على الكرسي، وأخرجت كراسة وقلم لأكتب رسالة أخيرة أودعها لك قبل سفري بسويعات، وبأنامل ترتعش وعضلة فكٍ تضغط غلًا، وحاجبان منعقدان بدأت كتابة جوابي الأخير...

(٥٤)

اكتب إليكِ بالفصحى التي تحبينها والتي أحببتها معكِ، أما بعد/

أيا فيروزتي، يُحكي أنه ذات يوم اصطحب رجل سمسارًا لبيته ليبيعه له، وبعد أيام قرأ الرجل إعلانًا بالجريدة عن بيتٍ للبيع، مواصفاته خرافية حيث يطل على ناصيتين وهواءة بحري وتدخله الشمس فترات طويلة، وعند نهاية الإعلان وجد عنوانه الشخصي ورقم السمسار الذي ذهب إليه، لقد وجد أن البيت الذي أبهره هو بيته الذي أراد بيعه وجد فيه المواصفات التي كان يريد أن يجدها في بيتٍ جديد، فتراجع عن بيعه، كل ما في الأمر نحتاج أن نري ما نمتلك بزاوية الجمال، نحتاج أن نرى أنفسنا من الخارج قبل أن نفقد ما تعودنا عليه فزال إبهاره وأنطفأ بريقه بأعيننا.

وقد قررت أن نستوقف أنفسنا لحظات لنشاهدها من بعيد لطالما وصلنا لنقطة لن نعود بعدها كما كنا، يُحكي أن شابًا وفتاة تعارفا فتصاحبا فاندمجا فصارا خليلان، ولو رتب كلٌ منهما علاقاته لأخذا أقرب الدرجات من بعضهما، هي دائما تخبره بلسانها «لا أثق في أحد مثلك، ولا أخجل منك، وأنت الشخص الوحيد الذي لم يجرحني يومًا بكلمة أو نظرة،وبدونك لا أطمئن وحين أتسامر معكَ لا أفكر فيما سأقول، ولا اختار كلماتي لأني أترك روحي تخبرك بما يكمن داخلي وأنا على يقينٍ أنك تفهمني كما أريد وأكثر».

وجملتها التي تكررها كثيرًا «لكم تمنيت أن تربطنا صلة قرابة

لآخر العمر، كنت أتمني أن يكون لي ابنه فأزوجها لك، فلا أأمن ولا أرجل منك بعيني».

وفي الأشهر الأخيرة صارت تناديه بأورع ما يتمنى الرجل أن تستشعره أنثاه معه، كلمتان (بطلي- سَنَدِي)، وآخر ما سأذكر من كلماتها له «بعمري لم أحلم مع غيرك حلمًا مشتركًا، ولم أتمنى نجاحًا أتقاسمه مع أحدٍ سواك».

وبعد أن عرضنا موجزًا من زاوية الفتاة، نأتي لزاوية الشاب ربما نجد شيئًا آخر، فهو مختلف حيث كان إقترابه منها أمر شبه مستحيل،فما أصعب أن تحاول الإقتراب من شخصٍ لديه فوبيا من العلاقات ويضع صراعاته وعقده حاجزًا بينه وبين الجنس الآخر فلمجرد أن تري رجلًا ترتبك وتصاب بنوبات عصبية، فكان صراع الشاب أن يثبت لها كلمتين (الدنيا بخير)، وبعد سنين بدأ كفاحه يثمر في سلوك الفتاة في ردة فعلها تجاه الحياة، لقد صارت طبيعية وتشع نجاحًا، لم يكن الشاب يعبرعن حبه بكلمات المراهقين. كان حبه حياة.. كان حبه قضية.

يا فيروز.. أحببتكِ حب الأنبياء لأقوامهم.

وخوفي من خسارتك ألجمتني فحافظت على ما بيننا تحت مسمى الأخوة لطالما هذا المسمي سيبقينا قريبين، وقضيتُ سنينًا أنتظرك تتعافين مما أنتِ فيه، وكنتُ على يقينٍ عندما يلين قلبك للإرتباط فلا أحق بحبكِ غيري، لكنكِ تماديتي وصرتِ تكررين إغلاق قلبكِ نهائيًا وتكرري أكثر أن ما بيننا أخوة وصداقة، ولأحافظ على وجودك بحياتي حاولت إكمال الطريق بخطبة أمنية،لكني تأكدتُ من حبكِ أكثر فور خطبتي، كنت أجاهد قلبي ليرى أمنية على غير صورتك وفشلت وتعلقت بكِ أكثر.

فيروز.. إن كلماتي مبعثرة وأفكاري مشتتة وأنفاسي ترتعش خوفًا عليكِ ومنك..

يا أقرب الخلق لقلبي، مُحال أن توصل السطور مشاعر سنين، إن الكلام يوصل الحقائق المجردة من المشاعر، لذا سأذكر بعض الحقائق التي خطرت ببالي: متيقن أنكِ منذ البداية حين أنجذبتِ لي خفتِ من خسارتي لأن الإرتباط هو التطور الطبيعي لنا فأسميتِ علاقتنا أخوة لإنك تخافين من الإرتباط، مع أن الذي بيننا لو تواجد بين الأزواج فلن نسمع عن حالة خلاف وستعمر البيوت سكينة الحب ودفء السكن، واذكركِ ثانيًا وثالثًا وعاشرًا إن الذي بيننا ليس أخوة إن لم يكن ما بيننا هو الحب المثالي المؤدي للزواج فهناك خلل في المفاهيم، وما يستشيطني جنونًا أن النبته التي رويتها بعمري ومشاعري فجأة تقرر أن تكون لغيري، ويا ليتكِ أخبرتيني أنكِ أحببتِ غيري وقتها كنت سأخرس وأبتلع لساني.

لكن قمة العَتَه اعترافكِ بأنك وافقتِ على من لا تعرفين شكله، وافقتي فقط من أجل المحاوله في أن تكوني كسائر البشر..!!

فيروز، ربما أصدقكِ إن قلتِ بأنك لا تريني زوجًا لكن لن أقبل أن تقولي ما بيننا أخوة، وإني أطمئنكِ بأنني سأكون بخيرٍ ولن أقفز من أعلى البرج عند رفضك، لكن فراقنا سيكون شيئًا محتومًا وأمرًا محسومًا.

لأنه لا يوجد رجل على وجه الأرض سيتزوجكِ متقبلًا استمرار علاقتنا بهذه الصورة، وأيضًا لا توجد فتاة تقبلك شريكة معها فيَّ، وأنا لن أستنفذ مشاعري معكِ إن تزوجت غيرك، لأن بيتي أولى بكل مشاعري.

لا أدري ما رد فعلك على كلماتي، ربما تَسُبِيني لأني تأخرت

في الإعتراف بحبي، لكني والله ما تأخرت لقد أثبت حبي بأفعال الرجال، أتعرفين عندما نتزوج سيتعجب جميع معارفنا من تأخيرنا تلك الخطوة،فكل من يروننا من بعيدٍ أو قريبٍ يظنوننا نعود يوميًا تحت سقف واحد.

يا فيروز.. إنني رأيتكِ بفؤادي، وما كذب الفؤاد ما رأى.

وتلك رسالتي الأخير التي عندما تقرأيها سأكون خارج مصر، فإما توافقيني رأيي وتجيبيني برسالة وتنتظري عودتي بعد عامٍ لنتزوج،أو تكملي مع من ارتضيتيه زوجًا دون أن تخبريني.

فعدم ردك سيكون كافيًا لاخباري باختيارك.

وختامًا، أحببتكِ حب الأنبياء لأقوامهم.

(٥٥)

أقبل الصباح فأخذت الجواب لمكتب البريد بعد أن كتبت عنوان رابطة السوريين على المظروف، ليصل فيروز بعد ثلاثة أيام. الجواب سيدخل إليها وأنا خارج مصر. ثم أتتني مكالمة رهف لتتم المصائب على قلبي وهي مزعوة تقول «نوح، فيروز ما رجعت من إمبارح وموبيلها مغلق، اتصرف».

«اتصرف».. هي إحدى لعنات النساء الغير مفهومه بإختلاف بلادهن وألوانهن ولغاتهن، يستكبرن طوال الوقت وعندما تهبط المصائب يتذكرن أن الرجل هو القائد، صاحب القدرات الخارقة، الواجب عليه حل جميع الألغاز قبل أن تطرف عينه.

ألا لعنة على لعنة «اتصرف».

حاولتُ التصرف واتصلت بفيروز كثيرًا فكان هاتفها مغلق، وايضًا محمد شعبان هاتفه مغلق، فتخليت عن كل ما فيَّ من غيرة وشهامة ورجولة وكرامة وارتجفت خوفًا على فيروز، وذهبتُ بيت محمد شعبان أسأل عنه، فأخبرني أخوه بأنه ذهب لقضاء إجازة في أحد شواطئ الأسكندرية، وترك هاتفه مغلقًا بالبيت كي ينعزل عن ضغط العمل، ويستجم.

نعم..!! يستجم بكِ يا فيروز..!!

يا أيها العبث رفقًا بنا، سأسافر غدًا دون وداع فيروز..!

أبهذة المهزلة تنتهي علاقتنا..!!

ألهذا الحد لا يوجد ضامنٍ في العلاقات لتستمر، وقد تنتهي في لمح البصر..!!

ولأننا حين يهبط علينا الظلم ويكبلنا القهر، نتذكر الذين ظلمناهم ويمر شريط العمر ليوضح جرائمنا التي نسيناها أو ظننا أننا نجونا منها، لذا، لم أتذكر غير يا أمنية.

إنني مدينٌ لكِ يا أمنية أكثر مما تدينُ فيروز لي، الآن أدركتُ إجرامي معكِ.

متيقن أنكِ يا أمنية فقتيني في العذاب حين قرأت رسائلي.. هل ستسامحيني..!!

لم أترك نفسي للتساؤلات، أخرجت هاتفي واتصلت بكِ يا أمنية فوجدتُ هاتفكِ مغلقٌ كالعادة.

ثم تزلزل عقلي بصدى صوتِكِ..

«شكيت في نفسي، من كتر منا قليلة في عنيك»

وما أقسى الوجع حين نتذكر أننا ظلمنا من أحبونا بصدقٍ،عالقٌ أنا بين كوني ظالمٌ ومظلوم. لم أفكر بفيروز طوال الطريق، كنتُ غارقًا في أمنية في كل تفاصيلنا معًا، حتى قادني الحنين لمكان حبنا على الكورنيش فجلستُ لأول مرة بجوار طيفها الذي جسده اشتياقي لها حتى شعرت بتلامسنا، الآن أجلس وحيدًا يا أمنية وطيفكُ يحيطني وقد كنتُ بالأمسِ القريب أجلس معكِ وطيفُ فيروز يحيطني ويتجسد فيكِ.

فيا للعجب ويا للوجع، ويا لخسارتي نفسي عدة مرات.

ها قد جنَّ الليل وأنا في مكاننا يا أمنية وطيفكِ يجلسُ جواري صامتًا وينظر لي بنفس نظراتك الأخيرة يوم فراقنا، الآن فهمتُ معاني نظراتك في هذا اليوم.

الآن أتذكر لماذا هاتفتيني تسأليني «أنت فعلًا بتحبني؟»، الآن أدرك بشاعة جرائمي معكِ.

كيف حالُكِ الحالِك في البعد يا أمنية..!!

يا أمنية إنني لستُ خائنًا، أنا لم أستبيح أذية غيري،ولو كنتُ هذا الشخص لما رفضت أن آخذ مكان النجس.

وبقيتُ على حالي بمكان حبنا حتى شقشق الصباح، فعدت البيت وجدته خاليًا.

قد ذهب أبي لعمله وربما ذهبت أمي للتسوق أو لأي مشوار، فدخلت غرفة أبي وأمي.

و مهما كبرتُ سيبقى أأمنُ مكانٍ أنام فيه هو فراش أبي وأمي..

وياليت بعض الأشخاص يدركون مشاعرنا كما يدركها سقف الغرفة..

لم أذهب في نوم عميقٍ كما تخيلت، لقد داهمتني الذكريات وترابطت الأحداث أمام عيني، الآن أدرك كثيرًا من الحقائق بعقلٍ متجردٍ من المشاعر وبانصافٍ لا يعرف التحيز، تذكرتُ بداية دخولي الموقف يوم كانت الأجرة بخمسة وسبعون قرشًا ومع ذلك اعترضنا على واقعنا وثرنا، فجرفتنا الأيام حتى وصلت الأجرة ثلاثة جنيهات، وقد رضينا بالواقع. فأين أهداف الثورة الثلاثة «عيش.. حرية.. عدالة إجتماعية»..!!.

وأين جيل الثورة..!!

لم نتوقع أن نصبح جيلًا مقسمًا بين مهاجرين لم يتحملوا ضيق الحال بوطنهم فهربوا بحثًا عن إنسانيتهم وسعيًا خلف أحلامهم البسيطة.وهذا القسم سأنضم إليه خلال ساعاتٍ قليلة، وأجمل ما في موعد السفر أنه في شهر ديسمبر، لأقتل ذكري أول لقاءٍ مع فيروز

بذكرى السفر.

وقسم صاروا ملحدين كرهوا دينهم بسبب تناقض رجال الدين بين قولهم وتطبيقهم وقت عطش واقعنا لمبادئ الدين الرنانة، حتى صدق الكثير بأن الدين أفيون الشعوب ومنهجٌ لتخدير حريتهم.

أو بلطجية جرفهم جفاء الواقع للبطش بالأضعف منهم والعيش على سلبهم.

أو معتقلٍ أو مصابٍ أو شهيد.

ويظل البقاء للناسِ التقليديين الذين يحيوون كالبقرة في الساقية هدفهم الأكل والشرب فقط.

تمامًا مثل أخي..

يااااه...!! كيف لم أتذكر أخي طيلة الأحداث مع أنه كان متواجدًا في معظمها..!!

مع أنه سبب تعارفي بفيروز حين أوصلته المطار، ربما لأن حياته تتلخص في دراستة ثم سفرة في ٢٠١٢ ثم عودته لمصر ٢٠١٣ ليقضي إجازته السنوية وهي شهر، وقد إختارت له أمي فتاة ليخطبها، ثم سافر لعمله بالسعودية وعاد لمصر في ٢٠١٤ ليقضي إجازته السنوية وهي شهر تحول لشهر العسل لأنه تزوج فيه وزرع نبته في رحم زوجته، ثم سافر لعمله بالسعودية وعاد لمصر في ٢٠١٥ ليقضي إجازته السنوية وهي شهر تعرف خلالها على مولوده الذي بلغ عدة شهور، وفي منتصف إجازته أخبره العمل بالسعودية ألا يعود فقد تم تصفية كثيرٌ من العماله الخارجية، فبحث عن وظيفة بمصر وانخرط في روتينيتها.

لذلك لم أتذكره في قصتي لأني لا أري الأشخاص الروتينية التقليديين، حتى إن الكلمات المستخدمة في الحكي عنه مكرره ومملة،

إن الحدث الوحيد المميز بالنسبة لي كان يوم خطوبة أخي عندما كنت أجلس جوار فيروز والجدة سندس فجاءت إحدي أقارب عروسة أخي سلمت عليَّ ثم سلمت على فيروز وقالت لها «قليل لما ألاقي واحده جوزها شكله بيحبها كده، ياتري عندكم أولاد..!!»، ربما تعجبت فيروز من كلام السيدة الشعبية لكنها كانت سيدة صريحة قالت ما كان يظنه جميع من يرانا في أي مكان.

في وطني،وحدهم التقليديين يستطيعون إقامة علاقات ناجحة،لأنهم لا يحلمون بأكثر من الفتات.

والتقليديون هم البهائم، والبهائم هم أولئك الذين عاشوا وماتوا يتحاكون عن المهدي المنتظر والمسيخ الدجال ولم يفطنوا أنهما بداخلنا، إنهما عنوانًا للخير والشر..!!

البهائم هم أولئك الذين عاشوا وماتوا يراقبون علامات الساعة الصغرى والكبرى أكثر من مراقبتهم طلوع النهار، وبُحت أصواتهم دعاءًا لتحرير فلسطين دون التحرك لأي إنجاز، مع أن الدعاء هو طلب العون من الله قبل العمل وأثناءة، الدعاء ليس تواكلًا يا بهائم وطني، كما أن بداخل كل منا قدسٌ محتلة تنتظر أن نحررها، كل المعاني المحيطة بنا والقضايا التي نتمني ربحها موجودة بداخلنا، ولن نكسب الخارج قبل الداخل.

و في وطننا العربي..

الإلحاد والإرهاب يخرجان من بيوتٍ تدينها خطأ.

أما السفاحون، تربوا في بيئة منزوعة التدين.

وجميعنا محاصرون بصراع دائم بين دفتين، دفة رجال الدين الذين يريدون أن نعيش حياة كالأنبياء في واقعٍ لا يعطينا عُشر إنسانيتنا،

وبين دفة السياسيين الذين يريدون أن نعيش حياة كالمواطن الأوروبي وندفع الضرائب ونحترم سيادة الدولة مع أنهم لم يعطونا عشر حقوق الإنسان الأوروبي من حريةٍ وتعليمٍ وصحةٍ وعملٍ.

لقد أدركتُ جيلًا فيه الشيخ وقودًا، والبلطجي نارًا، والدين حطبًا، والشعب طعامًا.

أقاطع نفسي متسائلًا «من أكَل؟»، فأتحير بين ردين..

أَكَلَنَا جَهْلُنَا الذي صنعه من ثرنا عليهم، أم أَكَلَنَا من ثرنا عليهم بعد أن صنعهم جَهلُنَا..!؟

فيا أيها الذين انهكوا ارواحنا لا طابت لياليكم.

ليتني عرفتكِ قبل فيروز يا أمنية، ليتني عرفتكِ بقلبٍ بكرٍ وعقلٍ خالٍ من صراع المشاعر، ليتني عرفتكِ قبل الثورة، وقبل دمار سوريا، وقبل صراع الأطراف السياسية على السلطة حتى طحنوا الشعوب تحتهم.

يا ليت «ليت «تفيد.

(٥٦)

آسفٌ يا أبي، آسفٌ يا أمي..

سامحوني على خديعتي لكم، فجعلتكم توصلوني المطار وعندما انصرفتم خرجت مع صديقي محمد عبدالناصر واتجهنا لمدينة «رشيد»، لنهاجر هجرة تسميها الحكومات «هجرة غير شرعية» لكن المقهورين مثلنا يرونها هجرة شرعية لسواحل إنجلترا.

في مركب هش محمل بأحلام الشباب والنساء والأطفال المودعين بلدهم بحثًا عن وطن، والبحر لا يعرف الرحمة ولا يعرف التفرقة بين الشيوعي والعلماني والليبرالي والإسلامي، إنه يساوي بين الثوار والفلول بين المناصرين للحكم المدني والمناصرين للحكم العسكري، البحر يدرك الحقيقة أكثر من الحكام، يدرك أن الجنية أصابة التعويم فغرق قبلنا وصار الدولار بعشرين جنيهًا، البحر يدرك حقيقة أحلامنا البسيطة وهي أن نحيا كما يجب أن نحيا، أن نستشعر إنسانيتنا ونحظى بحريتنا.

وعندما وصلنا المكان المتفق عليه من «سمسار التهريب «وجدنا كثيرًا من الشباب والقصر بناتًا وصبيانًا، جلسنا في مبنى متهالك مكون من طابقين يطل على البحر، وعندما أحكم الليل ستره دخل المهربين يوقظون من نام ويجمعونا للإنطلاق، ساقونا كما الغنم إلى مركب صيدٍ لا تليق بنقل السمك بعد اصطياده، تكدس الناس في تدافعٍ كما الدجاج في القفص، فرطب الموقف قبطان المركب بأننا

سنقطع مسافرة قصيرة في البحر ثم ننتقل لمركبٍ أكبر، فصبرنا، وانطلق المركب يشق البحر ليقرب أحلامنا.

وفي انطلاقة شكرٌ واجبٌ لأكثر الناس وطنية وأكثرهم احترامًا وتقديرًا لأحلام الشباب إنهم خفر السواحل والجنرالات المسؤلين عن الحدود المائية لمصر، شكرًا لحسن تعاونهم في تهريبنا.

لقد كان لي في هذا المركب تجربة حررت روحي من جميع الأغلال، بغض النظر عن هول المشهد لوجود أطفالٍ كثيرة ألقتهم أهاليهم في البحر آملين أن يعبروا بسلامٍ للشاطئ المقابل، آملين أن ينعم أولادهم بحياة أفضل فور قبض خفر السواحل الأوروبي عليهم لأن قانون الإتحاد الأوروبي يلزم إنجلترا بإستضافة اللاجئين القُصَرْ الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة فتأخذهم وتتكفل بتعليمهم وإطعامهم وبالتالي يصيرون مواطنين إنجليزيين وينعمون في أوروبا بحياة طبيعية لكنها بالنسبة لأوطانهم جنة.

وكان معنا على المركب أكثر من عشرين قاصرًا وقاصرة، من بينهم فتاة رقيقة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، فتاة في سن العشق وحدها على مركبٍ من ورق !

تعلقت بي في طريق تجمعنا قبل دخول الشاطئ وكنت أتمنى إقناعها بالعودة ولكن كيف..!! إنها «سما «أقصر علاقة مررتُ بها في حياتي ومع ذلك حققتُ معها مالم أحققة في تجاربي السابقة، حين وجدت منها تعلقًا وإقبالًا عليَّ وملازمتي أكثر من ظلي وكنت خائفًا عليها كما لو أنها ابنتي، وبالرغم من روعة الحب أن يبدأ في موقفٍ كهذا وينبتُ على مغامرة لكني لم أكن مستعدًا لبدأ أي علاقة، كان قلبي يقول «كل الذين مروا بنا شربوا من أرواحنا حتى أنهكونا، فلم نقدر أن يمر آخرون.. أيا صغيرتي.. أتيتِ وقتَ جفافنا.. فلا تضيعي

رحيق شبابكِ معي، ولتخبريني لهفتي ومشاعري للحب ماتوا.. فكيف أحييهم؟»

كان خوفي عليها بريئًا، فنظر لي صديقي محمد عبدالناصر قائلًا «ارحم نفسك احنا في عرض البحر»، فضحكت لإيماءات وجهه، وقلت له ساخرًا «يلا يا بتاع العيال «حيث تعلق به غلامٌ ريفي لم يتجاوز السادسة عشر، وبينما نحن في المركب الصغير، قالت سما:-

«بص بقي، لما نوصل إنجلترا لازم نفضل مع بعض علطول زي ما إحنا في مركب واحدة».

فأجبتها «بس نتفق إتفاق، مش هقولك خلينا أخوات واطلع عليكي عقدي من تجاربي الفاشلة، ولا هرتبط بيكي وأنا لسه قلبي مربوط في ذكريات حبيبتي، لو فعلًا عايزة نكون سوا هنبقي مجرد ولاد بلد واحدة، تسميها معارف أو زمايل، لكن مش هقولك إخوات ولا هرتبط».

ضحكت سما ضحكة فتذكرت فيروز يوم كانت بريئة، ثم قالت «أهو صراحتك دي كفيلة تخليني أحبك».

فإنتبهتُ لكلامها متعجبًا «معقول ممكن تحبي واحد بيقولك انه شايفك واحدة تانية، وده ممكن يوصله إنه يناديكي بإسمها، يعني وارد في كلامنا أقولك يا فيروز بدل سما».

هزت سما رأسها وقالت «البنت مش عايزة من الراجل أكتر من الصراحة».

تمعنتُ النظر فيها، وأنا أسألُ نفسي: لو كنتُ أخبرتُ أمنية بكل شيء هل كان الواقع سيتغير؟ هل من الوارد أن ترضي الفتيات بصراحة رجلٍ عن ماضية..!!

أم أن سما في سن المراهقة تقول كلامًا حالمًا، بالإضافة لكونها في

عرض البحر..!! الأهم، صارحت سما بأنني أحببتُ لاجِئة فصارت وطني، فتمنعت، فصرت لاجئًا. كنت واضحًا مع سما في أقصر علاقة مررتُ بها، كنتُ صريحًا وجريئًا فذقتُ لذة لم أتذوقها عندما أخفيتُ عن أمنية هواجسي بفيروز، وفي كل كلمة أؤكد على سما أني أفضفض مع أختي الصغيرة ولن أستغل تعلقها بي فأحبها وهي ليست حرة لتختار.

لقد علمتني تلك المراهقة الصغيرة خلال ساعتين درسًا عظيمًا، يجب أن تكون بداياتنا صادقة وللطرف الآخر حق الإختيار في أن يوافق على ماضينا أو يرفض، لكن قمة الأنانية أن نخفي جزءًا من ماضينا بحجة أننا نريد أن نكمل حياتنا مع من أحببناه، بذلك نحن لم نريه حقيقتنا وبالتالي فقد أحب الصورة المزيفة التي عرضناها عن أنفسنا، وعندما يدرك الحقيقة سيرحل، كما فعلت أمنية.

لقد حكيت لسما عن فيروز، عن براءتها ورقتها وطموحها وشغفها بالحياة وعن تفهما لي في كل شيء إلا حبي لها، حكيت عن كل شيء لكني ما حكيت عن هيثم، ولا عن نهايتنا، فما كان لي لأتكلم عن فيروز إلا بخيرٍ مهما صنعت بي.

وأخيرًا وصلنا لمركب صيدٍ أكبر وأكثر تهالكًا، سيلقبها التاريخ فيما بعد بـ «مركب رشيد».

انتقل الجميع للمركب الأكبر المكونه من طابقين، ولأن الطابق السُفلي كرية الرائحة لا يوجد به إلا باب في أوله وباب في آخره يفتحان للأعلى ويطلق على الطابق السفلي «الثلاجة «لأنه مخصص لتخزين سمك الصيادين..

لذا جلس الجميع على سطح المركب، وتمدد البعض وكنا لا نتجاوز الخمسين، وانتظرنا الإنطلاق لكن البحارة أخبرونا سننطلق مع الشروق.

مددت جسدي متكئًا وغرق صديقي محمد عبدالناصر في نومٍ عميق، وجلست سما بوضع القرفصاء لنكمل حديثنا ولم تمضِ ساعة اقتربت مركبٌ صغيرة محملة بعدد من المهاجرين، صعدوا لمركبنا فضاق السطح علينا وبدأ نزول عدد من المهاجرين الجدد إلى الثلاجة، وتعالت أصوات البحارة في شجارٍ مع بعض المهاجرين لرفضهم الجلوس في الثلاجة، ثم أكملت حديثي مع سما فأخرجت من ملابسها صورة لعائلتها فكانت الفجيعة، ما تخيلت أن تكتمل دائرة القدر في عرض البحر بصورة أباها وأمها يقفان ويجلس أمامهما أولادهم الثلاثة وهم سما وطفلين يصغراها، إن أباها هو الرجل الذي ضربته أمام زوجته وطفليه بسبب الخلاف على الأجرة، الآن فهمت إجابة سما حين سألتها وأنا منغمسٌ في التعجب مستنكرًا على عائلاتٍ يدفعون للموج أولادهم القصرخاصة البنات طمعًا في نعيم ما وراء البحر، كنتُ أومن أنه مهما كانت الأحوال بمصر فلا مبرر للمخاطرة بالبنات،لكني الآن أدرك مبرر أباكِ يا سما، إنه حاول تحريركم من الأوباش والبلطجية، لكنني لم أقصد أذيته وقت ضربه، لقد كنت مغيبًا عن الواقع من كثرة المصائب من إرتفاعٍ لسعر المواد البترولية ومن تضاعفٍ للإتاوة..

الآن أدرك أن أصغر شيء على هذا الكوكب يؤثر تأثيرًا رهيبًا في توازن الحياة، إن عصفورًا في أقصى مشارق الأرض يؤثر تغريدة على أقصى مغاربها، وجميع قراراتنا الشخصية تؤثر في توازن الأرض، فما بالكم بقرارات الحكام..!!

لقد كان مكتوبٌ لفيروز أن تكتمل قصة حبها مع حبيبها هيثم.

وكان مكتوبٌ لريم أن تعطيني الجواب الذي إعترفت فيه بمشاعرها فور عودتي من المطار.

وكنت سأفرحُ بما كتبته واكمل معها الحياة بقلبٍ بِكر.

وكان مكتوبٌ أن يذهب صديقي محمد عبدالناصر إلى جامعة بورسعيد فيلتقي بأمنية ويكملا حياتهما في سعادة ورخاء، فهما أنسب لبعضهما، وكان مكتوبٌ لسما أن تبقي مع أسرتها بمصر. إن الحب غير متاح فور صدور أول قرار جائر للسلطة.

مع أول قذيفة في سوريا تغيرت مصائر بلادٍ بعيدة وتشوهت مشاعر علاقاتٍ كانت ستنجح، لقد حول دمار سويا هيثم من عاشقٍ إلى دمويٍ شبيح، فاندفعت فيروز لمصر لتغير المكتوب وتدمر العلاقات دون أن تشعر، وبدأ مفعولها فور وصولها المطار بأن شغلتني عن الإتصال بريم فلم آخذ جوابها، وآلت الأحداث إلى أن تمنيت الخروج من القاهرة لتغيير شتات عقلي فالتقيت بأمنية وحرمت صديقي من لقاء حبيبته المكتوبة له، ثم حدث ما حدث.

الآن أفهم معني قوله تعالى.. ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

فياليت المسئولين يفهمون مدى تأثير قراراتهم على الحياة، إنني أبرئ فيروز من أي جريمة، إنها أكبر ضحية في قصتي لكنها تحولت من ضحية إلى لغم.

ولا أعلم لأي مدى سيؤثر اللاجئين على العالم..!!

لقد دخل مصر ما يقرب النصف مليون لاجئ سوري، ومن قبلهم العراقيين، والسودانيين، وجميعهم لاذنب لهم في مصائرهم، لكن لعنة الظلم تفتكِ بالبلاد أكثر من الطاعون.

سألتني سما وقد تغير وجهي «انت زعلان كده ليه؟ ده احنا مسافرين عشان نحقق أحلامنا «فأجبتها «وحشتني فيروز، وحشتني

جدا»، فضحكت سما قائلة «يا بختك يا ست فيروز «ثم ساد صمتٌ طويل، أغمضتُ عيني وثقل جسدي وقد مللنا انتظار الشروق لتتحرك المركب، أخذتني سِنة من النوم ثم استيقظت على جَلَبة وهرج لأكتشف وصول مركب آخر محملة بعدد كبير من المهاجرين، وزاد الشجار بين البحارة والمهاجرين، واستيقظت سما من نومتها بوضع القرفصاء وكانت رأسها مستنده على الجدار فدفعها تزاحم المهاجرين الجدد فسقطت على وجهي حجبت رؤيتي فدفعتها برفقٍ فعادت رؤيتي لأنتفض واقفًا وأصرخ عاليًا «فيروز..!!».

(٥٧)

أيُ واقعٍ تعيشينه يا فيروز..!! تهربين من نوح إلى نوح..!!

لم أشعر كيف التحمنا في عناقٍ طويل، يا نوحي أنت التعريف الأوحد لطوق النجاة، إن بكائي في حضنك الآن شيء لا يوصف بالفرح أم الحزن أم الصدمة، كان الجميع يتدافعون في عشوائية وشجارٍ، ونهيقٍ من البحارة والمهربين لكن ضجيج العالم إختفى فور إختبائي بحضنكِ الذي انتظرته سنينًا وما كنت لأتذوقه إلا بهروبي منك ومن مصر،الوطن في حضنك، لماذا تركتني طيلة هذا العمر؟ إن لحضنك حلاوةً تبرهن كذبك طيلة السنين الماضية، واسمع قلبك يناشدني.. الآن فزت بكل شيء، أنتِ خير متاع الدنيا يا وئام روحي والجزء المفقود من نفسي، ولا تشعر اجسادنا بتدافع الجميع حولنا لطالما تلاقت أرواحنا حتى انطلاق المركب لم يفرق تلاحمنا، ولا داعي لحساب الزمن في حضنك إننا نحسب الوقت عندما ننتظر شيء ومعك لا ينقصني شيء.

«بحبك أوي يا فيروزتي، بحبك ومش مصدق نفسي».

لقد قالها حبيبي ثم تراجع برأسه للخلف وأرخى يداه من حول رقبتي وظهري ليسمح للعالم أن يتواصل معي من خلف كتفه، لتتلاقى أعيننا لخدودٍ تلمع بالدموع يتبعها بقبلةً بين حاجبي تزيدني نشوة وتخديرًا وتلاشيًا للواقع.

كان العتاب عناق، والتفاهم قبلتين على كفي، فتجرأت وقبلت

خدي نوحي ومسحت دموعه. وتفاهمنا وتضاحكنا على سذاجتنا، يا حبيبي لقد كذبتُ عليك كأي فتاةٍ تريد أن توقد الغيرة بقلب حبيبها فتخبرة أن هناك من يريد خطبتها، وتمسكك بالحفاظ على إخوتنا الزائفة التي تصنعتها معك في البداية جعلتني اذهب لمحمد شعبان الذي لم يطلب خطبتني يومًا، كان مجرد زميل له علاقات بالمهربين وساعد كثيرًا من السوريين في الهجرة فلجأت إليه ليساعدني في الهرب منك فما كنتُ لأصبر عليك أكثر من تلك السنين خاصة بعد رحيل جدتي لم يبقى لي بمصر ألاك، فهربتُ منك لتمسكك بأخوتنا، لم تفهم غنج الفتيات ودلالهن على أحبتهن، وأخذت كل شيء على محمل الجد ويكأني أحد سائقين ميكروباصاتك أو بلطجية الموقف.

يا حبيبي دع الماضي فقد هجرناه وهربنا منه لنلتقي على حدود المستقبل ونبحر للأحلام، هاك يديك تعانق خصري ودع عرقك يكون عطري، ولأطلق العنان لشعري ليتطاير ويناغش وجهك فلا شيء سوانا.

وظننا أننا نهرب، فهربنا لأقدرانا.

«المركب بتغرق يا ريس «جملة انتشلتنا من نشوتنا، انتبهنا على إثرها على تأرجح المركب وصراخ الناس فوضعت خدي على صدر نوحي وإختبأت واحتضنت ذراعه، لا غرق بعد عناقك، الغرق هو الحرمان من الاختباء بين ذراعي حبيبك، ضمني إليك يا حبيبي لأخلد.

(٥٨)

أهلًا أهلًا بالموج الهادئ مقارنة بأمواجِ شطحات بلدي، يا أيها الماء تغلغل رئتي برفقٍ كي لا تعكرك أثارَ الغاز المسيل للدموع، والقابع في ثائرٍ مصري من بقايا ثورة يناير.

لم أتخيل أن ديسمبر من عام ٢٠١٦ ستكونين بحضني يا فيروزتي.

فليتأرجح المركب كما شاء، ولنتعانق كما نشاء.

إنهم لم يخبرونا في قوانين الطفو وقواعد أرشميدس أن الوطنية والعشق أكثر ما يثقل الأجسام وقت الغرق، وأن الهروب مخصص لكبار اللصوص أما عامة الشعب تلتهمهم الأمواج. إنني أنا نوح، إسمي الذي إرتبط بالنجاة من الغرق ها أنا على مركبٍ تغرق،إن نوحًا في زماننا غريق، لكن نوح الذي رأسك على صدرة ذاق الخلود يا فيروزتي.

وكلما ازدادت المركب تأرجحًا إزداد عناقنا تمخطرًا يا فيروزة الفؤاد ووئام روحي.

يا فيروزتي خَضَعَت لنا دُوَلْ، وقُصِفَت لأجلِنا مُدُنْ، وعُزِفَت لنا أحداثٌ عالمية.

كل هذا لنلتقي ياحبيبتي..!؟

وكلما ازداد دخول الماء لسطح المركب المتهتك جدرانه، ازداد احتضان صديقي محمد عبدالناصر للغلام الريفي ومعه سما.

وبالرغم من تساقط كثيرًا من الركاب في المياه لم نشعر بخطر،

وزادت فرحتنا بصفير مركب تقترب حولنا لإنقاذ مركبنا الهزيلة شبية مصرنا

إنني ما تخيلت الحياة وردية ومبجهة كحالنا الآن، فإن انقذونا فالنكمل أحلامنا، وإن متنا يكفيني أن أموت بحضنك يا فيروزتي، عانقيني لأحيا، قبليني لأخلد، املئي مسامعي بطفولة ضحكتك لأبصر الجنة بدون حساب.

إن حبنا الذي لم يجد وطنًا يحتويه، ربما لن يحتضنه مركب صغير متهالك هارب.

لكن عناقنا وطن الروح وقِبلة العشق، ومداد الحياة

(بعد الحكاية)

بعد ساعاتٍ إنتشر فيديو لتصوير «مركب رشيد» وهي تغرق والناس على سطحها يناشدون النجاة وفي لحظة إذاعتها على جميع القنوات الفضائية كان والد نوح وأمه نائمين، وكان الإعلاميون يعزفون نغمة واحدة بكلماتٍ رنانة بأن الشباب الذين غرقوا فاشلين وكسالا يريدون الربح السريع ولا يحبون الإجتهاد وأن كل فرد دفع للمهربين ٣٠ ألأف جنية مقابل أن يحمله على مركبٍ لا تصلح للسير فارغة، ثم تكرر سؤال إستنكاري من الإعلاميين ورجال الدولة الذين يعرفون الإجابة جيدًا، قائلين «لماذا لم يتعلم الشباب الكفاح في وطنهم كما فعل اللاجئين السوريين الذين حققوا نجاحًا مبهرًا في مصر مع أنهم بدأوا من الصفر في بلدٍ غير بلدهم..!! لماذا يهرب الشباب مجازفين بأرواحهم ووطنهم مليء بالخيرات..!!

لماذا يدفع الشباب مبالغ مالية كبيرة للهجرة غير الشرعية بدلًا من استثمارها في مشروع..!!

وبدلًا من إنشغال المسئولين بتفهم هذا الجيل ومحاولة الإصلاح، ظل الإعلاميون يسبون مائتي وأربعة روح غرقوا دفعة واحدة بدلًا من أن يقدموا عزاءًا للوطن في غرق الجيل الذي أسموه من سنواتٍ قليلة «جيل ثورة يناير «و «الورد إللي فتَح».

وتم إنقاذ ١٦٣ شاب بانتشالهم من وسط المياة، وعندما تمت إستضافتهم في عدة قنواتٍ فضائية صرح معظمهم أنهم سيحاولون

الهجرة من جديد، ووجد من بينهم شباب كثيرة لم تكن هذه مرتهم الأولي في محاولة الهرب من مصر حتى إن أحدهم صرح في أشهر برامج التوك شو اليومية: أن رفيقة غرق وكانت هذة المرة التاسعة له في محاولة الهرب.

وفي نفس وقت إذاعة الفيديو كان آلالاف السوريين يهربون من سوريا بحثًا عن وطنٍ يلجأون فيه، وكانت مخيمات اللاجئين تتكدس بالجرحى والمشردين.

وفي نفس وقت إذاعة الفيديو كان بلطجية الموقف انتهو من جمع الإتاوات ويعطونها لكبيرهم (خالد أبو شنب)الذي يجلس على المقهي المقابل للموقف يدخن الشيشة، ويحسب الإتاوات قبل أن يذهب بها إلى..

أمين الشرطة / كمال حمودة.

وكان المجذوب يصيح في الموقف قائلًا «المركب بتغرق يا قبطان، البلد مش حِمل لعنة الدم».

تمت بحمد الله

أحْبَبْتُ لاجِئَـة

أحببتُ لاجئِة..
ليست مجرد قصة للتسلية..

بين أيديكم إجابة أهم سؤال استنكاري صيغ للاستهزاء من جيلي، وها أنا أضع جزءًا بسيطًا من الإجابة برواية صاحبتُ جميع أبطالها وتوغلت في حياتهم، لكن واقعهم فاق الخيال الروائي لأنهم عاشوا في زمنٍ فاق العبث بمراحل، ففي حياة كل منهم أحداث كثيرة تكشف كيف عاش هذا الجيل وكيف تطورت مشاعرهم وكيف تأرجحت أمانيهم، ولماذا وصلوا في النهاية لموضع اتهام وسخرية من المجتمع.

فبعد أن درست حياتهم كاملة وفتشت في تفاصيل ماضيهم، نزلت إلى أرض المعترك الحقيقية وهي «موقف ميكروباصات الأجرة» لأكتشف وطنًا صغيرًا تحكمه نفس قوانين العالم لكنها مجردة من نفاق الدبلوماسية، وتتسم بالوضوح التام.

وكانت فترة البحث صعبة، والأكثر صعوبة فترة تشبيك خيوط القصة وتلاحم شخصيات ما كان لها أن تتقابل يومًا.

لكنهم تقابلوا بقلمي ليدافعوا عن جيلٍ بأكمله ويضعوا بصماتٍ في التاريخ ومرجعًا للأجيال القادمة.

إلى البطل الحقيقي...

«عمر»

شكرًا

(عن المؤلف)

محمد عادل محمد عبدالعال المشد
ليسانس آداب - قسم إعلام / صحافة - جامعة عين شمس.
(حاصل على المركز الأول لكتابة القصة من جامعة عين شمس لعام ٢٠١١/ ٢٠١٢)

الأعمال السابقة:-

١) رواية عرفت الله بحبك
٢) كتابة وتقديم برنامج «عيد «للأطفال - قناة الناس الفضائية.
٣) إخراج وتأليف حملة «بيحبنا وبنحبة ﷺ «عن مواقف الرسول ﷺ مع الاطفال - قناة سمسم للأطفال الفضائية.
٤) كتابة وتقديم برنامج «فيسبوكاوي «-قناة صدى البلد الفضائية.
٥) كتابة وأداء صوتي لحواديت برنامج «قصاقيص «- قناة الندى الفضائية.
٦) كتابة حلقات الأطفال لبرنامج «ساعة مع شريف «للإعلامي / شريف مدكور - قناة المحور الفضائية.
٧) كتابة حلقات الأطفال لبرنامج «وماذا بعد «للإعلامية / رولا خرسا - قناة LTC الفضائية.
٨) تأليف وإخراج...
«فيلم جزيرة الورد» و«فيلم إنتحار ممتع» و«فيلم بالعكس» و«فيلم بدون أعذار»
٩) كتابة وتقديم برنامج الأطفال «حبات الؤلؤ - الموسم الثالث» - قناة أهل القرآن الفضائية.
١٠) المشاركة في كتابة وتقديم البرنامج الوثائقي «بلاد الكنانة» - قناة اقرأ الفضائية.